حسن أوريد

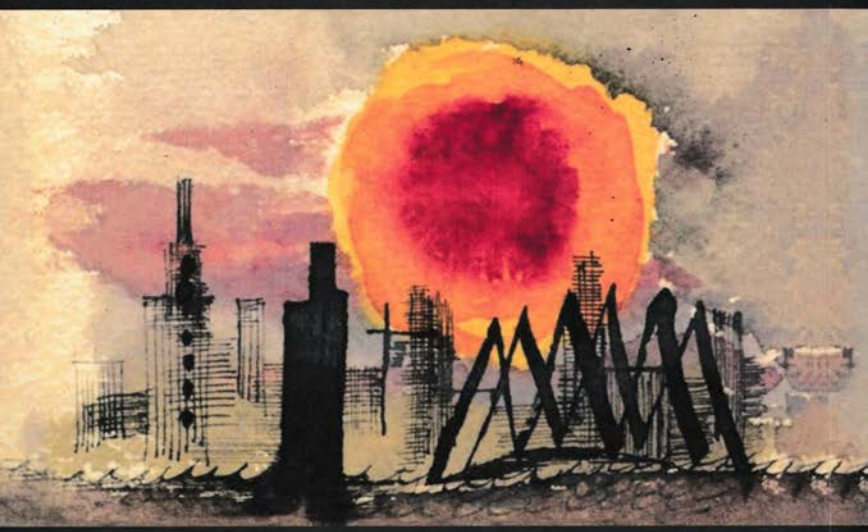

أفول الغرب

مكتبة

المركز الثقافي العربي

لن ننسى تشرين . 23

لن ننسى غزة والشهداء

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa

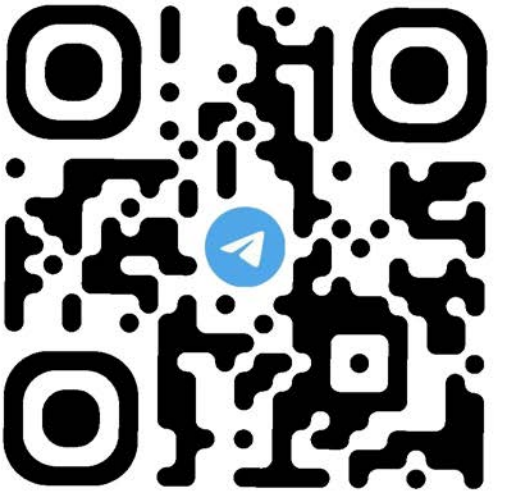

حسن أوريد

أفول الغرب

حسن أوريد

مكتبة
t.me/soramnqraa

أفول الغرب

المركز الثقافي العربي

الكتاب

أفول الغرب

تأليف

حسن أوريد

الطبعة

الأولى، 2018

عدد الصفحات: 208

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-869-5

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 212 522 305726+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 ـ 01 352826

فاكس: 961 1 343701+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

«لقد صدع العالم بالحرية، في السنوات الأخيرة خاصة، ولكن ما الذي تمثّله هذه الحرية؟ لا شيء سوى العبودية والانتحار، ذلك أن العالم يصدح بالقول: «لديك حاجات فلتُشبعْها، فأنت تملكُ ذات الحقوق التي يملكها الكبار. لا تخشَ أن تُشبعَها، بل ضاعف منها». هذا ما يُلقّن اليوم. ذلك فهمهم للحرية. وماذا يترتب عن هذا الحق من الإكثار من الحاجات؟ الوحدانية والانتحار الروحي عند الأغنياء، والطمع والقتل عند الفقراء. مُنحت الحقوق من دون أن يُرسم السبيل لإشباع الحاجات. يزعمون أن العالم، مع تقليص المسافات ونشر الفكر في العالم، ستترسخ وحدته وأن الأُخُوّة ستسوده. أضغاث أحلام. لا تؤمنوا بوحدة على هذه الشاكلة. فهُم بفهمهم للحرية باعتبارها تكاثراً في الحاجات، وسعياً لتلبيتها على سبيل الاستعجال، يسيئون لطبيعتها، ذلك أنهم يبثّون في الناس رغبات هوجاء بلا معنى، وعادات وتصورات عبثية».

فيودور دوستويفسكي، **الإخوة كارامازوف**

« The essential qualities of national greatness are moral, not material ».

Lecky's *History of England*

«الميزات الأساسية لعظمة الأمم هي بالأساس أخلاقية، وليست مادية».

ليكي: **تاريخ إنجلترا**

« Le monde entier suit l'Occident, et l'Occident ne va nulle part ».

Maurice Bellet

«العالم يقتفي أثر الغرب، والغرب يهيم بلا وجهة».

موريس بيليه

مكتبة
t.me/soramnqraa

توطئة

لأكثر من أربعة قرون وقاطرة العالم مُقْرنةٌ بالغرب، منذ النهضة الأوروبية في القرن السادس عشر ميلادي. الغرب من حدّد التوجُّهات العلمية للعالم، بإنجازاته التقنية، واختراعاته العلمية، وتفوّقه المعرفي واكتشافاته الجغرافية وقوته الحربية، ومَضَاء سلاحه وفتكه، ومنجزاته الاقتصادية وتصوراته السياسية ومنظومته الثقافية. نحيلُ في العلوم إلى مرجعية كوبرنيكوس وما أعقبها من ثورة نيوتن، وبعدها من الفيزياء الكوانتية فنسبية أينشتاين. ونأتمُّ في عالم الاقتصاد بالمنظومة التي أرساها الغرب منذ الفيزيوقراطيين إلى النيوليبراليين. ونحيلُ في خطابنا السياسي، حينما نريده حداثياً، إلى السيادة الشعبية والديمقراطية وحقوق الإنسان، وهي مفاهيم برزت في الغرب، في سياق تاريخي مُعيّن وودينامية مجتمعية خاصة. ونَمتَحُ من معينه الفكري والفلسفي لمقاربة القضايا الاجتماعية المعقّدة، والتشوف لما بلغه من رقي. وتظلُّ رؤانا الثقافية والفكرية متأثِّرة بالمراحل التي عرفها منذ أن انعتق من القرون الوسطى والمقاربات التحليلية التي كرّسها. نقف عند ماكيافيلي لنستجلي الفهم الجديد للسياسة، ونحيل إلى هوبز للإحاطة بالعقد الاجتماعي، وبودان

لإدراك مفهوم السيادة، وإلى روسو للمواطن، وجون ستيورات ميل للحرية، وإلى هيغل لفهم الدولة. ناهيك عن أخذنا بأسباب التقنيات التي ابتدعها الغرب في كل أوجه الحياة. ولا نرى ضيراً أن نسلك سبيله في مناحي الحياة والتأسّي بأساليبه. نلبس ربطة العنق والجينز أو التنورة، ونستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية والجاز، وتنحو أغلب الفئات المجتمعية الحديثة أو التي تصبو إلى الحداثة إلى أن تستعمل السكين والشوكة حين تأكل، وقد يحتفل بعضنا بعيد الميلاد أو الكريسماس، ولا يستطيع ما نبدعه ثقافياً أن يبلغ مبلغ العالمية ما لم يحظَ بتكريس الغرب له أو يرعاه ويقبل به. يظلُّ ذلك النِّتاج طالما هو في حضننا، نسيّاً منسياً إلى أن يتلقفه الغرب ويحتضنه فيسري كالنور في الأرجاء، أو النار في الهشيم ويبلغ إذّاك مبلغ العالمية، في السينما والغناء والرقص والأدب، لأن الغرب واضع النواميس. يظلُّ جينوم الحداثة غربياً، ويظل سدى الحداثة أو «قانونها» ذلك الذي برز في الغرب. فأكبر دولة في العالم، وهي الصين، تأتمُّ سياسياً بفكر ماركس الذي كان نتاج الدينامية الاقتصادية والسياسية التي اعتملت في أوروبا، وتخضع اقتصادياً لفكر آدم سميث، ولا تحيل إلى الكونفوشيوسية إلا فيما يرتبط بالحياة الخاصة، أو لما قد يعين على الأخذ بأسباب الحكمة والنظرة الفلسفية للحياة.. وقل ذات الشيء عن اليابان. وقل ذات الشيء عن الهند، ناهيك عن أميركا اللاتينية، وبالأخص تلك التي شقّت سبيل الحداثة كما تشيلي، أو كما القوتَين الكبيرتَين فيها: البرازيل والمكسيك.

لم يبلغ الغرب هذا المبلغ من الحضارة من غير صراع مع حضارات كانت مُشعّة قبل أن يزاحمها ويدفع بها إلى ردود الفعل

وبعدها إلى الانزواء، ويفرض عليها أو على فصائل من بينها رؤاه ويقوبلها بقالبه. وكان من الصراعات المريرة ما بين الغرب، أو قل المسيحية آنذاك، تلك التي قامت مع الحضارة الإسلامية. نعم، لم يعد الغرب اليوم مقترناً بالعالم المسيحي، ويضمُّ ضمن ما يضمُّ الرقعة الجغرافية التي برزت بها المنظومة التي أثّرت في العالم، وحددت توجهاته، وهي أوروبا، ثم بعدها الولايات المتحدة، ليتوسّع بعدها إلى أستراليا ونيوزيلندا، ثم إلى اليابان، وليُصبح الغرب بعدها ليس فضاء جغرافياً ولكن منظومة قيم وأسلوب عمل (Modus operandi). ومع ذلك لا نستطيع أن نفصله عن جذوره المسيحية، مثلما لا نستطيع أن نضرب صفحاً عن أصوله الإغريقية الرومانية. ليس معناه أن الغرب يُجري خياراته وفق قوالب المسيحية أو ما تمليه الكنيسة، وما يفرضها متنها (Vulgate)، وما تعِد به من الرضوان (Salut) أو السعادة الأبدية، ولكنه لم ينسلخ عن هذا التراث واستعاده بشكل آخر، أو بما يُسمّى في العلوم النفسية بـ Métanoïa أي الإيمان بطريقة مغايرة. ومن الجائز أن يكون المرء في الغرب غنوصياً لا يؤمن بالله، ولا برسالة المسيح، ولكن ذلك لا يمنعه من الإيمان بالتراث المسيحي، ولا يَفصل نتاج الغرب عن هذا التراث.

كان الصراع على أشُدّه ما بين عالم المسيحية (Chrétienté) والحضارة الإسلامية، سواء في غربها قبل سقوط غرناطة وبعدها، فيما سُمّي في الأدبيات الإسبانية بحروب الاسترداد (Reconquista)، أو في شرقها في الحروب الحامية الوطيس مع الإمبراطورية العثمانية بعرض البحر الأبيض المتوسط، وتُعتبر معركة ليبانت (Lépante)

إحدى محطاتها البارزة. وهو صراع تغيّرت أشكاله، وتبدلت أحواله، ولكنه لم يندثر.

ورغم أن فلسفة الأنوار حملت معها منظومة قيم اعتبرها أصحابها ذات بعد كوني فإن الصراع لم يتوارَ، وكان من تجلّياته التوسُّع الاستعماري. وواكب هذا المد الثورةُ الصناعية التي نمّطت العالم وفق منظور أحادي وجعلته سوقاً وأزاحت من ثمة الحدود.

كان الاستعمار في وجه من أوجهه جانباً من جوانب الصراع. واصطدم ببنيات قائمة وحضارات عريقة لم تَسلَم من مخلّفات عتيقة، وفرض في غمرة ذلك تقنياته ووسائطه وتصوراته.

في خضمّ التناقضات التي أفرزها العالم الغربي، قامت الثورة الشيوعية، وتبدّت منذ الأزمة الاقتصادية لسنة 1929 كبديل للمنظومة الرأسمالية. ثم اصطفت بعدها إلى جانب المنظومة الرأسمالية الليبرالية أمام خطر الفاشية والنازية المحدِق، وكانتا تُعتبران خطراً يتهدّد الحضارة الغربية بكاملها. وأضحت الشيوعية حاملة لمشعل الغرب، واستهوت المثقفين به. اعتبرها كلود ليفي ستروس مكر الغرب التاريخي، أو الحيلة الأخيرة للغرب للحفاظ على سؤدده، وذهب ذات الرأي شيوعي بريطاني هو إيريك هوبسبون في كتاب يحمل عنوان **كيف نُغيّر العالم**[1]. وما لبث اندحار النازية أن وضع المنظومة الليبرالية والشيوعية وجهاً لوجه في صراع مرير أخذَ شكل حربٍ باردةٍ بين القوتَين العُظمتَين: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. كانت الحرب الباردة صراعاً حول مفهوم التاريخ ومنظور

(1) Eric Hobsbawm: *How to Change the World, Tales of Marx and Marxism*, Yale University Press, 2011.

الإنسان، وعلاقته بالآخر، وبالأشياء. كان صراعاً مريراً مثل أي صراع إخوة...

وعرفَ العالم موجة استقلالات في منتصف القرن الثاني من القرن العشرين للدول التي كانت مستعمرَة، وانتظمت في مؤتمر باندونغ في إندونيسيا سنة 1955 يقيم جبهةً أفريقية آسيوية موحّدة، ويتوخى أن يُرسي نواة عالم جديد. ورأى شاعر السنغال ورئيسها الأول ليوبولد سيدار سنغور في اللقاء أهم حدث في العصر الحديث بعد عصر النهضة. بدا كما لو أن الاستعمار قد دُحر، ولكنه لم يتوارَ إلا ظاهرياً، لأن النخب الحاكمة لم تتحرر من ميراثه ولا منظومته ولم تنسلخ من رؤاه، وظلّت أغلبها مرتبطة سياسياً واقتصادياً وثقافياً بالدولة المستعمِرة سابقاً (La métropole)، ولذلك لم تكن الاستقلالات تحرُّراً.

في حمأة الصراع ما بين المنظومة الرأسمالية والمنظومة الشيوعية، انتقل الصراع الأيديولوجي إلى الأطراف، ولم يكن بارداً حينها بل اتّخذ شكل حروب ساخنة، في كوريا بين الشمالية والجنوبية، وعدة أرجاء من أفريقيا، وجنوب شرق آسيا في فيتنام والشرق الأوسط وأميركا اللاتينية. توزّعت الدول الثالثية بين منظورَين، بين اقتصاد السوق والتعددية الحزبية والحرية، ظاهرياً على الأقل، وبين الاقتصاد الموجَّه والحزب الوحيد والعدالة الاجتماعية اسمياً... في هذا الصراع وُظِّفت كل الأساليب التي من شأنها أن توهن من الخصم أو تَفُتَّ منه عن طريق الدعاية والتعبئة والقولبة الأيديولوجية وسباق التسلُّح، بله مبادئ حقوق الإنسان التي استُعملت لتقويض المنظومة الشيوعية.

وكان أن انهزمت الشيوعية، أو انهزمت المنظومة التي كانت يتزعّمها الاتحاد السوفيتي مع سقوط جدار برلين. لم يعد عالم الغرب في حاجة إلى حرب ولا سباق تسلُّح، بل كانت تكفي حفنات سراويل الجينز وموسيقى الروك وصور مباهج الحياة كي ينهدّ الدُّب الروسي، ومعه منظومة الديمقراطيات الشعبية كقصر من ورق. وعمَّ الزهو الغرب، وبالأخص الولايات المتحدة، ولم يعبِّر شخص عن هذا الزهو مثلما فعل فوكوياما في مقالٍ توسَّع فيه إلى كتاب عن نهاية التاريخ. وكانت الزفَّة التي عبَّرت بشكل صارخ عن انتصار الغرب أو الولايات المتحدة على الأصح هي حرب الخليج الثانية (1991)، أو ما أسمتها الولايات المتحدة بـ«عاصفة الصحراء» و«الثعلب المراوغ». وتعتبر حالة حرب الخليج حينما أقدم صدام حسين على احتلال الكويت، حالة مدرسية لتغيُّر البراديغمات. لم يفطن القائد العراقي صدام حسين على أن قواعد اللعبة تغيرت، وأن براديغم الحرب الباردة ولّى، ووقع في الفخ جرّاء ذلك. وقد جيّشت الولايات المتحدة الجيوش باسم التحالف الدولي، لتطبيق القانون الدولي، باسم «النظام العالمي الجديد».

إن ما سُمّي بالنظام العالمي الجديد لم يكن إلا كناية لانتصار الولايات المتحدة وعنوان سؤددها، وتورية لانهزام الاتحاد السوفيتي. فلم تهبَّ الولايات المتحدة إلى الحرب في أرجاء كان القانون الدولي يُداس فيها جهاراً، والإرادة الشعبية تُنتهك بلا إرعاء، ولم تتحرك حينما تعرضت رواندا لحرب أهلية شنيعة، ولم يكن تحرك الولايات المتحدة في الصومال لاعتبارات إنسانية إلا تحت ضغط الإعلام، وأسهمَ في تعقيد الأمور أكثر من حلّها، مثلما أن

تحركها في ملف الصراع العربي الإسرائيلي، والقضية الفلسطينية، لم يكن يخضع لما يفترض في الوسيط النزيه (Honest broker)، وهو المصطلح الذي نحته ولم تأخذ به.

تُعتبر حرب الخليج أو حرب العراق الأولى حلْقة مهمة لفهم ما سوف يتناسل بعدها من تطورات، لأنها كانت تحمل جينوم ما سيجري. ومن الضروري أن نستحضر هذه العلاقة المريبة ما بين الغرب والعالم العربي، فكأن العالم العربي الساحة التي يُعبِّر فيها الغرب عن سؤدده، لما يمكن أن يُسمّى بلا وعي تاريخي، يحيل إلى ذلك الفضاء الذي كان جزءاً من المسيحية وانتزعه منه الإسلام، وتعبأت المسيحية باسم الحروب الصليبية والاسترداد لتأخذ ثأرها. ويكفي ها هنا أن نستدلَّ بمطالب حزب من الأندلس طالب في غُرة شهر أغسطس 2017، والحراك بمنطقة الريف في المغرب على أشدّه، بضمِّ أجزاء من شمال المغرب لأنها كانت تاريخياً جزءاً من شبه الجزيرة الإيبيرية قبل أن يفصلها عنها «الغزاة العرب باسم الإسلام»، مثلما يسوغ أن نحيل إلى الخطابات الإسلامية التي تريد أن تسترجع الأندلس، ما يفيد أن اللاوعي التاريخي مشحون ما بين العالمَين. وتقترن أعمال الإرهاب التي تقوم بها جماعات إسلامية في إسبانيا بهاجس الأندلس المسلمة، أو اللاوعي التاريخي، سواء في مدريد 13 مارس 2004، أو برشلونة 17 أغسطس 2017.

في الوقت ذاته، لم يبرأ الغرب أو ما كان عالمَ المسيحية حتى لمّا أضحى علمانياً من أثر هذا اللاوعي التاريخي، ففرنسا العلمانية تذرّعت بحماية الأقليات المسيحية في الشرق الأوسط من أجل تبرير تواجدها بالمنطقة واعتبرت هذا المقتضى محدِّداً لسياستها الخارجية

في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين... وحينما انتصر الجنرال غورو في معركة ميسلون على الثوار العرب، في ضاحية دمشق سنة 1920، كان أول ما قام به هو الوقوف على ضريح صلاح الدين الأيوبي صادحاً: «ها قد أتينا»... وقُل الشيء ذاته عند احتلال الجزائر وما كان يردّده المبشِّرون المسيحيون مستحضرين ذاكرة القديس أوغسطين: «ها قد عدنا».

لم يتوارَ هذا اللاوعي التاريخي أو يضمحلّ، وهو ما يفسر في جانب كبير الكبوات التي عرفها العالم العربي. وحينما انزاحت القوتان الاستعماريتان، بريطانيا وفرنسا، عن الشرق الأوسط، وحلّت محلهما الولايات المتحدة، حملت جزءاً من هذا اللاوعي التاريخي، وأضافت إليه ما يسميه البعض باللاوعي الاقتصادي، الذي حدَّد سياستها في المنطقة لعقود، وهو البترول...

هزّت فرقعات حرب الخليج جسم العالم العربي، وانغرزت في ثناياه كما تنغرز الشظايا ولا يبدر أثرها إلا بعد حين. وكانت رسالة إلى روسيا التي لم يسَعْها في حالة الهوان والفوضى والتسيُّب التي عرفتها إلا أن تسير في ركاب الولايات المتحدة، أما الصين فكان يهمُّها وضعها الاقتصادي ولم تكن تشرئبّ لدور سياسي.. ومثلما سكنت آثار حرب الخليج في لا وعي شعوب العالم العربي، غارت في لا وعي روسيا. هو ذا الشعور الذي كمن لكي ينبعث بعدها.

لم يعكِّر شعور الانتشاء الذي أعقب سقوط جدار برلين شيء سوى أحداث 11 سبتمبر 2001.. ولم يزاحم أحد أميركا سؤددها أو قيادتها للعالم، ولم يشكِّك أحد في «صواب» الخيارات الليبرالية التي وضعتها وفرضتها سوى ثلة من الباحثين لم يكن يؤبه بهم... إلى

أن انفجرت الأزمة المالية والاقتصادية لسنة 2008. ولم يكن ليعزب عن النظر الحصيف أن الأزمة ليست عارضة وأنها بنيوية، وأن أثرها لن يكون أقل من أزمة 1929 التي كان من نتائجها تفشّي الاتجاهات الفاشية واستقواء المنظومة الشيوعية.. أي أن الأزمة الاقتصادية لم تسفر بعدُ عمّا يمكن أن تتمخّض عنه سياسياً، وإن بدت إرهاصات هذا التطور من خلال تفشّي الخطابات الشعبوية، أي تلك التي تدغدغ الشعور وتلهب الحماس، ولا تحمل بالضرورة تصوراً، وإن طفحت غضباً وموجدة.

لم تعد روسيا مستعدّة، وقد تبدّت اختلالات المنظومة النيوليبرالية في الاقتصاد، والأحادية القطبية في السياسة، كي تترك الحبل على الغارب لفائدة الولايات المتحدة. لقد كانت الولايات المتحدة مثلما يقول الباحث السوسيولوجي إيمانويل تود، منذ الحرب العالمية الأولى، الحل لقضايا العالم، ولكنها أضحت عقب سقوط جدار برلين مصدر مشاكل العالم. لذلك كانت عودة فلاديمير بوتين إلى رحاب الكرملين سنة 2012 وإمساكه بزمام السلطة مؤشّراً على معطى جديد في مسرح العلاقات الدولية، ورغبة في الثأر لما تعرّضت له روسيا من إهانة على الساحة الدولية، أو من خلال تفكيك داخلي عبر مافيات الخصخصة والأسلحة والجريمة المنظّمة.

كنت أفردت لهذه الأزمة وما تحمله من إرهاصات وما قد تفضي له من تداعيات كتاباً بعنوان **مرآة الغرب المنكسرة** لاقى قبولاً حسناً في المغرب، ولكنه لم يُعرف خارجه، ولذلك أعود لنتائج ما انتهيت إليه، وعياً مني بأنها تحمل إرهاصات عميقة لعالم جديد لم تتحدد معالمه بعد. لقد تواترت الأحداث لتُفاقم من الأزمة التي عصفت

بالغرب سنة 2008، ولم تكن تلك الأزمة إلا تعبيراً لأعراض غائرة من أزمة عميقة. اهتزت المنظومة الأوروبية سنة 2016 مع انسحاب بريطانيا من المجموعة الأوربية فيما يُسمّى ببركسيت، وفيما اعتبرته جريدة **فاينانشال تايمز** باللحظة التي تغلق قوس سقوط جدار برلين. وعرفت القوة العالمية الأولى عقب هذا الحدث انتخاب رئيس أميركي، دونالد ترامب، اتَّسم خطابه وهو مرشحٌ بالغلو وانعدام الرَّوِية من الدعوة إلى الحمائية الاقتصادية والتهجُّم على المسلمين. وهو يمثل من خلال خطابه هذا المنحى الغالب ألا وهو الشعبوية. ليست الشعبوية إلا عرضاً لأدواء عميقة، وإرهاصاً لتطورات مقلقة. لقد فنّد انسحاب بريطانيا وانتخاب ترامب توقعات مراكز الرصد، وأصبح اللامتوقع ممكناً، وهي القاعدة التي أضحت تطبع العالم غير تلك النظرة الرومانسية لنهاية التاريخ، أو شيوع الأمن والدعة والسكينة، واستبدال خطر الحروب والتطاحن بـ«خطر» الملل، ما يفتح أسباب الترفيه ومنادح المتعة.

تعود الحرب الباردة في شكل جديد، من دون أيديولوجيا، ومن دون سباق التسلُّح وأسلحة الدمار الشامل.. لحظة التحول البارزة هي حين ضمّت روسيا جزيرة القرم. بؤر الصراع هي أوكرانيا وسوريا، وواجهتها العالم العربي. لا يعزب عن ذهن أصحاب القرار بالكرملين طموح العودة إلى الشرق الأوسط، عبر سوريا، والتشوف إلى مصر، مفتاح الشرق الأوسط، واستعادة مناطق النفوذ التي كانت تابعة سابقاً للاتحاد السوفيتي.

إن ما نعيشه هو ما يسميه البعض بتحول تراتبية المواقع. لن يقود الغرب العالم، أو لن تكون له السيادة المطلقة. هذا التحول

العميق لن يطرأ كرسالة في البريد، ومن شأنه أن يحدث تغييرات عميقة، ومن شأن الدول المرتبطة بالغرب تاريخياً وثقافياً ووجدانياً أن تكون ساحة لاضطرابات عنيفة يمكن أن تمتد لعقود.

سيعرف العالم العربي تحولات عميقة غير مسبوقة، تبدّت أعراضها في دول فاشلة أو عاجزة أو حروب أهلية، ومن شأنها أن تستفحل وتتوسع.

إن ما يعتمل في العالم العربي ليس سوى رجع صدى لأزمة الغرب في جوانب كثيرة منه. ومن شأن التوتر أن يستفحل في ظل سباق قِوى دولية جديدة وتواري أخرى، وبروز قوى داخلية بمرجعيات أيديولوجية جديدة. وقد يفضي الأمر، في غياب مفهوم الدولة بصفتها عقداً اجتماعياً، وثقافة الحوار، ووسائط للتسوية، إلى اصطدامات مريعة. ومن يتابع سياسات الغرب تجاه العالم العربي لسوف يلحظ بأنها غير مستقرة ولا تخضع لمعيرة أو براديغم، وهي إلى ذلك مترددة ومتأرجحة. ليس ذلك إلا تعبيرٌ عن الأزمة البنيوية التي تعتور الغرب... والشأن نفسه يقال عن التغييرات التي طالت العالم العربي والقوى الجديدة التي برزت من داخله، بمرجعيات جديدة، منها طبعاً داعش، لا كتنظيم فقط ولكن كفكرة بالأساس، ومنها الخطابات العرقية، ومنها الانتماءات الجهوية، ومنها دعوات الانفصال بشكل سافر أو مستتر، ومنها شرائح واسعة من الشباب تشكو البطالة والتيه الوجداني والوجودي، ممّا سيؤثّر على مجريات الأمور في المستقبل.

من العسير أن ينتصب الإنسان عرّافاً، ولكن من واجب المثقف أن يسعى سعيه كي يفهم، بعيداً عمّا يحمله الآني، وتبثّه الكتابات

الضحلة أو المغرضة، وأن يغور في ثنايا تجاويف الخارطة الثقافية للغرب، باعتباره محدد القيم (Faiseur de normes) ومن ثمة مؤثراً على مجرى العالم وعلى الديناميات الداخلية للبلدان المرتبطة به. على المثقف أن يمتلك وعياً تاريخياً يُسعفه كي ينظر إلى الزمن المديد.. فليس الحاضر إلا ابن الأمس، وهو يحمل مخايل الغد.

لقد سعى الغرب أن يقرأ الآخر ليفهمه، ومن ثمة كي يتحكم فيه، ثم نقل تلك التصورات وفرضها على نخب الأطراف التي كانت خاضعة له فيما سُمّي بالاستشراق، ما أفرد له إدوار سعيد عملاً مرجعياً. ولقد تناسل عن الاستشراق استشراق جديد، ذلك الذي يجريه أهل البلد على ذواتهم من خلال نظرة الآخر، Prisme أو وحدة قياس، أي معايره وقيمه.

وماذا لو فعل الآتي من عالم الأطراف الأمر ذاته؟ وماذا لو أجرى قراءة نقدية للغرب؟

سبق لفيلسوفَين هما إيان بوروما وأفيشاي مارغاليت في عمل مرجعي[2] لاقى إقبالاً كبيراً، أن استعملا مصطلح الاستغراب (Occidentalism) كردٍّ فعل على الاستشراق. واعتبرا أن «الاستغراب» هو رجع صدى للغرب وردُّ فعل له ناتج عما أسمياه بعُسر الهضم. فهو لا يعدو أن يكون صورة منكسرة للغرب، بله مُشوّهة كالأثواب التي رسمها بول غوغان تعبيراً لهوية ساكنة جزر الكاريبي، ولو هي صُنعت أصلاً في الغرب ولا يعدو الأمر إلا أنها سُوِّقت هناك... وبتعبير آخر ليس الاستغراب، سواء أحمل شكل

(2) Ian Buruma and Avishai Margalit: *Occidentalism, The West in the Eyes of its Enemis*, 1904.

حركة سْلافية، أو شنتوية جديدة، أو حركة إسلامية، إلا بضاعة غربية رُدّت إلى ذويها في شكل كاريكاتوري. إلّا أن هذا ليس مبنى هذا الكتاب ولا الهاجس الذي يحرّكه. لا يحمل صورة مقلوبة، أو يعكس تصوراً ردّ فعلي (Réactif).

يصدر هذا العمل من رؤية مغايرة ومقاربة مختلفة. إنه قراءة يجريها على الغرب لا كردٍّ فعل للاستشراق ولا كرجع صدى للاستشراق الجديد، ولا هو ما أسماه إيان بوروما وأفيشاي مارغاليت بالاستغراب... ليس مبنى هذا العمل الانبهار بمقاربات الغرب التي يجريها على الغير، لأن موضوع الكتاب ليس الأنا، ولكن الآخر. لا يصدر الكتاب من ردِّ فعل، ولكن من قراءة نقدية للغرب. يحمل أداة الغرب من قراءة نقدية، ويوظف مرجعيته، ويقف على اختلالاته وتناقضاته... يعترف صاحبه بدَينه للغرب. لا يصدر من رؤية معادية، ولكنه بالوقت ذاته ليس مستلباً أو بلُغة الفقهاء مُستغرَق الذمة، أو كما قال أبو نواس في هذا البيت الذي ذهب مذهب الأمثال:

وما أنا بالمشغوف ضربة لازِبِ
ولا كل سلطان عليّ أميرُ

إن الحضارات، وفق قاعدة الدورة التي رصدها ابن خلدون، تبلغ أوجها، وتبدأ بعدها بالاضمحلال، وهي إذ تبدأ هذه المسلسل تحملُ في أحشائها خميرة ما تلبث أن تنتقل إلى أطراف أخرى لمن يستطيع أن ينتزعها، فتصبح إذّاك خميرة لعجين جديد.

وفي الأطلال القديمة، توجد الجواهر الثمينة، مثلما يقول جلال الدين الرومي. وهي لا تُكتسب إلا من خلال معرفة، وهذه لا

تتأتى إلا من خلال قراءة نقدية. نحن على مشارف تحول عميق تتغير فيه المرجعيات والبراديغمات، وفهمنا لهذا التحول يعينُنا على الحدِّ من الهزات العنيفة، وسلك الخيارات الأقل خطراً، ولِمَ لا الصائبة منها.

بريش (طنجة) 23 أغسطس 2017

الفصل الأول

باسم الاقتصاد

حينما تمَّ انتخاب الرئيس الأميركي بيل كلينتون لأول ولاية ضدّ غريمه جورج بوش في نوفمبر 1992، والذي كان بشّر بنظام عالمي جديد عقب انتصار قوات التحالف على العراق، عنونت الأسبوعية البريطانية الرصينة عدداً لها بـ«إنه الاقتصاد يا مُغفّل». لم تعد السياسة هي الحاسم في صوغ تصورات العالم، بل الاقتصاد، أو أضحت تابعة له، يملي عليها ما يتوجب، ليس على المستوى الداخلي للدول فحسب، ولكن كذلك على مستوى العلاقات الدولية التي أصبحت تحت تأثير تصور جديد، وفلسفة جديدة.

لم يكن تاريخ 9 نوفمبر 1989، حينما سقط جدار برلين، نهاية أيديولوجيا (الشيوعية) طبعت الفكر والسياسة والاقتصاد والعلاقات الدولية وأتت بتصور جديد للإنسان، وشكلت أكبر تحدي للنظام الرأسمالي واقترنت في وجدان الطبقات المحرومة والشعوب المهضومة بالعدالة الاجتماعية وبمفهوم جديد للتاريخ وللإنسان. كان ذلك التاريخ أيضاً إيذاناً لأيديولوجيا جديدة خفية ومتغطرسة في الوقت ذاته، لم تفصح قط عن بناء جديد، إذ تمسكت في دعواها بأُسُس النظام الليبرالي، وعمدت في ذات الوقت على نشر منظومتها

في العالم باعتبارها الحل السحري لكل القضايا الاقتصادية والاجتماعية، بل السياسية، وربطت بين تحرير الاقتصاد وبناء الديمقراطية، ووظّفت أساليب الإغراء، وعمدت في ذلك إلى بريق الصورة وفتاوى المؤسسات الدولية المالية والبنكية.. بعدة مسمّيات.

كانت أوروبا الشرقية أولى ساحات تطبيق هذه الأيديولوجيا، من خلال وصفات اقتصادية ومالية، ثم بعدها في أميركا اللاتينية، وأصبحت فيما بعد وصفة للعالم بأسره، ومنها دول أفريقيا والعالم العربي.. وقد أفضت بادئ الأمر إلى اختلالات جمّة، بتسريح العمّال وإغلاق المعامل والاستغناء عن قطاعات صناعية بكاملها لم تَقْوَ على المنافسة، بله إلى بروز ظواهر جديدة طفيلية تسعى إلى الربح السريع، بكل الأشكال، وتهزأ بالقوانين والأخلاق.. كان عرّابو هذه الأيديولوجيا يعتبرون تلك الاهتزازات حدثاً عابراً وجزءاً مما كان يُسمّى وَفق مصطلح مستقى من العلوم النفسية بالعلاج بالصدمة..

ولم يكن بريق هذه الأيديولوجيا ينبني على الوهم وحده.. لقد كان لنتائجها في تحرير المبادلات، وفي توفير السلع، وبالأخص في بلدان تأذّت من النُّدرة، ومن سلاسل انتظار التموين، فضلاً عمّا تميزت به من تخفيض الأسعار، مبررُّها وجزء كبير مما يفسر بريقها، ما غطى على جوانبها السلبية، وحجب الدعاوى المنتقدة.. لم يُتح زحفها الكاسح للنداءات المنددة والخطابات المنتقدة، أو على الأقل تلك المختلفة عن الاتجاه العام أن تُسمع، فضلاً عن أن تفرض ذاتها.

ومن الضروري ها هنا أن نميّز بين الرأسمالية الصناعية والرأسمالية المالية. فالأولى عرفت أوج أزمتها مع انهيار أسعار البورصة لسنة 1929. والسمة المميزة للرأسمالية الصناعية هي ثنائية التوسع والركود. كان يُعتقد أن نظام العرض والطلب من شأنه أن يضبط هذه الثنائية ويحدَّ من جموحها. أبانت أزمة 1929 على ضرورة تدخُّل الدولة لضبط إيقاع الإنتاج والاستهلاك. أمّا الرأسمالية المالية فهي تقوم بالأساس على المضاربات المالية، على اعتبار أن الرأسمالية الصناعية كانت تنتج السلع، وأن الرأسمالية المالية تنتج الأفكار ومعالجة المعلومات.. بيد أن هذه الأفكار هي في الغالب إلا بيع الوهم واستغلال معرفة دواليب المؤسسات المالية ورصد تحركات رؤوس الأموال.

في خضمّ فورة الليبرالية الجديدة صدرت كتابات رصينة منذ سقوط جدار برلين، تُميّز بين عدة أشكال من الرأسمالية، ومنها كتاب الاقتصادي الفرنسي ميشيل ألبير بعنوان **رأسمالية ضدّ رأسمالية**[1]، أو كتاب ليستر ثورو **رأساً لرأس**[2] والذي يميز فيه بين النموذج الذي برز على جنبات نهر الرين، أو النموذج الأوروبي، ونموذج الكازينو أو الأميركي الذي يراهن على المقامرة.. وكان أبرز منتقد لهذه التوجهات خبير ذو سلطة أكاديمية ومعنوية باعتباره حائزاً لجائزة نوبل هو جوزيف ستيغليتز، وسبق أن اشتغل ضمن فريق الرئيس الأميركي كلينتون بصفته رئيساً للمجلس القومي الاقتصادي الأميركي، ثم بصفته خبيراً لدى صندوق النقد الدولي. كانت مواقفه

---

(1) Michel Albert: *Capitalisme contre capitalisme*, Seuil, 1991.

(2) Lester Thurow: *Head to Head*, William Morrow & Co, 1992.

عبارة عن تغريد خارج السرب، وقد ضمّن مواقفه في كتابَين موجّهَين إلى العموم يخلوان من حذلقة الخبراء والمختصين ولغتهم المقعَّرة، هما **نهاية الوهم**[3] **وحينما تفقد الرأسمالية رشدها**[4]...

لقد رصد الاقتصادي الأميركي جوزيف ستيغليتز خصائص الرأسمالية في شكلها الجديد في كتاب يحمل عنواناً مثيراً: **حينما تفقد الرأسمالية رشدها**، أي حين تصبح بلا بوصلة وبلا اتجاه.. لقد اعتقد الكثيرون أمام حجم النمو غير المسبوق بأننا أمام عهد جديد يأتي على أنقاض الأيديولوجية الشيوعية، ويُبرز سمو الرأسمالية في صيغتها الأميركية القائمة على الفردانية المطلقة وعلى انسحاب الدولة.. لقد انتصر هذا النموذج الأميركي على النموذج الرأسمالي الآسيوي القائم على تأمين الشغل، أو على الدولة الاجتماعية المعمول بها في السويد.. كانت للنجاحات الأولى من حيث الأرقام القياسية التي حققتها البورصة، وفق دليل NASDAQ على اعتبار أن البورصة هي ميزان حرارة الاقتصاد، مُسوّغ هذه الطفرة. أضحى العالم يأتمُّ بما يُسمّى بتوافق واشنطن، وهو متن وضعه نظام بريتون وودز وأصبح إنجيل الاقتصاديات العالمية.

توافق واشنطن

لقد أضحت الليبرالية الجديدة إنجيل الدبلوماسية الأميركية وصندوق النقد الدولي المرتبط بها. اتخذت شكل مهدوية أو خطاب

---

(3) Joseph Stiglitz: *La grande désillusion*, Fayard, 2002.

(4) Joseph Stiglitz: *Quand le capitalisme perd la tête*, Fayard, 2003.

تبشير يبثّه الحواريون في الآفاق باسم «توافق واشنطن». وكانت العقيدة الجديدة تقوم على مبادئ ثلاثة: التقشف في النفقات العمومية، وخصخصة القطاع العام، وتحرير المبادلات التجارية. كان لهذه المبادئ ما يبررها، لأن الإنفاق من دون اعتبارات عقلانية ودعاوى المردودية أسهم في عجز دائم لكثير من اقتصاديات دول أميركا اللاتينية وأفريقيا، وكان لزاماً، والحالة هذه، نوع من الصرامة. كما أن خصخصة كثير من القطاعات حرّر الدولة من أعباء إنقاذ مؤسسات عاجزة، وصرفها إلى ما هي فيه أنجع، وساهم تحرير المبادلات التجارية بتخفيض الرسوم الجمركية في خلق دينامية اقتصادية أسهمت بدورها في إحداث مناصب شغل.

لا مُشاحّة في أن هذه المبادئ أتت أكلها، وبالأخص في سياق خاص اتّسم بالاحتقان بسبب تدخُّل الدولة الكثيف في الاقتصاد، لكنها عوض أن تكون وسيلة، ومرتبطة بسياق خاص وظرفية معيّنة، أصبحت هذه الأُسُس هدفاً في حدِّ ذاتها، وأفضت في عدة حالات إلى نتائج عكسية.

لقد تعامل صندوق النقد الدولي والبنك العالمي مع الخصخصة من منظور أيديولوجي، إذ كان على الدول المرتبطة باتفاقات مع هاتين المؤسستَين أن تلجأ إلى الخصخصة وبسرعة، دون أن تأخذ بعين الاعتبار ضرورة التدرُّج، لاعتبارات النجاعة، وغير آبهة للانعكاسات الاجتماعية، ذلك أن أثرها السلبي على المستهلك والمستخدَم كان جليّاً. . فغالباً ما صاحبت عمليات الخصخصة سلسلةٌ من التسريحات، وكان لهذه التسريحات أثرها السيّئ في الدول التي ليس عندها نظام تأمين عن البطالة، وأفرزت هذه

التسريحات، حتى بالنسبة إلى الذين أُبقي عليهم، شعور القلق الناتج عن عدم ضمان الشغل، مع ما ينتج عن هذه التسريحات من مضاعفات اجتماعية خطرة. وما كان للشركات الأجنبية التي حلّت محل القطاع العام، في كثير من الدول، أن تراعي العبء الاجتماعي للخصخصة. كان همّها الربح، وبسرعة. لم تندرج الخصخصة في سياق ماكرو اقتصادي يعمد إلى إحداث مناصب شغل مكان تلك التي تزيحها الخصخصة. وبتعبير أدق، لم تخضع الخصخصة في كثير من البلدان إلى عملية أجرأة، كما لو أن غاية هذه الدول هو التخلُّص من مؤسسات عاجزة في أقرب وقت، وبأي ثمن. كان هذا هو العيب الآخر الذي اقترن بالخصخصة. لقد كان من الأدبيات التي رفعها صندوق النقد الدولي لانتقاد عجز المؤسسات العمومية هو اعتمادها على اقتصاد الريع الذي تستفيد منه فئة من البيروقراطيين والنافذين، وقد أضحت محاربة اقتصاديات الريع شعاراً قوياً رفعه الخطاب الرسمي لكثير من الدول المرتبطة بالليبرالية الجديدة كردٍّ صدى لأدبيات صندوق النقد الدولي. بيد أنه من الناحية العملية، أفضت سلسلة خصخصة مؤسسات الدولة إلى تمريرها بأدنى بكثير من قيمتها الحقيقية. ولم تسلم هذه العمليات في كثير من الحالات، وفي كثير من الدول، من عمولات ورشاوى لفائدة النافذين وأصحاب القرار الاقتصادي ممن استفادوا من العمليات أو مرَّروها. لقد أفرزت هذه الظاهرة مصطلحاً جديداً في أدبيات الاقتصاد العالمي وفي خطاب الخبراء الدوليين: Cronies، وبتعبير قدحي البقششة (من البقشيش). وهكذا استجارت المؤسسات الدولية من رمضاء اقتصاد الريع بنار ممارسات البقشيش.. وتعتبر الطريقة التي

تمّت بها الأمور في روسيا حالة مدرسية، تحمل الأدواء المشار إليها. والأدهى أنها أفضت إلى تراجع في الإنتاج وإلى عدم ثقة في نظام السوق والمؤسسات الديمقراطية، وكانت هذه الاختلالات في روسيا سبباً في عدة محاولات انقلابية[5].

وإذا كان تحرير المبادلات التجارية قد أسهم في خلق دينامية اقتصادية، فإن كثيراً من الخبراء يفضّلون ألا ينساقوا إلى أحكام جزافية ويميلون إلى الروية والتمييز في أحكامهم. كانت هذه الأحكام تبدو في سياق نهاية التسعينيات من القرن الماضي وبداية عُشرية القرن الحالي آراء ضمن آراء، إلا أنها أمام زخم الأزمة الاقتصادية العالمية التي تجثم منذ سنة 2008 أضحت ذات شرعية. لقد أفضى تحرير المبادلات التجارية إلى تهديد قطاعات بأكملها في كثير من البلدان (النسيج مثلاً)، دون أن تُعوَّض بقطاعات بديلة كما كانت تزعم أدبيات صندوق النقد الدولي والبنك العالمي. ومن جهة أخرى تعاملت الدول الكبرى، وعلى الخصوص الولايات المتحدة، وفق الكيل بمكيالين، فلم تكن تطبِّق نفس المعايير بالنسبة إلى التصدير أو الاستيراد. كانت الولايات المتحدة حريصة على أن تبيع المنتوجات التي لها فيها امتياز، ومن أجل ذلك كانت تشترط رفع كل الحواجز، لكنها في الوقت ذاته لم تكن تستنكف من وضع

---

(5) صدرت رواية لكاتب أميركي غاري شتينغارت من أصل روسي بعنوان **عبشستان** (*Absurdistan*) رصدَ فيها اختلالات العولمة وأثرها السلبي على روسيا والجمهوريات التي كانت مرتبطة بالاتحاد السوفيتي، اقتصادياً واجتماعياً وأخلاقياً.

حواجز أمام المنتوجات التي يمكن أن تهدِّد منتوجها، كما في الميدان الفلاحي أو قطاع النسيج.

إلا أن الأثر السيّئ لتحرير المبادلات كان ذلك الذي مسَّ الجانب المالي.. فانتقال رؤوس الأموال من بنوك كبرى إلى دول بعينها، ناهضة أو غيرها، لم يكن بهدف بناء مصانع أو إحداث مناصب شغل. كانت رؤوس الأموال هذه تخضع لاعتبارات المضاربة بالأساس. تدخل حيثما ترى بريقاً أو إغراءً، وتغادر لأول أزمة أو خطر أزمة يعِنُّ في الأفق، وتخلّف وراءها دماراً وإعصاراً.

وإذا كان أثر المبادلات التجارية سلبياً على كثير من الاقتصاديات، فإن أثر المبادلات المالية على الدول الفتية أو حتى التي هي في طور النهوض الرأسمالي كان أسوأ وأفضى إلى اختلالات كبيرة، إذ فكّك كل القوانين والضوابط التي من شأنها أن تحدَّ من أثر المضاربات المالية، وجعل هذه الاقتصاديات حلّاً مستباحاً. والسمة الغالبة لهذه الرساميل أنها لا تذهب إلى الاستثمار وتفضِّل المضاربة. وقد تَبدَّى هذه الأثر السلبي منذ 1997 حينما تعرّضت اقتصاديات شرق آسيا إلى أولى أعراض العولمة المالية وأثرها السلبي على الاقتصاد.

إملاءات أو «ديكتات» صندوق النقد الدولي

كان صندوق النقد الدولي يأخذ بمبادئ التحرير والخصخصة وتقليص النفقات، ويرى فيها حقائق مطلقة لا يأتيها الباطل ولا يعتريها الشكّ، وكان على الدول أن تأخذ بها إن هي أرادت أن تستفيد من القروض، أو على الأقل ألا يُشار إليها بالبنان لكي تكون

من الدول التي يحق التعامل معها.. ولعلَّ أبلغ صور لعجرفة المؤسسات الدولية هي تلك الصورة التي تناقلتها وسائل الإعلام الدولي للمدير العام السابق لصندوق النقد الدولي ميشيل كامديسوس وهو ينظر شَزَراً إلى رئيس إندونيسيا السابق سوهارتو في شكل يُذكِّر باستعلاء المستعمِر وإملاءات المنتصِر في الميدان العسكري. يحدث أن يتبرم كثير من الخبراء الوطنيين من إملاءات صندوق النقد الدولي، على اعتبار أنها فجّة ولا تأخذ بعين الاعتبار سياق دولهم، ولكنهم لم يكونوا يجدون بُدّاً من الرضوخ لها، لأنها صكّ الاعتراف من لدن العالم المالي والاقتصادي... كانت عبارةً عمّا يُسمّى في الأدبيات الكنسية بالمتن الذي لا يقبل المناقشة (Vulgate). وأمام كل تعثر أو مشاكل تبدر لبرامج صندوق الدولي والبنك العالمي، كان الخبراء الدوليون ينحون باللائمة على «الآخر»، ولم يكن الآخر هذا سوى البيروقراطية الثقيلة لتلك الدول، وفساد نخبها، وضعف نسيجها الإداري، وانتفاء الحكامة الجيدة، مما تطفح به أدبياتهم من تقريع اقتصاديات الدول النامية وعدم كفاءة نخبها... أو يجدون التبرير فيما سموه كناية بعلاج الصدمة، تعبيراً عن الصعوبات التي يتعرّض لها تطبيق التحرير والاختلالات التي يفرزها مرحلياً. وكانوا يدفعون كذلك بما يسمونه بنظرية الانسياب (Trickling down)، أي أن فضائل نظام السوق ومزاياه تنعكس في نهاية المطاف على كل الشرائح عن طريق تداعيات اقتصاد دينامي، إلا أن الحقيقة شيء آخر.

لقد تبدّت كثير من الاستثمارات الأجنبية عن آثار سلبية شبيهة بتلك التي عرفتها الدول المستعمَرة إبّان الفترة الاستعمارية، سواء

تعلّق الأمر بالاستغلال المنجمي أو حتى في القطاع الثالث، فقد أحدث هذا الاستثمار جيوب غنى دون أن ينسحب على كافة المجتمع، وهو ما يُسمّى بالاقتصاد المزدوج (Une économie duale)، والاقتصاد المزدوج ليس مرادفاً للتنمية، فهو يفضي إلى اختلالات مجتمعية بين الفئة المستفيدة الضيقة والشرائح الواسعة من غير المستفيدين، ومن جانب آخر يفضي إلى نوع من «التنشيط» (Dopage) يُعرف في الأدبيات الاقتصادية بـ«الداء الهولندي»، ذلك أن حجم الأموال التي تدرُّها المواد الأولية يفضي إلى عرقلة للنمو، فدخول العملة الصعبة يقوّي العملة المحلية، ويجعل إغراء الاستيراد قوياً والتصدير صعباً لأن قيمة العملة مرتفعة، فلا تقوى إذّاك السلع على المنافسة الدولية. وقد مرّت هولندا من تجربة مماثلة فأصبح هذا المصطلح يطلق على الاقتصاديات التي تتعرض لنفس الظاهرة.

ولم تراعِ أدبيات صندوق النقد الدولي مستلزمات الجدولة الزمنية ولا وتيرة الإصلاحات التي كانت تفرضها المؤسسة المالية الدولية، ولا السياق الاجتماعي. لقد كان شغل الصندوق الشاغل، كما يقول ستيغليتز، هو فرض الليبرالية قبل وضع شبّاك تأمين أو وضع إطار قانوني وتنظيمي ملائم من أجل مواجهة كافة المخاطر التي قد تنجم عن الاختلالات التي تفرزها الإصلاحات المفاجئة.

أما دواعي الإنصاف فقد كانت غائبة في اهتمامات صندوق النقد الدولي. كان خطاب الصندوق يُعوِّل على النمو، وعلى أثر ما كان يسميه بالتداعيات، أي أن النمو ينساب كما في شلالات ليشمل كافة الشرائح، لكن واقع الحال أبان أن نظرية الانسياب لا تزيد أن تكون تعبيراً عن شهادة إيمان (Une profession de foi) لا أثر لها

في الواقع. فالمستفيدون هم الأغنياء والنافذون. لقد ردَّ ستيغليتز على الصورة التي كانت سائدة والتي تزعم أن الموج الكبير يحمل كل السفن كبيرها وصغيرها، بالقول إن الموج الكبير وبالأخص حينما يكون مفاجئاً، يلقي بالسفن الصغيرة عُرض الصخور ويحيلها حطاماً. ولا تزال نظرية الانسياب مؤثرة، وإن هي اهتزت مع حجم الأزمة الحالية وجحافل الفقراء الذين أُلقي بهم في الشارع في الاقتصاديات الناهضة وحتى الغنية. وقد أدرجَ مُنظِّرو الصندوق الدولي تصحيحات على نظرية الانسياب بالتركيز على النمو أساساً، ومزاوجته بسياسة اجتماعية لما يُسمّى بالتنمية البشرية تهمُّ تمدرُس النساء والصحة... بيد أن نتائج هذه «التصحيحات» التي أدرجها خبراء الصندوق ظلت محدودة في كثير من البلدان التي طُبِّقت فيها.

الفاكهة ينخرها الدود

تَبدّت النجاحات الأولى للعولمة عن محدوديتها حينما عصفت أزمات مالية في نهاية تسعينيات القرن الماضي بدول شرق آسيا بكوريا الجنوبية وإندونيسيا وتايلاند، وتميزت بالنسبة إلى إندونيسيا بموجة احتجاجات شعبية عارمة ذات انعكاسات سياسية حينما أطاحت بنظام الديكتاتور سوهارتو. وانتقلت الأزمة إلى روسيا ثم إلى البرازيل. ولم تكن الأزمة في روسيا شأناً اقتصادياً فحسب، على اعتبار أن روسيا كانت معقل النموذج الشيوعي، وكل فشل في تطبيق النظام الرأسمالي يُعيد للشيوعية وَهَجَها، هذا فضلاً عن أن روسيا قوة نووية، وإذا عاد الحزب الشيوعي فإن شبح الحرب الباردة لسوف يعود ومعه خطر الحرب النووية.. لم توفِّر موجة الاحتجاجات حتى البلدان الصناعية

في سياتل وبراغ والبندقية، ثم فيما بعد حينما استفحلت الأزمة في لندن وفي اليونان وبعده في إسبانيا . . . لم تكن هذه الاحتجاجات عابرة رغم أن الإعلام حاول التقليل منها، بل كانت تنطوي على منحى بنيوي، وهي التي أجملها ستيغليتز في العبارة التالية: الفاكهة ينخرها الدود. . وما يعطي لتشخيص ستيغليتز أهميته أنه ظهر قبل أن تُلقي الأزمة بثقلها، وأنه رصد إرهاصاتها في الوقت الذي كانت العولمة عبارة عن عقيدة، أو حقيقة من حقائق السوق، كما يقول الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون، أي حقيقة مُسلَّم بها، لا يعتورها الشك ولا تتعرض للمساءلة. أهم ما يميز الرأسمالية الجديدة هو المدّ ذاته القائم على فقاقيع مضللة، إذ لا علاقة للأصول ولا للأسهم مع القيمة الحقيقية، وهي سمة تطبع النظام الرأسمالي. بيد أن ما يميزها في صيغتها الحالية هو بُعدها الكوني وآثارها الشاملة والمتداخلة، هذا فضلاً عن غياب أي جهاز للحدِّ من جموح الفقاقيع، أو ما كان مفترضاً أن تقوم به الخزينة الفيدرالية. واستشرى، في غياب أي ضابط وأي مؤسسة من شأنها الحدّ من غلواء الفقاقيع، أو ما يسميه الاقتصادي روبرت شيلر (Robert Shiller) بفورة لا عقلانية (Irrationnal exuberance)، إذ يراهن المستثمر والمستهلك عموماً على ازدياد الأرباح في مدٍّ تصاعدي، كما لو أن هذا المدّ ميكانيكي بطبيعته ولا ينبني على القيمة الحقيقية للسلعة. هذه القيمة التي سوف يحدد السوق قيمتها الحقيقة، آجلاً أو عاجلاً . . أما عالم الاجتماع الفرنسي جون-كلود كيلبو (Jean-Claude Guillebaud) فيربط طفرة الرأسمالية وفكّ ارتباطها بقيمة الأشياء إلى اعتبارات نفسية، فالحافز النفسي في نظام السوق هو الأنانية وما يرتبط بها من جشع، ثم

الوهم. . الوهم سمة مميزة لنظام السوق، وما يزكّي هذا المنحى أن الصورة ملازمة للوهم، ليس على اعتبارها انعكاساً للحقيقة، بل تجميلاً لها وتمويهاً، وهذا ما يفسِّر ارتباط نظام السوق بالإشهار، وفي مرحلة لاحقة بشركات الاتصال. .

ويضيف ستيغليتز عاملاً آخر ساهم في استفحال الأزمة، هو غياب دور الدولة من خلال غياب الضبط والتشريع، على اعتبار أن الأيديولوجيا الغالبة كانت تتوجس من الدولة بالدعوة إلى تخفيض نفقاتها وتقليص تدخلها وحجم إدارتها وتخفيف تشريعاتها. وفي نفس المنظور، عزفت الدولة والرأسمال عن تحمّل العبء الاجتماعي وعن الاستثمار في قطاعات غير مربحة، مثل الصحة والتعليم.

لقد كان أثر تطبيق هذه الوصفات كارثياً على دول العالم الثالث. يقول ستيغليتز:

«لقد تصرفنا كما لو أننا وضعنا اليد على الوصفة الوحيدة والمضمونة من أجل بلوغ الرخاء، وتصرفنا بعنجهية مع هذه الدول، يدعمنا في هذا التصرف قِوى صناعية متقدمة، لكي تنحو هذه الدول المنحى الذي نرسمه لها. لقد تحول العم سام، من خلال الدبلوماسية الاقتصادية، أو من خلال صندوق النقد الدولي الذي تسيطر عليه الولايات المتحدة، إلى الدكتور سام الذي يوزِّع الوصفات على الدول: خفِّضوا هذه الميزانية، قلِّصوا الرسوم الجمركية، خصخصوا تلك الوحدة الكهربائية. وعلى غرار بعض الأطباء المنهمكين في شغلهم والواثقين من أنفسهم، لم

نكن لنأخذ الوقت الكافي لنسمع شكاوى المرضى، ولا كنا قادرين على القيام بالتشخيص لكل حالة على حِدة بدراسات الأوضاع الاقتصادية الخاصة بها. لقد تصرفنا مع اقتصاديي العالم الثالث وخبرائه، وجُلّهم لامعون وذوو تكوين نظري متين، كأطفال. لقد كان تعاملنا على سرير اقتصاديات هذه الدول مريعاً، ولاحظَ المرضى أن ما كنا نوصي به ليس ما كنا نأخذ به ونتجرعه نحن من دواء»[6].

وهنا مربط الفرس، لقد كانت الليبرالية الجديدة انتقائية. أو بصريح العبارة كانت مستغِلّة، فالاتفاقات التي كانت تُبرم في إطار العولمة كانت غير متساوية وأبانت عن أساليب جديدة لاستغلال الضعفاء من قِبل الأقوياء. لقد فرض الأميركيون فتح القطاعات التي هم فيها الأقوى، مثل البنوك، وبالوقت ذاته وضعوا حواجز لحماية قطاعهم الفلاحي، أو في الميادين التي لم يكن لهم فيها سبْقٌ كالتعمير أو الصناعات البحرية، والتي استُثنيت من اتفاقات أوراكوي. بيد أن ما ميز هذه الاتفاقات هو ما اصطلح عليه بحماية الملكية الأدبية. وإذا كان المبدأ من الناحية المبدئية لا يثير اعتراضاً، إلا أن تطبيقاته تتعارض أولاً مع مبدأ ملازِم لنظام السوق وهو التنافسية، لأن التمسك بحرفية حقوق المِلكية يفضي إلى وضعية احتكارية، ما ينسف مبدأ التنافس من أساسه... ثم إن من المفترض أن تكون الاختراعات حقّاً مشاعاً، ولم تكن الولايات المتحدة تبلغ ما بلغت من إنجاز تكنولوجي ومعرفي لو لم تستفد من اختراعات

(6) Stiglitz: *Quand le capitalisme perd la tête*, op. cit., p. 58.

قامت في أوروبا سابقاً، هذا فضلاً عن أن الأخذ بهذا المبدأ كان له انعكاسات سلبية على الدول الفقيرة بالنسبة إلى قطاعَين حيويَّين كان من المفترض أن يحظيا بالاستثناء في اتفاقات أوراكوي، وهما قطاعا الفلاحة وصناعات الأدوية. لقد كان للتطبيق الحَرفي لهذا المبدأ انعكاسات سلبية على الدول الفقيرة، ذلك أن بيع براءات الاختراع في الميدان الفلاحي بأسعار تفضيلية أو تعميمها من شأنه أن يخفِّف من مجاعة الدول الفقيرة. والأدهى أن كثيراً من الفسائل ذات البراءة المسجّلة في الولايات المتحدة وتصبح مِلكاً لها يتمُّ استقدامها من الدول النامية، ثم يُفرض بعدها على دول الأصل من أن تؤدي رسوم الاستعمال. ولقد أثارت شركة أميركية استقدمت بذوراً من أرز بسمتي الذي يُزرع في إقليم بنجاب بباكستان وفي الهند وسجّلتها باسمها وفرضت أداء حقوق الملكية لها، جدلاً كبيراً ومعركة حقوقية انتهت بإنصاف حقوق المزارعين الهنود والباكستانيين، ولكن كم من حقوق أُهدرت لصغار الفلاحين في الدول النامية الذين دُفعوا إلى أن يُؤدوا تعويضات عن براءات اكتشاف لبذورهم ومنتوجهم. وبحسب بيانات وأرقام المنظمة العالمية للمِلكية الأدبية، فإن القطاع الخاص العالمي وشركات الدول الصناعية تستحوذ على 95% من براءات اختراع أفريقيا، في الميادين كلها، وتبلغ نسبة 70% بالنسبة إلى آسيا. إنها ظاهرة لم يتردد البعض من نعتها بالاستعمار الجديد، مع فارق أن الاستعمار القديم كان من صنع الدول، وأن الاستعمار الجديد من صنع القطاع الخاص.

والأدهى والأمرّ هو هيمنة القطاع الخاص على براءات الصناعات الصيدلية، لأنه ببساطة يحرم الدول الفقيرة من الحصول

على الأدوية ذات الضرورة الأولى، أو الخاصة بالأمراض الفتّاكة كما هو الشأن بالنسبة إلى الإيدز. وليس بِدْعاً أن يرفع الضمير العالمي الحي، في حلبات الاحتجاج ضدّ العولمة في سياتل وبورتو أليغري نداء إعفاء الدول الفقيرة من رسوم براءات الاختراع في ميدان الفلاحة والأدوية، الأمر الذي دفع واحداً من دعاة المواطَنة العالمية، إلى رفع عقيرته بإعفاء الدول الفقيرة، فيما يخصُّ الفلاحة والطب، من أداء رسوم (Royalties) للشركات المتعددة الجنسية... وتبقي فعاليات منظمة العالم الآخر (Altermondialistes) لسان حال هذا الوعي الجديد، في غياب أي دور فعّال للمنظمات الدولية المعنية التي يظل خطابها في حدود الحدّ الأدنى الذي لا يقدِّم ولا يؤخِّر. والمثير للضحك ظهور فعاليات محلية كالفُطْر في كثير من البلدان النامية لحماية الملكية الأدبية، وقيام السلطات الأمنية بعمليات مداهمة لأماكن نسخ الأقراص وتدميرها.. وإذا كان حماية حقّ المبدع لا يثير احتجاجاً ولا اعتراضاً، فإن هذه التحركات تَذهل عن الرهان الحقيقي، وتصرف جهودها في معارك جانبية تُعميها عن القضايا المصيرية..

لقد اتسم خطاب الولايات المتحدة بالازدواجية، فهي كانت تتذرع بحرية المبادلات، كلما كان ذلك يحقق مصلحتها، أما إذا اعترض مصالحها عارضٌ ما فقد كانت تدفع بما تسميه «التجارة المنظَّمة»، أو «الاقتصاد العادل». لقد كان حكم ستيغليتز صارماً بلا مواربة: «لم يكن لأميركا من رؤية اقتصادية، كانت رهينة المصالح الخاصة. في الحقيقة لم تكن تؤمن بنظام حقيقي للمبادلات الحرة».

ومع ذلك لم تسلم هذه الأيديولوجيا من اهتزازات حين تطبيقها

على ما اصطُلح بتسميته بالاقتصادات الناهضة، كان أبرزَها اهتزازاتُ اقتصاد روسيا، وأزمة المكسيك التي عصفت بالعملة الوطنية، ثم الأزمة المالية التى ضربت اقتصادياً شرق آسيا..

أولى الضحايا

كانت المكسيك أحد النماذج الأولى للعولمة، وأحد نماذج ضحاياها كذلك. لقد كانت المكسيك إحدى الدول التي انغمرت في إصلاحات جريئة لنظام السوق، فقد حرّر البلد اقتصاده برفع الحواجز على التجارة، وتذليل العقبات الإدارية، وخصخص قطاعاته بما فيه البنكي والطرق. إلا أن نموه كان مرتبطاً بالاستدانة الكثيفة، لذلك أبدت الأسواق المالية تخوفها حول إمكانية المكسيك من تسديد ديونها مع بداية سنة 1995. انخفضت سندات الدولة، وكان من نتائج هذا الوضع الذي غذّاه الجانب النفسي أن رفضت البنوك تجديد القروض، وعمّت موجة من الهلع بين الفاعلين الاقتصاديين، ودفعت بكثير من المكسيكيين إلى تحويل أموالهم إلى الخارج، وهكذا سقط معدل العملة البيزو، ودخلت المكسيك في أزمة مالية واقتصادية غير مسبوقة، وما زاد الأمور تعقيداً هو أن المكسيك كانت مرتبطة باتفاق تبادل حر مع الولايات المتحدة NAFTA، وكان يخشى أثر عدوى الأزمة. إلا أن الولايات المتحدة نزلت بثقلها بضخّ أموال ضخمة في خزينة الدولة المكسيكية، ما ساهم في استقرار معدل الصرف، كما أن انخفاض سعر العملة البيزو ساهم في انتعاش الصادرات المكسيكية.. ويعزو المحلِّلون نجاح عملية إنقاذ اقتصاد المكسيك إلى تدخُّل الولايات المتحدة وإلى انتعاش الصادرات. ما

كان يهم الولايات المتحدة، في نهاية المطاف، من خلال عملية الإنقاذ، هو استرجاع الأموال التي أقرضتها للمكسيك، وهو ما تحقق، مع الفوائد.

هذه الحالة المدرسية لنجاح تدخُّل الولايات المتحدة والمؤسسات المالية لم تتحقق حينما بدت بوادر الأزمة في إندونيسيا. لقد فرض صندوق النقد الدولي وصفته المعتادة: تقشف مالي، وتقليص الإنفاق العام من أجل استدرار رؤوس الأموال الأجنبية، أسوة بسابقة المكسيك... كان رأي خبراء صندوق النقد الدولي أن إندونيسيا ستتعافى رغم قوة الجرعة المتمثلة في تخفيض الإنفاق العام وإلغاء دعم المواد الأساسية والمحروقات لفائدة الطبقات المحرومة. والذي حدث موجةُ غضب عارمة واحتجاجات ومظاهرات أخذت شكل أزمة سياسية انتهت بالإطاحة بالديكتاتور سوهارتو.

اعتبر سدنة النظام المالي العالمي هذه الأزمة أمراً عابراً وحادثة سير.. وواجه عرّابو العولمة منتقديها حول تضحيتها بالعدالة الاجتماعية وتجميعها للثروة في أيادي أقلية، بما أسموه بالتداعيات أو الانسياب، كما لو هو جدول ينساب يكرع منه كل من يوجد على الجدول ويتطاير منه الرذاذ الذي يصيب كل طبقات المجتمع... لقد انتقد الاقتصادي ستيغليتز في نبرة لا تخلو من تهكُّم، تواتر حوادث السير هذه، وتساءل هل من الحكمة أن نُنحي باللائمة على السائق أم على الطريق التي تعرف اختلالات وتملؤها الثقوب والحفر حينما تتعدد الحوادث وتتكرر؟ كان يبدو أن المشكلة في الطريق. وكان يظهر أن تحرير الاقتصاد لم يكن ليُقرّب الفجوة بين المحظوظين والهامشيين، على العكس، فقد جنحت هذه الفجوة إلى

الاستفحال.. كان المشكل بنيوياً، وكان رغم تعثراته هنا وهناك يحظى بتواطؤ وصمت مريب، أو بما يُسمّى في أدبيات المافيا بالصمت الشامل (Omerta).

لم تكن لهذه الأومرتا أن تتأذى بما يصدر من تحذيرات كُتّاب وخبراء ومحلِّلين.

بيد أن هذه الاختلالات لم تَفُتَّ من غطرسة أيديولوجية جامحة، ولم يكن يستحسن مواجهتها وهي كالموج الأهوج إلا وقد انكسرت على إيقاع أزمة ما سُمّي بـ Subprimes حين تهاوت أسعار العقار وتهاوت معه فقاقيع البورصة، لتمسَّ بعدها قطاعات حيوية تهمُّ بشكل أساسي مجال استهلاك المواطن كقطاع السيارات...

وألقت الأزمة بثقلها

حينما يتراجع مد البحر يظهر أولئك الذين كانوا يستحمون عراة بلا تُبّان. هكذا تنبّأ واحد من الخبراء الدوليين. وحينما تراجع مدّ العولمة أو أخذ في التراجع تبدّى أن الكثيرين كانوا فعلاً عراة. لقد ظهرت موجة الصدمة في الضواحي، وفي أمسِّ ما يرتبط بوجود الإنسان: التغذية. تبدّت سنة 2008 عن أزمة غذائية عالمية نتيجة ارتفاع أسعار المواد الغذائية في شكل تصاعدي. عرفت شوارع دوالا بالكاميرون وأبيدجان بساحل العاج وداكار بالسنغال ومصر، مظاهرات تندِّد بغلاء المعيشة أفضت إلى مواجهات مع قوى الأمن بل إلى ضحايا. وتناسلت تنسيقيات في ربوع المغرب تندِّد هي بدورها بغلاء المعيشة، وعرفت أسعارُ القمح ارتفاعاً غير مسبوق. وعرفت دول أوروبا الشرقية تدنّي القوة الشرائية، ما أدى إلى موجات

من الاحتجاجات والإضرابات، وبلغت الأزمة أوجها مع ما سمي بـ Subprimes في الولايات المتحدة في العقار، وهي تحيل إلى تلك القروض التي كانت تُعطى من دون ضمانات وبمعدلات فائدة مرتفعة. لقد تخلّى كثير من هؤلاء المدينين عن بيوتهم، وأصبحت هذه معروضة للبيع بأبخس الأثمان، وتجاوزت في الولايات المتحدة رقماً قياسياً بلغ أربعة ملايين بيت معروضاً للبيع. وأثّر تدنّي القدرة الشرائية على قطاع حيوي آخر، هو قطاع السيارات. وعرفت عدة معامل في الولايات المتحدة سلسلة من الإغلاقات، ولم توفّر الأزمة أوروبا حيث تأثّرَ، بحكم التداخل المالي، قطاعا العقار والسيارات.. لقد انتهى ما كان يُسمّى بالعولمة السعيدة، ولم يعد عرّابوها يتورعون عن التستر عن الثمن الذي تقتضيه، ولا عن المضاعفات السلبية على عدة شرائح من المجتمع. وإذا كانوا يعتبرون العولمة غير مسؤولة، فهم يقرّون بأن تطبيقاتها والأخذ بحرّية المبادلات بلا قيد أو شرط يفضي إلى اختلالات وإلى مظالم.

إن كثيراً من الخبراء لا يرون في الأزمة حدثاً عابراً، بل يرونها تنطوي على أزمة بنيوية من شأنها أن تمس قطاعات أخرى، وتقتضي ضمن ما تقتضيه، إعادة النظر في أُسُس منظومة السوق كلها. فلا يسوغ أن يشتغل السوق بلا ضابط، لكن من سيقوم بالضبط على المستوى العالمي؟ لا يمكن أن تقوم معادلة السوق على العرض والطلب وحدهما، إذ لا بدَّ أن تأخذ بعين الاعتبار تأثيرات هذه العلاقة على الطبيعة وعلى المجتمع، حيث لا يمكن لأي تنظيم مجتمعي أن يستمر من دون قيمة التضامن... بل إن البعض يرى في الأزمة مؤشّراً على نهاية هيمنة الغرب أو بداية

أفوله منذ أن بسط هيمنته في القرن السادس عشر ميلادي، متمثلة في الجانب السياسي (الديمقراطية) والاقتصادي (نظام السوق) والعلمي (التكنولوجيا) والفكري (الحداثة). إن العالم مقبل على تحولات غير مسبوقة من حيث اهتزازات ما يسميه البعض بتراتبية المواقع (Le bouleversement des hiérarchies des places)، ذلك أن العولمة أطلقت عقال قوى جامحة لا ترضخ إلا للأنانيات من الصعب كبحها في غياب منظومة دولية منسجمة تقوم على اعتبارات التضامن والتعاون، ومن شأنها كذلك إحداث تغييرات عميقة على ما يُسمّى بتحول الثروة (Switching wealth)، إذ من المحتمل في غضون العُشرية المقبلة أن تتجاوز اقتصاديات الدول الناهضةُ اقتصادياتِ السبعة الكبار، ما يعني اهتزاز الهيمنة المالية والاقتصادية للدول الغربية مع ما يستتبع ذلك من هيمنة حضارية.

لقد أصبحت العولمة آلة رهيبة لفوارق صارخة بين المستفيدين منها، وهم أقلية، والمتضررين، وهم السواد الأعظم، مع ما يترتب عن ذلك من توترات اجتماعية وتهلهل السدى الاجتماعي، واستنزفت العولمة ولا تزال البيئة مع ما لذلك من انعكاسات سلبية على المناخ، وأحالت العالم المالي إلى كازينو تعمّه الفوضى ولا يخضع لقواعد.. وإذا ما ظلَّ الإنسان الغربي ومن يحوم في فلكه، يُقدّم الفعالية والنجاعة على الإنصاف، فإنه يخشى ألا تكون الأزمة الاقتصادية إلا توطئة لما هو أسوأ، مثلما يقول بذلك خبراء ذوو باع ونفوذ[7].

(7) Patrick Artus et Marie-Paule Virard: *Globalisation, Le pire est à venir*, La Découverte, 2008.

إن الأزمة بنيوية، ومردّها مثلما يقول الاقتصادي إيلي كوهن، هو الانفصال ما بين الصناعة المالية (كذا) وعالم الاقتصاد، من خلال لعبة المضاربات، إذ أضحى سبيل الاغتناء هو التحكم في الآلة المالية، وليس الإنتاجية[8]، وهي ذات النظرة التي يعرض لها بول كروغمان (Paul Krugman) وهو حائز على جائزة نوبل في الاقتصاد، مما أورده نعوم تشومسكي، من خلال تغليب الربح على الإنسان، بل ضد الإنسان، وأضحى الاقتصاد بالتالي عبارة عن أضاليل ضرورية (Des illusions nécessaires)[9].

مكتبة
t.me/soramnqraa

(8) Elie Cohen, *Crise ou changement de modèle*, La documentation française, 2013, p. 35.

(9) In Noam Chomsky, *Le profit avant l'homme*.

الفصل الثاني

نهايةُ نهايةِ التاريخ

سعى المتن الأيديولوجي لما بعد جدار برلين أن يربط الصلة بالجذور الليبرالية، وبخاصة فلسفة الأنوار. ليست الليبرالية نظرية اقتصادية بالأساس، إذ هي تجلّي لمبدأ الحرية على الإطلاق. ترتبط الليبرالية بحرية الاختيار (Le libre arbitre) أو القَدَرية في مواجهة الأقدار (أي يكون الشخص قادراً على أفعاله في مواجهة أصحاب القضاء، كما في التراث الإسلامي)، وترتبط بمفهوم الإنسان بما هو إنسان، له نزوات، وهوى ومواطن ضعف، ولكنه يأتمُّ بالعقل، ويجري تصرفاته بناء على المصلحة، ويستحضر الأخطار الممكنة. لا تنظر الليبرالية إلى الإنسان كما ينبغي أن يكون، كما كانت المسيحية تريده أن يكون، أو قبلها الفلسفة الرواقية، أو الاتجاهات الشمولية الحديثة. كلها تقوم على مهدوية وعلى تصور للإنسان، وفق ما ينبغي أن يكونه. ولم تعصم هذه المهدوية، ولا النظرة الأخلاقية إلى الإنسان، من اجتراح مظالم وجرائم كبرى.

من الضروري أن نُذكّر بذلك حتى لا يذهبن الفهم أن الليبرالية هي نظرية اقتصادية. لم تزد أولى المدارس المنبثقة من هذا الفهم الفلسفي، في مواجهة الفهم الديني الذي رسّخته الكنيسة، وهي

مدرسة الفيزوقراطيين، سوى أن طبّقت أُسُس القاعدة الفلسفية الليبرالية في الميدان الاقتصادي، وأرست القاعدة الشهيرة «دعه يفعل، دعه يمر» كتطبيق لليبرالية في مفهومها الفلسفي الأصلي، القائم على حرية الإنسان وقدرته على تحقيق المصالح الممكنة في إطار نظام السوق وفق ضوابط قانونية.

لسوف نجد في سياق ما بعد سقوط جدار برلين هذا التلازم ما بين الليبرالية بمفهومها الفلسفي، وتطبيقها الاقتصادي. هناك ترابط ما بين اليد الخفية لآدم سميث ومكر التاريخ عند هيغل... لذلك كان سقوط جدار برلين إيذاناً بانتصار التاريخ كما ارتآه هيغل، وانتصاراً لليد الخفية وما تقوم عليه من ليبرالية. كانت نشوة الانتصار تخفي الغطرسة بادئ الأمر.. لم يقف المحلّلون من كل الاتجاهات على كتاب كما وقفوا على كتاب الفيلسوف فرانسيس فوكوياما يحمل عنوان **نهاية التاريخ**، والذي أتى توسُّعاً لمقال صدر في مجلة *The National Interest*. بَوْنٌ شاسع بين تقريبات المقال ورصانة الكتاب[1].. يعلن فوكوياما أن التاريخ بلغ منتهاه، وأن تلك الصورة التي رآها هيغل من شرفة بيته وحوافر خيول نابليون تدخل مدينة إينا البروسية، إيذان بانتشار قيم الأنوار وثورة الإنسان والمواطن التي حملتها الثورة الفرنسية. لقد حَجَبَ تعثُّر التاريخ تلك الصورة في حروب أوروبا في القرن التاسع عشر. بيد أن الحُجُب الكثيفة التي وارتها بشكل سميك، كان قوس الشيوعية التي كانت تحدياً لرؤية هيغل مُوظِّفة جدليته. قلبتها، وقدّمت تصوراً بديلاً للتاريخ وللإنسان.

---

(1) Francis Fukuyama: *The End of History and the Last Man*, Free Press, 1992.

وسقط القناع، وفق هذه الرؤية، وأزيح القوس مع سقوط حائط برلين.. الآن فقط يمكن للعالم الغربي، ومعه العالم، أن يربط الصلة مع عالم فلسفة الأنوار.

أُغلق قوس شتاء الشيوعية الطويل، وهبّت نسائم ربيع الحرية والمساواة والإخاء. العالم سيصبح بلا حروب، مثلما تنبّأ بذلك شارح هيغل أليكساندر كوجيف، سيصرف الإنسان طاقاته في الحب والفن والمتعة، أي في الأشياء التي من شأنها أن تجعله سعيداً. حتى الفلسفة ستذوي. لا حاجة إلى الفلسفة في عالم بلغ فيه التاريخ مُنتهاه.

واندلعت حرب الخليج الثانية في يناير 1991 جراء اجتياح العراق للكويت، وشاهد العالم بعدها صور المأساة والدمار في البوسنة، وعاين ممارسات مروِّعة من الإبادة الجماعية، وكان يُعتقد أنها ذوت إلى غير رجعة، لتعود في شكل ما سُمّي بالتطهير العرقي. والتهب أتون الشيشان، وارتطم عرقا الهوتو والتوتسي برواندا في حرب أهلية مدمِّرة..

وكانت نهايةُ نهايةِ التاريخ سريعة أمام هول الواقع ومرارة الحقيقة.. لن يصرف الإنسان جهوده في الأشياء التي تحقق السعادة والرخاء كما حلم فوكوياما لأن عهد الأيديولوجيات لم ينقضِ. وكانت الأيديولوجية الغالبة هي أيديولوجية ميركانتيلية لا صلة لها بالأنوار. لم يعد الغرب يداري أو يأخذ حذره في التدخل في شؤون العالم الثالث.. اندحر خطر الدُّب الأحمر الذي كان يُشيع نوعاً من التوازن، وتوارى الإصر الاستعماري وما كان يبعثه من تبكيت الضمير أو الوعي الشقي لدى يسار العالم الغربي وبعض مثقفيه. وهكذا أخذ

الغرب يتدخل بلا مواربة باسم حقّ التدخل الإنساني كمسوغ للتغلغل في المنطقة الكردية بالعراق، وباسم توسيع الديمقراطية لإزاحة الحاكم العسكري لهايتي، وباسم النظام العالمي الجديد لإزاحة الأنظمة التي لا تروق له... ثم باسم نظام السوق. لم يكن للقوى الغربية أن تبعث البعوث وتجنِّد الجنود إلا في الحالات القصوى. كانت معرفتها بالمجتمعات الثالثية وتوظيف تناقضاتها واستعمال الإعلام، كلها تقوم عِوَضاً عن كل تدخُّل مباشر.

لم تكن الأنوار إلا غطاء. كان الغرب أول من أجهز عليها.. لقد كان كثير من الثالثيين في سياق حروب التحرير من الاستعمار يرددون صرخة فرانز فانون، «أوروبا هذه التي لا تفتأ تذكر الإنسان تغتاله عند كل منعرج». أما الفيلسوف الفرنسي كورنيليوس كاستورياديس فكان يأسى لتهلهل الغرب (Délabrement de l'Occident). لماذا؟ لأن الحرية فضيلة تجاور الأنانية وهي رذيلة، وفي خضمّ هذا التلازم غلبت الرذيلة الفضيلة. فلنوضِّح الأمور. يقوم السوق، وهو أحد تجليات الحرية في الميدان الاقتصادي، على نزعات أنانية. فالمصلحة العامة لا تتحقق إلا نتاجاً للأنانيات الفردية. لا مكان للفضيلة، ولا للإيثار. عجلة السوق تقوم على تضارب المصالح الفردية، وبتعبير الاقتصادي الإنجليزي ماندفيل فالرذائل الفردية هي ما يصوغ الصالح العام.. وهكذا، يُعقّب الفيلسوف الفرنسي ذو المرجعية الكاثوليكية جون-كلود كيلبو بأن ديمقراطية السوق تقيم أساسها على بناء واوٍ. وهل يمكن لحضارة أن تستند إلى جرف هارٍ، إلى شيء مشين، إلى الأنانية والطمع والمصلحة؟ هو ذا السؤال، وليس بحديث..

جذور الانجراف

طُرح هذا السؤال منذ نهاية الحرب العالمية الأولى. كانت الحرب المدمرة تعبيراً للنزعات الانتحارية الكامنة في الغرب في تعبير ننقله من فلاسفة الغرب. تشخيص هذه الوضعية هو ما أوحى إلى الفيلسوف الألماني شبينغلر بكتابه المرجعي **أفول الغرب**. وفي المنحى ذاته، وفي نفس السياق التاريخي، كتب الشاعر الفرنسي بول فاليري كتابه **نظرات حول العالم المعاصر** وأرسل مقولته «إننا ندرك أن الحضارات تموت» في تورية للحضارة الغربية التي بلغت درجة شنيعة من التقتيل والدمار في مغامرتها لحرب 14-18. منذ حروب نابليون إلى 1914 لم يتجاوز عدد القتلى في أوروبا مئتي ألف، مروراً بالحرب الفرنسية البروسية لـ 1870. عددٌ هيّن قياساً مع حجم ضحايا الحرب العالمية الذي أربى على العشرين مليون في أربع سنوات. عدد غير مسبوق في تاريخ البشرية. رقم يُفصح عن نزعات تدميرية كامنة في الغرب. كانت الشيوعية والنازية بنتا هذا الانجراف الخطير والانحراف المهول الذي عرفه الغرب باسم التقدُّم. كان مفكِّرو أوروبا وكُتّابها وشعراؤها وقادتها يؤمنون أن مسيرة الإنسان تقوده، باسم التقدُّم، نحو الأحسن دوماً. وعصفت الحرب العالمية الأولى بهذا الاعتقاد. لذلك كانت الشيوعية والنازية تريدان أن تقدِّما بديلاً للآلة الرهيبة للرأسمالية.. ولذلك كانتا تلتقيان في عدة مناحٍ: تكرهان تقديس الرأسمالية للمال، وتريدان، كلتاهما، أن تقدِّما بديلاً حضارياً، الأولى باسم مهدوية طبقة البرولتياريا أو رسالتها، والثانية باسم تميُّز العرق الآري. وتفترقان فيما عدا ذلك. كانت الشيوعية في كثير من الأنحاء مسيحية جديدة؛ بكهنوتها: مندوبو الشعب،

وبمتنها الأيديولوجي الشبيه بالدوغم: الجدلية التاريخية، وبخلاصها: انتفاء الدولة، بشُرّاحها، وشُرّاح الشرّاح، كما في أدبيات الكنيسة.. ولكنها كانت مسيحية مقلوبة، أو بتعبير الكاتب الفرنسي برنانوس: «الشيوعية فكرة مسيحية أصابها الجنون».

لقد أدركت النازية هذا الترابط بين الشيوعية والمسيحية، ولذلك كانت تريد بديلاً لكل هذا التراث اليهودي المسيحي. لم يكن تقديسها للعرق الآري إلا حلقة من فهم جديد للتاريخ وللإنسان. كانت تريد أن تبرأ من أثر التأثيرات السامية، ذهنياً وثقافياً. لم يكن العِرق إلا بوابة وذريعة. كان هتلر يريد أن يطهِّر ألمانيا من التراث اليهودي المسيحي. كان عداؤه لهذا التراث لا يقل عن عدائه للسامية. ولم يكن عداؤه للسامية إلا صورة لعدائه للتراث اليهودي المسيحي. لا فرق عنده بين العهد القديم والعهد الجديد. لا فرق بين اليهودية والمسيحية. كلاهما ينحدران من جذع مشترك، ويرتبطان بالخُرافة، ويقيمان تصوراً للإنسان ينخره الشعور بالذنب والخطيئة، ويُزري به سلوك الشفقة وثقافة الخنوع. ما يريده هتلر، أو كان يدعو له في نفحة نيتشوية، هو إنسان قوي لا يرنو إلى الماورائيات. إنسان حر يحمل إلهه في ذاته: «حينما نزيح الطلاء المسيحي، يقول هتلر، لسوف نجد دين عِرقنا. نحن برابرة ونريد أن نبقى كذلك. إنه عنوان فخار. نحن من سيُشيع الفُتُوّة في العالم. أوشك هذا العالم على الانتهاء، ومهمتنا أن نجهز عليه»[2].

من الضروري أن نُذكّر بالمرجعية الفكرية للنازية لنفهم العداء

---

(2) In J. C. Guillebaud: *La refondation du monde*, France Loisirs, 1999, p. 381.

الذي كانت تناصبه للشيوعية. فإذا كانت النازية تمجّ المسيحية، فمن البديهي والحالة هذه، أن تمجّ هذه الصورة المنقّحة لها والفتية، ألا وهي الشيوعية.

ربما كان هناك شيء آخر في عداء النازية لليهودية. لقد سبق أن قلنا إن النازية كانت تكره تقديس الرأسمالية للمال. لقد كانت تريد أن تبني مجتمعاً من الأبطال لا يخْلُد بنوه للحلول السهلة والخيارات البسيطة، على خلاف مجتمع التجّار الذي كانت تحيل إليه كل من بريطانيا وفرنسا. نموذج يميل إلى الدَّعة والخمول، ويأنف من البطولة ويجانف التضحية. نموذج يحركه المال. أليست عقيدة اليهودي هي المال، كما يقول يهودي نأى عن مرجعيته اليهودية كارل ماركس. «ما هو العمق الدنيوي لليهودية؟ هو المال؟ لقد تحرر اليهود إذ أصبح المسيحيون يهوداً. . تعلمن إله اليهود (Le Dieu des juifs s'est sécularisé) وأصبح إله العالم. دين اليهودي الحق هو الصفقات»، كما يقول كارل ماركس في كتابه **المسألة اليهودية**.

كان التصادم بين الشيوعية والنازية يخفي مدرسة فكرية أخرى، لم يكن لها من بريق، ولم تُقم اتجاهاً سياسياً وإنْ ظلَّ أثرها حاضراً في توجُّهات قيادات بصفة فردية. كان هناك اتجاه المسيحية الجديد الذي ينطلق هو كذلك من تشخيص زيغ الغرب في حربه العالمية الأولى وفي عبادته للمال. وكان هذا الاتجاه لا يستكين للنزوع الميكانيكي للشيوعية وعلى ما تنطوي عليه من عنف. كان من أبرز ممثلي هذا الاتجاه في فرنسا الكاتب شارل بيغي الذي أدّى ضريبة الدم، إذ قضى في الحرب العالمية الأولى. كانت كتاباته ذات نفحة اشتراكية، إذ كان يعتبر المال، على غرار ماركس، وسيلة من وسائل

الاستيلاب. ما يطبع العالم الحديث بحسب بيغي، هو أن المال أصبح وسيلة قياس لكل المبادلات، ولكنه عوض أن يبقى وسيلة أضحى غاية. هذا التحول هو الذي يُفرغ القيم من معناها، هو الذي يُفضي إلى ما يسميه بيغي في تعبير فجّ بالدعارة. ما الدعارة؟ هي تحويل قيمة غير قابلة للقياس، الحب، إلى مبادلة مالية عن طريق علاقة جنسية عابرة. وبما أن التوجه الميركانتيلي للعالم أصبح شاملاً، فإن العالم، وفق تحليل بيغي، ليس إلا دعارة كبرى. ليس لهذا المصطلح الفجّ من حمولة أخلاقية. هو معاينة لواقع أفرغ القيم من محتواها وجعلها سلعة. نورد مقتطفاً من نصٍّ لبيغي قبيل الحرب العالمية الأولى، ولكنه يحتفظ براهنيته:

«لأول مرة في تاريخ العالم توارت القوى الروحية ليس من قِبل قوى مادية، بل من قِبل قوة واحدة هي سلطة المال... لأول مرة في تاريخ العالم يقف المال وحيداً في وجه الروح، لأول مرة يقف المال وحيداً أمام الله»[3].

فكر بيغي راهني يتمُّ إحياؤه من مدارس مختلفة وإن تكن ذات توجهات علمانية. يبدأ بيغي حيث ينتهي ماركس. يحلِّلُ ماركس الرأسمال، وينتقد استغلال الطبقة العاملة، والقصة معروفة. أما بيغي فينتقد المال، ويعتبره المسؤول عن استيلاب العلاقات الإنسانية كلها، ليس للطبقة العاملة وحدها. وهو يصبح وسيلة استيلاب حينما يصبح غاية. من خصائص الحداثة أن المال غاية في حدِّ ذاته. وهنا

(3) In Jacques Julliard: *L'argent, Dieu et le diable*, Flammarion, 2008, p. 155.

تكمن الخطورة حين تصبح القيم الفكرية والأخلاقية سلعة وخاضعة لعالم المال. إنه منحى خطر في قيم الحضارة كما يقول جاك جوليار أحد باعثي فكر بيغي، يتهدد وجودها، ويتهدد النظام الاجتماعي بأتمّه. يموت المرء من أجل قيم أخلاقية وليس من أجل قيم البورصة، يقول جوليار بحدّة. كل هذا نقد سافر للمنظومة النيوليبرالية...

حتى آدم سميث عرّاب اليد الخفية وأب الليبرالية الاقتصادية كان يدرك خطورة تطبيق قيم السوق على كل مناحي الحياة. فحينما تسود سطوة المال «يتقلّص الذكاء ويضحى سمو الفكر متعذّراً. يُنظر إلى التربية بازدراء، وتكاد روح البطولة أن تندثر كلية»[4].

كل حضارة تقوم على قيم، وكل حضارة تقوم على تراتبية قيم، وكلها تنبني على فضائل، فالقاضي النزيه يسمو على نظيره المخاتل، والعالِم يرشح على النذل، والمبدع والمبتكر على سوقي من الدهماء، مَن تسير حياته بلا رؤية.. وفق هذه التراتبية يكون للتربية معنى، وتؤدي وظيفة، ولكن رياح السوق تعصف بهذه المنظومة رأساً على عقب. فالسوق ينحني للشاطر الأريب، وللمخاتل المخادع.. أما القاضي النزيه، والمربّي المتجرد، والشاعر، فنماذج لا يحسن أن تُقتدى. هم زمرة من الخاسرين (Losers). ولا شفقة ولا رحمة على الخاسرين في منظومة السوق.

ما لم أسفر عليه، وهو ما كان نشازاً في مسيرة الفكر الغربي، أن الله جزء من منظومة بناء بيغي. الله منتهى، ومن دون الله تصير

---

(4) In Jacques Julliard: *L'argent, Dieu et le diable*, op. cit., p. 167.

حياة الإنسان بئيسة لا معنى لها. هو رجع صدى لمفكر فرنسي أتى إلى اللاهوت من عالم الرياضيات، باسكال. لماذا هذا الاستطراد؟ لأن نزوع السوق هو أن يفصَل الغرب عن تراثه الديني. نهضت الحضارة الغربية من تربة المسيحية. أغلب بناة النهضة وفلسفة الأنوار كانوا يؤمنون بالله. إنسان الأنوار هو تجلٍّ لإنسان عقيدة التوحيد والذي يتمتع بحقوق أصلية بصفته إنساناً وبصفته صورةَ الله. مسيرة الإنسان في التراث اليهودي المسيحي تخضع لمسار سواء أكانت تاريخية أو ميتافيزيقية. وإنسان الأنوار جعل التاريخ حَكمه وغايته.. هناك وشائج بين الوصايا العشر وبين إعلان حقوق الإنسان والمواطن.. ثورة الأنوار على الكنيسة لم تكن ثورة على التراث المسيحي، بل استعادة لها بأشكال أخرى..

بقي هذا الحبل قائماً في الحضارة الغربية مع التراث المسيحي، رغم زوابع الرأسمال ونزوات السوق. يقول الاقتصادي الفرنسي فرانسوا بيرو:

«يشتغل كل مجتمع رأسمالي عادة اعتماداً على قطاعات اجتماعية لا تخضع لمنطق الربح أو البحث عن كسب أكبر. فلو خضع الموظف والجندي والقاضي والقس والفنان والعالِم لهذا المنطق فإن المجتمع سوف ينهار، وسيصبح كل نشاط اقتصادي مهدداً. فالأشياء الثمينة والنبيلة في حياة الإنسان، كالشرف والبهجة والمحبة واحترام الآخر، لا يجوز أن تُقاس بمقياس السوق»[5].

---

(5) In Jacques Julliard: *L'argent, Dieu et le diable*, op. cit., p. 168.

يحلِّلُ الفيلسوف الفرنسي كورنيليوس كاستورياديس هذه العلاقة المريبة بين الرأسمالية والدين رغم المرجعية الغنوصية لهذا الفيلسوف. فلم تكن الرأسمالية لتقوم ولتستمر لولا وجود أشكال أنثربولوجية لم تنتجها، ولا كان يمكن أن تقيمها: قضاة نزهاء، موظفون مستقيمون، مُربّون مخلصون لمهنتهم، عمّال لهم الحدّ الأدنى من الضمير المهني... هم كلهم أشكال لم يصغهم الرأسمال، ولا كان يستطيع أن يحدثهم. هم نتاج فترات تاريخية سابقة.. لا يمكن ألا نرى أثر الدين، أو الأخلاقية المستمدة من الدين في بروز هذه الأشكال والتي صمدت رغم زحف السوق الكاسح وأبقت سدى الغرب قائماً[6].

أليس في الليبرالية الجديدة خطرٌ على تراث قرنين من هذا البناء الكنسي العلماني ألا وهو الدولة؟ لا شيء يقف أمام السوق، لا الكيانات الوطنية، ولا الدولة، ولا الديمقراطية.. لقد أجهزت الرأسمالية المالية على قيم مسيحية تعايشت مع الرأسمالية الصناعية من قبيل روح التقاليد، واحترام الجماعات والمؤسسات، والسلطة، والتراتبية.. ضربت الرأسمالية المالية بهذا التوافق التاريخي عرض الحائط كما يقول الفيلسوف الفرنسي غوشي[7]. هي ذي الخطورة التي تتهدد تصوراً شيَّء كل شيء وجعله سلعة.. التربية سلعة، والصحة سلعة، والوطنية مُخلّفات قديمة، والديمقراطية شعبوية

---

(6) Jean-Claude Guillebaud: *La trahison des lumières*, Seuil, coll. Points, 1995.

(7) Marcel Gauchet: *La démocratie contre elle-même*, Gallimard, 2002, p. 300.

مستترة. رياح السوق لا تُبقي ولا تذر، ولحام الدين يتهلهل رويداً رويداً.. حتى المنظومات الفكرية والسياسية التي قامت ضدّ الدين، كانت تجد مُسوغها من خلال هذه العلاقة التصادمية سواء أكانت اشتراكية أو شيوعية أو «جمهورية»، بل كان بناؤها ومنهجيتها يمتح من العمق المسيحي والبناء الكاثوليكي. أنقل ما أورده أحد الملاحظين الثاقبين إيمانويل تود في تحليل دقيق حول ما أسماه **ما بعد الديمقراطية**، وهو عنوان كتابه:

«ما نعيشه من حالة تبعث على الأسى مردّه بالأساس أزمة دينية. ما حدث ما بين 1965 و2007 هو كما لو أن انهيار معاقل العقيدة أدى إلى حركة تحلُّل سياسي شامل. فالطبيعة شبه الدينية للمعتقدات السياسية الكبرى شيء مُسلّم به من الناحية السوسيولوجية. (...) إن تشخيص العمق الديني للأزمة من شأنه أن يسلِّط الضوء على الوضعية الحالية وما تبعثه من قلق، وبخاصة صعوبة أن يعيش مجتمع ما من دون معتقد ديني. لقد انتصر الإلحاد. وهو من دون شك مرادف للحرية. (...) أليس من شأن الإنسان وقد تحرر من الخرافة أن يتحسن حاله؟ بيد أن التاريخ الملموس للإلحاد يؤكِّد شيئاً آخر غير تبريره المنطقي: فبروز عالم لا يؤمن بالله هو أبعد من أن يؤدي إلى هناء العيش، بل هو يقود إلى القلق والضيق، وإلى الشعور بالنقص والحاجة»[8].

التوجُّه العلماني للمجتمعات الغربية يحرِّر الإنسان من كثير من

(8) Emmanuel Todd: *Après la démocratie*, Gallimard, 2008, p. 33.

الأساطير والخرافات، بيد أنه في الوقت ذاته يجعله وجهاً لوجه مع نفسه. آنذاك يكتشف الفراغ وانعدام المعنى. هذا على المستوى الفردي، أما على المستوى الجماعي فاندحار معاقل العقيدة يجعل الاتجاهات العلمانية تدور حول نفسها، تشك في ذاتها، وتأخذ في التحلل، كما لو أن وجود عقائد جماعية هو ما يعطيها مبرر وجود. فهي لا يمكن أن توجد من دون خصم ميتافيزيقي. والنتيجة هو الاندحار نحو قيم تحلُّ محلَّ غياب الدين أو العقيدة: السقوط في جهنم المال واللذة والعنف.. هو ثالوث الغرب، ثالوث كانت تضبطه العقيدة، أو على الأقل الكنيسة، وتحدُّ من زيغه، من غلواء المال، وجموح اللذة وشطط العنف. ثالوث لم يعد حكراً على الغرب، وانتقل فيما انتقل من «حداثة» إلى الضواحي، ضواحي المدن الغربية، وضواحي العالم الغربي.. الغرب الرأسمالي ليس مفهوماً حضارياً ولا تاريخياً ولا جغرافياً، الغرب الرأسمالي نظام حياة (Un mode de vie) ومنظومة عمل (Un modus operandi)، وبهذا المنحى فالغرب الرأسمالي يوجد في كل مكان، حتى في الدول الفقيرة حيث تعيش نخبها على إيقاع الغرب ولا تمَتُّ إلى مجتمعاتها بصلة، إلا من مسحة خفية، لاعتبارات سياسية لا تنفذ إلى العمق.. ما يربط رجال المال الفرنسيين مع نظرائهم الأميركيين أعمق مما يربطهم مع الطبقة المتوسطة لبلدهم. وإذا كان هذا حكم عالم الاجتماع الفرنسي إيمانويل تود حول العلاقة المتداخلة بين الرأسمال العالمي بين مصرفيي فرنسا وعالم الأموال في الولايات المتحدة، فما القول بالنسبة إلى النخب المالية لدول العالم الثالث التي تعرف أحياناً قطيعة ثقافية مع مجتمعاتها؟

المال وحدة قياس

لقد أضحى المال قيمة القيم أو معبوداً. أضحى المتنَ العقدي للحداثة الغربية، لغُلُواء السوق.. لقد رصدنا هذا الجنوح بالاستشهاد بالكاتب الفرنسي بيغي، بيد أن هذا المعبود في ظلِّ العولمة بلغ شأواً بعيداً، وأصبح السوق وما يرتبط به من جري محموم وراء المال أصولية بتعبير الاقتصادي ستيغليتز.. لقد قام فيما سلف، إبّان الرأسمالية الصناعية، تقسيم بين مجال زمني (دنيوي)، يتأثر بالرأسمال، ومجال روحي يتداخل فيه دور كل من الدولة التي تسهر على قطاعات اجتماعية حيوية، وأحزاب يسارية ونقابات تابعة لها تعبِّر عن وعي الجماهير وتطلعاتهم، ثم أصحاب الفكر والإبداع... كان كبار الصناعيين الفرنسيين يتعايشون مع كبار الكتّاب والمفكرين في النصف الأول من القرن العشرين. كان لكل مجاله، ولكل منطقه.. الكتاب لم يكن سلعة، بل صرخة، بل بياناً.. داسو جنباً لجنب مع سارتر. الكاتب سيلين الذي «يتقيأ» حقائق البورجوازية الفجّة ويمرِّغها في الوحل... ثم الدولة التي ترعى المدرسة والمستشفى... وأحزاب اليسار ونقاباته التي تحقق التوازن مع سلطة رأس المال... كل هذا عفَّى عليه تطور الرأسمالية في صيغتها المالية، لأن سلطة المال جمعت في يديها المجال الزمني والمجال الروحي.. كلاهما يخضعان لسلطة المال، ولنفوذ الإعلام الذي يخضع لسلطان المال. تمَّ تطويق كل شيء.. الكُتّاب النافذون هم الذين يرُوّجون سلعاً يَكْلَف بها الجمهور: سلع عجائبية أو جنسية، أو على مستوى أسمى حيث تُمنح جوائز مزجية إلى من يستجيب لخطاب سياسي معيّن في زمن معيّن... الإبداع أو العمق والالتزام؟ أضغاث أحلام...

نعم بسط الرأسمال يده على كل مناحي الحياة، وأصبحت شِرْعته هي المال.. هي أرقام خيالية لشركات معيّنة، هي أرباح تفوق الخيال لمضاربين (سوروس الذي يربح في مضاربات مليار دولار خلال سنة، ما يساوي الدخل القومي لكثير من الدول الأفريقية)، هي عمولات للوسطاء، هي رواتب خيالية لرؤساء مديري الشركات والمقاولات...

لقد أصبح لهذا الدين صلاة وهي الأرقام الضخمة، وكهنوت من الخبراء الماليين والمختصين الاقتصاديين، وحواريون من الإعلاميين اللامعين.. كل يسبّح بسلطة المال، حتى فلول الاشتراكيين.. لقد أصبحوا من المؤلّفة قلوبهم، في فرنسا، وفي الدول التي تدور في فلكها... برواتبهم الخيالية، بنظام عيشهم الباذخ، دون أن يتخلوا عن خطابهم.. رسيس (مخلفات) لا غير.. يسار بلا روح كما في أسطورة فوست حين عرض الشيطان ميفوستوفليس على العالِم الشيخ فوست الغانية كاترينا مقابل روحه... نعم أصبحت لفوست الفتوة والقوة والغانية كاترينا، ولكنه أضحى بلا روح. يبقى يسار اليسار، ولكنه في فرنسا وفي غيرها ينعق دون أن يُغيّر شيئاً، لا تأثير له على اليسار الذي أصبح سادن المحافظة، ولا على اليمين الذي يختلف عنه اختلافاً بيّناً من حيث الأُسُس والأهداف. مهمته في نهاية المطاف الخطابة لا الفعل. الفعل أصبح شأناً محتكراً من قِبل الرأسمال والسلطة السياسية الناطقة باسمه.. لقد نجحت الرأسمالية المالية بفضل فضائل مادية ولو محدودة في أن تجعل الاحتجاج تحت السيطرة: التغطية الصحية، الثورة الجنسية، أو بتعبير غوشي السعادات الفردية المبتذلة

(La banalité des bonheurs privés). لا شيء يؤثر في قوة المال وسلطة الرأسمال. النقابات وأنشطة المجتمع المدني، الذي رغم حدّة نبرته، أصبحت ذيلاً لأصحاب المال، كلها تسهم في التنفيس، وتضطلع بدور صمّام أمان، فضلاً عن الفضائح التي تنشرها الصحافة، لأن الفضائح مكوّن بنيوي للرأسمالية المالية، تسهم أيضاً في الترويح. يمكن للمجتمع المدني، من خلال نشاطاته ومن خلال الصحافة، في الهوامش التي يمكن أن يَقتحمها، أن يصرخ وينعق.. لا أثر له على الواقع. «الواقع» في ملك الرأسمال، أما السلطة السياسية فهي تأتمر بعالم الرأسمال وتسبّح بملكوته وتتأود بحمده.

وهكذا إذاً يبسط المال أو الرأسمال سلطته على المجال الروحي يُدبّره كيف يشاء.

الوجه الآخر للعمل الإنساني

لقد ارتبط العمل الإنساني بالمحبة المسيحية، وبثورة 68، وأممية الشيوعية. لا شيء يخدش في صدق هذا التوجه. أطباء بلا حدود الذين يجوبون العالم ويخوضون الغمرات في أدغال أفريقيا وصحاريها وسهوب آسيا الوسطى.. لكن الأمور أخذت تتطور، وتصبح أكثر احترافية و.. أقل صدقاً.. تصبح نوعاً من الـ«بيزنس» (Business charity). هناك حالة عملية: «إعادة الأمل» (Restoring hope) في الصومال. الرئيس الأميركي بوش الأب في نهاية ولايته يريد أن يُرصّع ولايته بعمل إنساني تحت تأثير الإعلام.. هي صور CNN التي حرّكت «ضميره» وأريحيته. لم تكن تقارير كتابة الدولة في الخارجية، ولا وكالة المخابرات المركزية، ولا أي جهاز من

أجهزة الدولة. هو الإعلام من استحث أول مسؤول لأول قوة عالمية ليَهُبَّ لنجدة ساكنة الصومال التي ينخرها الجوع. المسألة ليست اعتباطية، ولا عارضة. أصحاب القرار في أميركا وفي غير أميركا، حتى في البلدان الثالثية، يتأثرون بالإعلام ويصيخون إليه أكثر مما يصيخون إلى مؤسساتهم ومسؤوليهم. ثم إن الإعلام مجزي. لسوف يرد التحية. سيؤثر بدوره في استطلاعات الرأي.. الحكومات لا تزيد عن أن تتبع هذا المدّ الذي ترسمه منظمات غير حكومية نافذة تتقن فن التواصل، ويؤثر فيه الإعلام.. لكن الواقع أعقد من استيهامات الإعلام وفذلكات المنظمات غير الحكومية... الضحايا يريدون أكثر من صحن أرز، ومن صورة تتناقلها وسائل الإعلام، ومن تصريحات سفراء النوايا وخطبهم... مآسيهم بنيوية ولا يمكن أن تُختزل في صحن وصورة وتصريح، ولذلك يغضبون، لأنهم يدركون أن الثمن الذي يُقتضى منهم هو كبرياؤهم وأنفتهم وكرامتهم.. حالة الصومال يمكن أن تُطبّق على كل الحالات، لأن «الإنساني» في سياق أيديولوجية السوق يدخل ضمن عمليات العلاقات العامة أو بتعبير راهني ضمن عمليات «كوم» (com)... ليس هناك عملية إنسانية لا يصاحبها الإعلام، بدءاً بالمنشور الإشهاري، إلى العملية في حدّ ذاتها، حتى الصورة التي تخلّد المحسن أو السامري وهو يحنو على أطفال أفريقيا ونساء آسيا وشيوخ الأمازون أو هو يلقحهم أو يوزع الصحون... ثم «بلاك آوت» (Black out).. الصمت المُطْبق. بعد أن ينتهي تصوير العملية.. الصحافيون الذين كانوا يقيمون الدنيا لحالة ما، يتأففون ممن يُذكّرهم بالحالة التي كانوا يصرخون بشأنها. يتحولون إلى شيء

آخر. الإعلام نزق. ويكتشف الضحايا أنهم كانوا كومبارس لعملية «كوم». قد يكتب عنهم صحافي لا يزال يستحثه ضميره في الصفحات الداخلية مربعاً وسط الإشهار، يقول فيه إن لا شيء تغيّر من حالة الضحايا والمنكوبين.

الإنساني يخضع لاستراتيجية التواصل. وما عداه فأدبيات أو أضغاث أحلام.

الثقافة بين وأد الفكر وموضة التنشيط

لم تعد الثقافة ساحة تفاعل الحياة مع الإبداع، ومن ثمة الفكر، في علاقة متلازمة وجدلية. الواقع يتحول فكرة، والفكرة تلهب الفعل. تمرَّدَ كُتّاب على زيغ الغرب، فآمنوا بالحياة رغم الإحساس بالعبث الذي طفا على الحياة غداة الحربين العالميتين، وانخرطوا في قضايا مجتمعاتهم، بل منهم من حمل، فضلاً عن سلاح القلم، البندقية في الحرب الأهلية الإسبانية، ورابط مع القِوى الاشتراكية ضدّ الفاشية. لا مكان لسارتر يشحذ قلمه وكلماته من أجل رسالة.. حتى إن كانت لا تغيّر شيئاً. أو جورج أورويل ينغمر في أتون الحرب الأهلية الإسبانية ويندد بالشمولية في رواية **1984**، أو **مزرعة الحيوان**، أو مالرو الذي يزاوج بين الفعل والنضال والكتابة. لا مكان لكوستلر في تشخيصه لزيغ الشيوعية في رائعته: **العتمة وسط الظهيرة**. كلها تجليات لعلاقة الفكر مع الحياة أو الواقع، وتفاعلهما. لكن الثقافة جنحت إلى شيء آخر. هي تنشيط وملهاة.. كُتُب ممتعة، روايات مسلية، كليبات، مهرجانات تملأ الرحب... **على جسر أفينيون**، وهو عنوان كتاب ريجيس ديبريه، واحد من

الضمائر الحية في فرنسا[9]... ما الثقافة؟ تختزلها الأغنية:

على جسر أفينيون نرقص ونرقص

على جسر أفينيون، نرقص ونستدير

قُضي الأمر. لم يعد أحد يخرج المسدس حينما يسمع ثقافة، ولكن سدنة الليبرالية الجديدة يخرجون ثقافة حينما يسمعون كلمة فكر.. كل الوسائل مبرَّرة من أجل الإجهاز على الفكر، أو على الثقافة في وظيفتها الحق: دينامية تغيير.

وماذا يبقى من الأدب؟ سؤال كان طرحه سارتر في الخمسينيات من القرن الماضي ويحتفظ براهنيتة؟ فقاقيع عابرة تُعبِّر عمّا يسميه سارتر بالتضخُّم الأدبي. عنوان، اسم لامع لكاتب، لا متن نصه. لا يكفي أن يكون للكاتب قُرّاء، المهم أن يكون له جمهور يتماهى معه من أجل التغيير. هي ذي قوة الكاتب، هو الغضب الذي تشيعه كتاباته والحماس الذي تثيره والتفكُّر الذي يقدحه كما تُقدح النار. لا يهم عدد القرّاء، بل كلما كان عدد القرّاء أكبر، كلما كان أثر الكتّاب أقل عمقاً. الخطورة هي أن تصبح الكتابة سلعة، والأدب صناعة. هذه كانت صيحة سارتر، وهذا الذي حدث[10].

هذا في الدول المتقدمة.. أما الدول الثالثية فحدِّثْ ولا حَرج... هناك زيغ السوق، وهناك سلطوية الدولة، وهناك افتئات الأصوليات. كل الأصوليات.

ثم هناك مواضيع الساعة، التنوع الثقافي... الكل حرٌّ في أن

---

(9) Régis Debray: *Sur le pont d'Avignon*, Flammarion, 2006.

(10) Jean-Paul Sartre: *Qu'est-ce que la littérature*, p. 192.

يلبس ما يروق له، ويأكل ما يريد ويتكلم بكل لسان. حقوق الأقليات مصونة، حقوق المثليين، كل المثليين، باسم الاختلاف.. أو ما يسميه العالم الأميركي بنجامين باربر بعالم جهاد[11]. فعالم ماك أو العولمة المالية والتجارية تفرز نقيضها. هما متلازمان.. في نهاية المطاف، هوامش الاختلاف لا تتهدد العولمة. تسمح بمجال للتنفيس وتصرف النقاش عن القضايا الاجتماعية التي تدخل دائرة المسكوت عنه أو المكبوت... يمكن لأي طائفة عرقية أو ثقافية أو متحلِّلة من القواعد المتواضع بشأنها أن تنال مبتغاها، من خلال توظيف الإعلام وشبكات صانعي القوانين والنافذين. العملية لعبة بمجرد أن يحذق المرء قواعدها تصبح مُيسّرة... إذا أرادت جماعة أن تنظم شؤون الغيتو الذي تعيش فيه، وتضمن الاعتراف به، بل رعاية الدولة والحاضنين له، فلا ضَيْر، أما أن ينادي أحدٌ بهدم الغيتويات من أجل العدالة الاجتماعية، فلا وألف لا... إنه تغريد خارج السرب. هو ذا ثمن الحقوق الثقافية. وكذا تجري الأمور في الدول الصناعية التي هي محتاجة إلى حسن تدبير أقلياتها العرقية والدينية والأخلاقية، لاعتبارات أمنية.. والأمر كذلك في الدول الثالثية التي تتأود على أنغام العالم الغربي في باحة لهامش من الحرية، ولو صَغُر.. باسم الحداثة. أليس الاختلاف الثقافي وجهاً من وجوه أبارتيد لطيف (Un apartheid doux)، كما يقول الكاتب الكندي نيل بيسونداث الذي يتحدر من جزر الكاريبي[12].

---

(11) Benjamin Barber: *Jihad vs. McWorld*, Ballantine Books, 1996.

(12) Neil Bissoondath: *Le marché aux illusions, La méprise du multiculturalisme*, Boréal, 1995.

الديمقراطية في مهبِّ السوق

تجعل الرأسمالية المالية هدفها الربح عوض المصلحة العامة، ولذلك ترى في الدولة عائقاً. للديمقراطية إطار لا يمكن ألّا تقوم إلا فيه، هو الدولة، بحدود متعارف حولها، وثقافة سياسية متفق بشأنها تتمحور حول المصلحة العامة، ومؤسسات هي عماد الدولة، ووجدان هو روح الأمة. لذلك تتهدد الرأسماليةُ المالية الديمقراطيةَ في نهاية المطاف، إذ لا تعترف بالدولة أو تراها عائقاً. فعالم ماك (McWorld)، أو الليبرالية الجديدة، لا يريد أن تقف الحكومات أو ما يتحلق حول دولة ما، من هيئات وسيطة، من أحزاب ونقابات، أمام زحفها، لأن لها منطقاً غير منطق المصالح المحلية أو الوطنية.. وبالتبعية فأن أي بناء ديمقراطي لا يمكن أن ينهض خارج سياق وطني وخارج دائرة دولة ما.. لا يمكن للديمقراطية أن تقوم من دون حيّز جغرافي ينبني على قيم مشتركة ووجدان مشترك ومصير مشترك، بل على أسطورة مُؤسِّسة... كل هذا لا يستقيم ومنظومة عالم ماك، فهو لا يأبه بالمصالح المشتركة، ولا يعير كبير اهتمام لقضايا الهوية التي يتبنّاها المجتمع المدني، ولا هو يمكن أن يقوم بدور الضبط والتوازن الذي تضطلع به الدولة، أو كانت تضطلع به. ولذلك يقول باربر: «إذا كانت الديمقراطية تحب السوق فإن السوق لا يحب الديمقراطية»، أو في موضع آخر: «هناك نزوع داروينى ملازم للنظام الرأسمالي، فالأسواق بطبيعتها متقلبة وجشعة.. ولا تفضي بالضرورة إلى أحسن أشكال الديمقراطية»[13].

---

(13) Benjamin Barber: *Jihad vs. McWorld*, op. cit.

ذلك أن الرأسمالية المالية على خلاف الرأسمالية الصناعية لا تعرف التضامن، وتجنح إلى مضاعفة امتيازاتها: تريد ضرائب أقل، وانسحاب الدولة، وتستنكف من الاضطلاع بأي دور اجتماعي.. لا تندرج في سياق النجاعة الاقتصادية، بل في دينامية السلطة، وبتعبير آخر، تريد أن تكون الدولة ذيلاً لها لا العكس.... وبتعبير إيمانويل تود في كتابه **ما بعد الديمقراطية**: «الطبيعة الذهنية للرأسمال المالي أنه بالأساس شرس ومتسلِّط». طبيعة الرأسمال المالي أنه متعالٍ، مقطوع الصلة مع المجتمع، يعيش في قوقعة أو فقاقيع. لا صلة للنخبة المالية مع المجتمع. تعيش في عالم منفصل عن باقي مكونات المجتمع، في أحيائها الراقية، ونواديها، ونظام عيشها، وترفها وبذخها، ومدارس أبنائها.. ليست مُدينةً للجماهير بشيء، إذ هي لا تستجدي صوتها في عمليات الاقتراع، لأنها تتحكم في وسائل الإعلام. على خلاف الأرستقراطية الأوروبية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر التي تماهت مع قضايا الجماهير وقادتها نحو التغيير.. ويتخذ هذا الانفصال والانفصام أشكالاً أكثر حدّة في الدول النامية. فالطبقات المهيمنة وما يتحلق حولها من كوادر لا صلة لهم بالشعب، لا في اللسان ولا في الوجدان، ينظرون إلى قضاياه من بعيد، يساورهم التوجس والارتياب منه، ويرون في المطالب الاجتماعية شعبوية.. ليس الاعتماد على التكنوقراط في كثير من دول العالم حالة عرضية، بل تعبيراً عن منحى عالمي، وبلورة لأيديولوجيا مهيمنة باسم ما يسميه عالم الاجتماع الفرنسي كيلبو بالتفاؤل الفظّ (L'optimisme impitoyable). أناس مرتبطون بشبكة عالمية وداخلية، تستمدُّ قوَّتها من هذا الترابط، وتدين في نجاحها لفورة

العولمة وفقاقيعها. ما الإنسان الحداثي في نهاية المطاف؟ شخص له وعي بالرهانات الكبرى لمجتمعه، ذو عقلانية، ولكنه لا يؤمن بشيء. ومن أجل تحقيق مآربه، فهو مستعد أن يتماهى مع الشيطان ويُبرِّر ما لا يُبرَّر.. وبعد، أليس من الأفضل أن يكون المرء كلبياً (Cynique) على أن يكون خاضعاً لاتجاه ومتعصباً له كما يقول الفيلسوف الفرنسي فرانسوا ريفيل[14]؟ بل هناك دعوة يفصح عنها كتّاب بتمجيد الخيانة. ليست الخيانة في عرف الحداثة أمراً مشيناً. المهم بلوغ المبتغى بغضِّ النظر عن الوسيلة[15].

لقد استطاع الرأسمال في الدول الغربية أن يدجّن الطبقات الشعبية، من خلال ما يسميه الفيلسوف الفرنسي غوشيه بالسعادات الفردية المبتذلة، من خلال فورة مجتمع الاستهلاك، وضمان الصحة واللذة.. ولكن حتّام؟

لقد تمَّ تدجين الطبقات الشعبية.. ولكن الليبرالية الجديدة لم تغيّر كثيراً من أوضاع هذه الطبقات. لقد انحصر أثر العولمة الإيجابي على فئة شفيفة، لا ارتباط لها بالواقع، صلاتها أوثق مع نظرائها في الشبكة الواسعة للرأسمال العالمي. فالطبقة المالية الفرنسية مثلاً أصبحت ذات نزوع أميركي في ثقافتها وأسلوبها وخياراتها وأيديولوجيتها.. وكذلك الشأن بالنسبة إلى طبقتها السياسية. وتأثرت اللغة الفرنسية بهذا المنحى، فأخذت تمتح من قاموس أميركي مالي

---

(14) Jean-François Revel: « Le cynisme est plus tolérant que le fanatisme, et l'intérêt plus accommodant que la croyance ».

(15) Denis Jeambar et Yves Roucaute: *Eloge de la trahison, De l'art de gouverner par le reniement*, Seuil, 1988.

أو في مجال التدبير.. أصبح أسلوب الطبقة السياسية الفرنسية، على غير المعتاد، مُسِفّاً مبتذلاً، بل أصبح قادتها يستعملون لغة بذيئة تعبِّر عن هذا الانزلاق. أما الطبقة الوسطى فقد ظلت، قبل أن تستفحل الأزمة، في وضع الترقب. ظلَّ مجال استفادة الطبقة الوسطى محدوداً. وتعرضت في مناحي أخرى للاهتزاز...

وتبقى الطبقة الوسطى بؤرة التمرد ضدّ زيغ الرأسمالية المالية أو الليبرالية الجديدة.. قد تؤثر في الوضع العام الاجتماعي والسياسي إن هي أخذت على عاتقها التعبير عن هموم الطبقات الشعبية ومآسيها.. وعي الطبقات الشعبية بذاتها لا يجعلها بالضرورة قادرة على الوعي من أجل ذاتها، وهو الدور الذي تستطيع الطبقة الوسطى أن تضطلع به. ومن باب أولى في الدول الثالثية المرتبطة بالعولمة... لا تزال شرائح منها مرتبطة بالسلطات الحاكمة وتحوم حول سلطة الرأسمال، ولكن لا شيء يمنع أن تغيّر ولاءها فتنأى عن الطبقات الحاكمة وترتبط بالجماهير. لا يكفي أن تعبِّر عن وعيها، بل عليها أن تترسّم السبيل، في عالم بلا معالم ولا بوصلة. وتلك مسؤولية المثقف.

الفصل الثالث

العلم والعلموية

في روايته الرائعة ذات البُعد الفلسفي، يصور ألدوس هكسلي، الذي أتى إلى عالم الأدب من أرضية العلوم، ما أسماه بـ *Brave New World*. عالم يديره العلم، يضبط خلجاته ويكبح أهواءه.. الناس موزعون بين شريحة ألفا، وهي الفئة المميزة التي برئت من الدين ومن الحب ومن هلوسات العالم القديم ولغته وأساطيره، تغالب إغراءها إن استبدَّ بها منظر جميل، أو راق لها منظر بهيج أو وجه صبوح بحبة سوما (Soma) فتذود عنها نوازع ماضٍ عفَّت عليه عجلة تقدم الإنسانية، ولا يليق بفصيلة ألفا. ثم هناك فصيلة أوميغا، وهم تابعون لفصيلة ألفا، وخدم لهم، ولكنهم يشاركونهم تميزهم ببرئهم من أوصاب العالم القديم، وأهوائه وهواجسه، فلا حبَّ ولا ميتافيزيقا.. وأخيراً هناك الذين لا يُعتد بهم، وإن يكونوا السواد الأعظم، من فصيلة إبسيلون. هؤلاء «همج» لا يزالون يحبّون فيتزاوجون، ولا يزالون يتشبّثون بالدين فيؤمنون... يعيشون في أحياء هي أشبه ما تكون بحظائر... في عالم إبسيلون سوف تقع المعجزة، سوف يتمُّ اكتشاف «متوحِّش» يعيش في الأدغال، لا يزال يتكلم اللغة القديمة، بحمولتها الشعرية، وإيحاءاتها الثقافية. ما زال

يحب، ولا يزال يَرِقّ لحال أمه المريضة ويتأثر لمنظر غروب الشمس، ولا يزال ينشد شعر شكسبير ويتلوه على السليقة، وتداخل ذهنه تصورات حول معنى الحياة وتسأل حول المآل.. هو ذا «المتوحِّش» الذي لا يزال يختزن ذاكرة إنسان العالم القديم. هو ذا الذي لا يزال مؤتمناً على إنسانية الإنسان.

كان ذلك في الأربعينيات من القرن الماضي، وكانت هذه الرواية صرخة من عالِم أهمَّه زيغ العلم، وقد رأى أن العلم أفضى بالإنسان إلى امتلاك القنبلة الذرية، وأنه لم يتورع عن استعمالها في هيروشيما وناغازاكي.. إلى أين يقود العلم؟ هو أهم تجلي للعقل، ولكن ألا يكبو العقل، ألا يزِلّ؟

العقل أداة تحرُّر

العقل في الحضارة الغربية ركن ركين.. منذ الحضارة الإغريقية. قامت حضارات سابقة، واعتمدت العقل في بعض نتاجها، ولكنها لم تجعله دعامة لها وقيمة من قيمها. لم تكن الحضارة المصرية القديمة ولا البابلية لتقوما من دون عقل يكون أداة للتقنيات التي تَوَصَّل إليها الإنسان آنذاك. ولا كانت الحضارة الصينية ولا الهندية ولا الساسانية أن تبلغ ما بلغت من دون عقل.. ولكن العقل لم يكن قيمة لدى كل هذه الحضارات.. كان دوره يتوارى حيث تقوم الأسطورة، وكانت الأسطورة هي أداة قراءة العالم (Cosmogonie). لم تشذَّ الحضارة الإغريقية في بداية أمرها عن هذا المنحى. كانت **الإلياذة والأوديسة** تمتح من الأسطورة لتفكّ خبل العالم، ونزق الآلهة، وَمهامِه الإنسان، وغمار الحروب وشؤون

الحب.. ولكن السفسطائيين بنقاشاتهم وجدلهم كانوا يرسون نواة العقلانية الهيلينية التي بلغت أوجها مع سقراط. يمثّل سقراط القطيعة مع الأسطورة. القطيعة مع نزق كبير آلهة الإغريق زيوس أو مع الآلهة.. حلّت القاعدة (Nomos) محل مشيئة الآلهة وأهوائها ونزقها، بل حلّت القوالب (Les catégories) محل الآلهة.. لم يعد الحديث عن إله الحب، وإله الحرب، أصبح الحب والحرب، كما الحرارة والبرودة، قوالب غير مرتبطة بإله ولا بمشيئته ونزقه. وبموازاة تحرُّر الإنسان الميتافيزيقي، تحرَّر كذلك من السلطة المطلقة (Kratos) التي تقوم على الخنوع وحلت محلها الديمقراطية. الديمقراطية هي تطبيق للعقلانية على مستوى المدينة. فالعقلانية تَستخلص من خلال العقل القواعدَ التي تتحكم في الطبيعة، وكذلك الديمقراطية هي تمرين من أجل استخلاص القواعد التي تتحكم في شؤون المدينة.. الحرية في مقابل الميتافيزيقا. والحرية لا تتأتى إلا من خلال العمل. هذه الحرية التي حدّت من سلطة الآلهة توازيها الحرية بداخل المدينة التي تحدُّ من سلطة الحاكم المطلق.. لا يمكن في سياق التجربة الإغريقية أن يُفصل العقل عن قاعدة عامة (نوموس) ولا الحرية.. هذه القيم المتداخلة، عقل وقانون وحرية، هي ما لم يتأتَّ للحضارات الأخرى، وهو ما يُرسي الخصوصية الإغريقية.. كان العقل في مصر الفرعونية أو في الصين يتوارى أمام السلطة المطلقة للحاكم. لم يكن العقل يؤدي إلى الحرية. كان أداة تقنية لا غير..

ومن نتائج العقل، في التجربة الإغريقية، مساءلة كل شيء. حوارات سقراط تُنبئ أن العقل الإغريقي عقل نقدي لا يلتئم

والحقائق المطلقة.. الحقائق المسلَّمة تتهاوى شيئاً فشيئاً أمام مِعوَل نقد سقراط..

ومع ذلك لم يمحُ عالم الإغريق الأسطورة.. كانت الغلبة لـ Logos، ولكنها غلبة لم تمحِ الأسطورة (Mythos) مطلقاً.. ظلّت تتعايش مع العقل وأصبحت خادمة له عوض أن تكون سيدة كما في الحضارات الأخرى السابقة... من الضروري أن نُذكِّر بذلك، لأن هذا التعايُش هو ما ميَّز الحضارة الغربية حتى عهود قريبة، كما أن الحضارات التي تأثرت بالتراث الإغريقي (ومنها الحضارة الإسلامية) لم تضرب صفحاً عن تراثها العقدي وقيمها وسعت أن توفِّق بينهما.

وحيثما سادت الفلسفة الإغريقية في حوض البحر الأبيض المتوسط التأمت والثقافات الأخرى ومرجعياتها الميتافيزيقية. أو بتعبير آخر، سعى أبناء كل من اليهودية، فيما عُرف بمدرسة الإسكندرية، أن يُوفِّقوا بين تراث العهد القديم والنزوع العقلي للحضارة الإغريقية، وكذا فعل متنوِّرو المسيحية الذين وفَّقوا بين التراث الإغريقي والتراث اليهودي المسيحي، وانتهى كثير من فلاسفة الديانتَين إلى أن ما تقول به النبوءة أو الوحي يمكن أن يفضي إليه العقل من خلال الدرس والتأمل..

ولم يشذّ الإسلام عن هذا المنحى، إذ سعى بنوه منذ فجر الإسلام إلى التوفيق بين العقل والنقل، إلى رصد الاتصال بين الحكمة (الفلسفة) والشريعة (الدين) بتعبير ابن رشد.. لم تكن العقلانية الإغريقية، بتعبير واحد من كبار المختصّين في تاريخ الحضارة الإسلامية آلان دي ليبيرا، فيما أسدته هذه الحضارة للغرب، عقلانية متسلِّطة (Une tyrannique rationalité) بل كانت

تمرُّداً على التوافق أو المتواضع حوله (Une subversion du consensus)[1].

لم تكن الاتجاهات العقلانية في الحضارة الإغريقية ومن تأثَّر بها تمارين ذهنية، بل كانت تخفي توجهات سياسية وتصوراً لعلاقة الحاكم والمحكوم، وهو ما فطن إليه الحكّام، ولذلك جعل الخليفة العباسي المتوكل، بعد عرضية الخليفة العقلاني المأمون، وَكْدَه تتبُّع جيوب المعتزلة والقضاء عليهم.. العقلانية في كل من اجتهادات رجال الدين اليهود أو المسيحيين أو المسلمين كانت تعبيراً عن تحرير الإنسان.

لم يكن لهذا التلاقح أن يتمَّ بين التراث الإغريقي وعقيدة التوحيد لولا قواسم مشتركة. فقَوام الغرب الفكري لم ينفصل قط عن عمقه الديني إلا بأخِرَة. لم تكن العلاقة مبتورة بين فلسفة الأنوار والدين. كانا يصدران من منظومتين مختلفتين في منطلقهما، ولكنهما متكاملتين في غايتهما. وظهر مفهوم جديد للدين في التجربة الفرنسية لا علاقة له بما كانت تبثّه الكنيسة من التمسك بالدوغم (المتن العقدي) وبحرفية الطقوس، يمثله فولتير. لقد فشا في اللغة الفرنسية تعبير فولتيري (Voltairien) للتدليل على كل مناهض للدين، بيد أن فولتير لم يكن مناوئاً للدين، ولا كان، والحالة هذه، فولتيرياً. لقد حدَّد موقفه بوضوح في كتيّبه حول التسامح، جرّاء الحكم الجائر بالشنق الذي حكمت به الكنيسة على المدعو جان كالاس، لتظهر

---

(1) Alain de Libera: « Le don de l'Islam à l'Occident », in C. David et J.-Ph. de Tonnac, éd., *L'Occident en quête de sens*, Maisonneuve et Larose, 1996.

فيما بعد براءته. أنهى فولتير كتابه بنداء وابتهال إلى الله، الذي لا يحتاج إلى لغة ما للتوسل إليه ولا لطقوس معيّنة لعبادته، فهو كل شيء وهو في كل شيء، هو ما يُسمّى بـ Déiste وقد يطابق مفهوم وحدة الوجود كما عند متصوفة الإسلام. ويعطي جون لوك لهذا التوجه فهمه الخاص المطابق لفلسفة الأنوار، فالله يتوجه إلى أشخاص عقلانيين، وأن مشيئته مطابقة لعقلهم.

كان التعاطي الجديد مع الدين إحدى حلقات فلسفة الأنوار.. أكرِّر ذلك لأن الأنوار لم تكن إجهازاً على الدين، بل على فهم معيّن للدين..

بهذا المنحى كان الدين المَعين الحضاري، والضابط الأخلاقي الذي يحدُّ من غُلُواء العقل.

يوضح هذا المنحى بشكل جليّ الفيلسوف الأميركي توماس بين في القرن الثامن عشر في كتابه الكلاسيكي **عصر العقل** (*The Age of Reason*) حيث ينتفض ضدّ كل المؤسسات الدينية التي تحجب الله. ومؤدّى طرح توماس بيّن أن عهد العقل لن يتحقق إلا إذا تحرر من طوق الكنيسة أو هيمنة كل مؤسسة دينية، بل يذهب أبعد فيما أصبح إحدى سمات الغرب، بفصل الدين عن الدولة[2].

نشأت بموازاة فلسفة الأنوار اتجاهات راديكالية سوف تجدُ تطبيقاتها السياسية والمجتمعية في القرن العشرين، منها الاتجاه العدَمي الذي يرمز إليه نيتشه. فلسفة نيتشه تُقِيم بناء يتجاوز التقسيم بين الخير والشر، من أجل عالم أسمى من الخير والشر يقيمه

---

(2) Thomas Paine: *The Age of Reason*.

الإنسان الأعلى الذي هو غاية ذاته. . يجهز البناء النيتشوي على كل من إنسان التراث اليهودي المسيحي وكذا الإغريقي. . كان مشروع نيتشه يحمل إرهاصات الأيديولوجيا النازية التي ستوظِّف العلم لفائدة أيديولوجيتها. في ذات الاتجاه كان ماركيز دو ساد يغذّي اتجاهات اللذة والتحرر الجنسي. كان نزوعه الإباحي يقوم على قاعدة إلحادية.

في سياق آخر، وكردِّ فعل ضدّ مظالم البورجوازية واستغلالها للطبقة العاملة، ظهرت الماركسية. كانت تريد تحرير الإنسان من كل أشكال الاستغلال ومن الغطاء الأيديولوجي المبرِّر للاستغلال، وفي هذا المنظور لم يعد الدين، وفق التحليل المادي لماركس الذي كان يمتح من القراءة المادية لفيورباخ، إلا بنية فوقية، وأصبح الدين وفق تعبير الشاعر هاينرش هاينه الذي أخذ عنه ماركس تعبيره، زفرة عالَم بلا معنى وأفيوناً للشعوب. . انهار التوازن الذي كان يشيعه الدين باعتباره مَعيناً يحدُّ من غلواء العلم.

زيغ العقل

بيد أن التحول الذي فصل بين العلم والمعتقد وأعطى للنزوع المادي سنداً علمياً أتى من نتائج نظرية داروين التطورية. العالَم وفق داروين نتاج سيرورة مادية تطورية، وليس من ثمة للإنسان من وضع اعتباري. صحيح أن داروين كان يميز بين عالم العِلم وعالم المعتقد، ولم يكن ليلقي بالطفل مع ماء الحمَّام كما يقول المثل الفرنسي مثلما ذهب شارحوه، ولكنه أول من أرسى نواة انسلاخ العلم عن كل غائية أخلاقية أو حضارية ليصبح غاية لذاته أو ما

يُسمّى بالنزوع العلمي أو العلموية. وبقدر ما انزوى الدين، بقدر ما غشي العلم كل أوجه الحياة، بلا حدود ولا موانع ولا تابوهات. أضحى أيديولوجيا ترفض أي نظرة غير نظرتها...

هل كان لهذا الانسياب المعرفي والأيديولوجي ألا ينعكس على الأخلاق وعلى ماهية الإنسان؟

كان المتن الفلسفي للاتجاه المادي كما بلوره نيتشه يرى أن للأخلاق في الجينيالوجيا (علم الأنساب) التي أقامها أسباباً فيزيولوجية يتوجَّب على العلم أن يكشفها، وأن كل تراكمات التاريخ وكل الإثنولوجيات تتستر وراء أسباب فيزيولوجية سيكشف عنها بعد قرن العالم السوسيو إحيائي إدوارد ويلسون باعتبارها نتيجة انتقاء طبيعية، «فكل الردود العاطفية للإنسان، وكل الممارسات الأخلاقية التي ترتكز عليها تَمَّتْ برمجتها لآلاف الأجيال عن طريق انتقاء طبيعي»[3]. أما الإنسان كما أسلفنا، وفق هذا المنظور، فليس له أي وضع اعتباري، ولا شيء يميزه عن باقي الكائنات حيوانية أو نباتية، وهو ما يعبِّر عنه العالم جيمس واتسون، وهو من اكتشف في الستينيات من القرن العشرين الحمض النووي (DNA)، من أن مصدر هذا التفكير الخاطئ هو الأديان، ولم يعد لهذا التفكير ما يبرره.

لسوف نرى نتائج هذا المنحى الذي يحيل الإنسان إلى شيء أو حيوان أو مجموعة أعضاء، وينظر إلى العلاقات الاجتماعية كبرمجة بيولوجية.. لا يمكن أن نرى في هذا الجنوح إحدى شطحات العقل

---

(3) Jean-Claude Guillebaud: *Le principe d'humanité*, Seuil, 2001, p. 48.

وحده دونما ارتباط بأسباب أعمق ترتبط بالأساس بهيمنة الرأسمالية. فالعلموية وسيادة الرأسمال صنوان لجذع مشترك، وكلاهما لا يمكن أن يُفصلا عن الثورة المعلوماتية. وهذا التداخل بين العلموية وبين السوق والثورة الرقمية هو ما يفضي إلى تحول غير مسبوق يتهدّد إنسانية الإنسان. لا عيب في العلم ولا ضير فيه، ولكنه يضحي خطراً حينما يتحكم فيه السوق، أو مثلما عبَّر عنه واحد من المشرّعين الأميركيين: «لا عيب في أننا اكتشفنا الشجرة -شجرة المعرفة- ولكننا أسلمناها إلى وول ستريت وهنا موطن الخطورة». هل كان الإنسان يستطيع أن يملك الطبيعة ويتحكم فيها كما نادى بذلك ديكارت من دون العلم؟ هل كان يستطيع أن يفكَّ خبلها ويكشف أسرارها من دون العلم؟ بل هل كان يستطيع أن يهدم الميتافيزيقا، أو على الأقل أن ينسف أجوبتها، من غير العلم؟ تلك فتوحات العلم التي ذللت الطبيعة وحدّت من بطشها وهزمت فلول المرض والفقر والخرافة. ولكن العلم عاجز أن يأتي ببدائل.. ينسف الأُسُس الميتافيزيقية للمجتمعات ويتركها بلا أساس.. ليس المسألة مضاربة ذهنية أو حذلقة فلسفية، لأن ما يتهدد الإنسان في نهاية المطاف إنسانيته. هل يقبل الإنسان أن يقطع الفرع الذي يستوي عليه؟ هل يقبل أن يوجِّه حراب العقل للقضاء على ذاته؟ الإنسان على عتبة أفق مخيف تنتسج خيوطه في مختبرات الغرب والمجالس الإدارية للرأسماليين للإجهاز على إنسانيته. ليس لدينا أدوات ولا وسائل لرصد هذا التطور إلا ما نعاين من أعراض، أو ما ينفلت من كتابات تجأر ضدّ هذا الزيغ من حمّى الغرب ذاته. هل نحن على مشارف ما بعد الإنسانية التي يقودنا إليها العلم الجموح؟ هذا الذي

يسمّيه المختصون عهد الإحياء الحجري (Biolithique)، هذا المزج بين علم الأحياء والمادة. بيولوجية جديدة، تستنسخ، وتعبث، في أفق غير مُحكم ولا مضبوط. حينما تمَّ استنساخ النعجة دولي في مختبرات إنجلترا كتبت صحيفة ألمانية تُدرج هذا الفتح في سلسلة حلقات من فتوحات الغرب قائلة: «لقد طرد كوبرنيكوس الإنسانَ من قلب الكون، وداروين من الطبيعة، ويتأهّب الخلقُ الذاتي لطرد الإنسان من ذاته».

أفق مخيف هذا الفتح وهذا الإنجاز!

علم الجينات يهدم أي فيصل بين الإنسان والحيوان، وعلم المعرفة يحيل دماغ الإنسان إلى حاسوب، ومن الحاسوب يقيم ذكاءً اصطناعياً، ومن عقله يجعل آلة. ثم ماذا بعد ذلك؟ الفيزيائية التجزيئية التي تجعل الإنسان استمرارية للمادة!

هل يمكن أن يُختزل الإنسان في بُعده الحيواني وحده؟ لا جدال أن الإنسان بيولوجيا حيوان، وأن وظائفه لا تختلف عن وظائف باقي الحيوانات، وأن له قرابة مع حيوانات معيّنة، ولكن علم الإحياء يذهب أبعد من هذه الخلاصات المسلَّم بها والتي لم يعد ينفر منها رجال الدين، لا في الفاتيكان ولا حتى في الأزهر، ولو من خلال فذلكات ذهنية... ينزل حكم الإحيائي الفرنسي وحائز جائزة نوبل جاك مونو كمِقصلة حين يقول إن ما بين البكتيريا والإنسان، نفسُ الآلية الكيميائية من حيث بنيتها ووظائفها. علم المعرفة (Les sciences cognitives) يذهب أبعد حينما يُشرِّح دماغ الحيوان ويقارنه مع دماغ الإنسان، فهي نفس خلايا الدماغ، ومن نفس الطبيعة إلا أنها أعقد. لا حاجز اليوم بين الإنسان والحيوان. وبقدر

ما يصبح الإنسان حيواناً بقدر ما يصير الحيوان إنساناً! ينزل الإنسان من عليائه، ويرقى الحيوان الذي تصبح له حقوق. وهي حقوق سلبها الإنسان! وهو مدار ما يُسمّى بالإيكولوجية العميقة (Deep ecology)، وهي نوع من النضال ضدّ استفراد الإنسان بالحقوق الطبيعية وأنانيته، من أجل إقرار مساواة مع باقي المكونات الأخرى الطبيعية سواء أكانت حيوانية أو نباتية أو معدنية. نعم هناك مجالات تعاون بين الإنسان والحيوان مثلما أثبت علم الجينات من خلال زرع أعضاء بعض الحيوانات في الإنسان. وهكذا يمّحي الفيصل بين الإنسان والحيوان. وطبعاً مع كل النتائج الأخلاقية والفلسفية التي يمكن أن نتصورها من هذا الطرح...

أما علوم المعرفة فهي في تشريحها للدماغ تجعل منه آلة، آلة لا تختلف عن أي حاسوب، تتميز وإياه ببنية ككل حاسوب، Hardware وبوظيفة Software. ما الدماغ؟ آلة، لا تختلف عن أي حاسوب، ببرمجة دقيقة.. ولكن آلة. ما الروح؟ ما الضمير؟ أضغاث أحلام.. ألا يتعايش الإنسان مع الآلة التي غشيت جسده لتقوم بوظائف لم تعد أعضاؤه قادرة عليها: آلة نبض القلب (Pacemaker)، قوقعة الأذن (Implant cochléaire). أوَليس يُهَيَّئ الأطفال من خلال الألعاب التي يُزجون بها أوقاتهم في العالم المتقدم وفي الشرائح الميسورة من العالم الثالث، إلى عالم الآلة، إلى عالم الخيال الذي يقوم بديلاً عن الحقيقة.. في ألعاب نينتندو حيث يجري الأطفال مباريات في كل الألعاب الجماعية صورياً على شاشة صغيرة، وتحنو الفتيات على لعبة يابانية تماغوتشي تقوم مقام الطفل، تبكي وترغي وتطلب الغذاء، في كل ألعاب الثورة الرقمية؟

وهكذا يلتئم الأطفال، من خلال التنشئة، مع الآلة، ليتعايشوا معها... تقوم علوم التربية على ما يمكن أن نترجمه بالتنشئة الاجتماعية (Socialisation) حيث يلتئم الأطفال ومحيطهم ويتعايشون مع أترابهم. أما اليوم فعملية التنشئة الاجتماعية تتم مع الآلة، وطبعاً على حساب شيء أساسي، إنسانية الإنسان.. فحيثما تسود الآلة ينزل الإنسان من سؤدده. تصوروا حروب اليوم؟ ألعاب إلكترونية ببرمجة دقيقة وقنابل «ذكية». لا شيء مما قد يثير الضمير أو يَستدرّ الأسى، في قاعة مكيفة وأمام شاشة لا تختلف عن شاشة أي كمبيوتر ولا عن أي لعبة يلعبها الصغار والفتيان. وفجأة يتناثر شواظ من شُهب، بلا فرقعة ولا أنين، وينبعث من الشاشة إشارة عن أن المهمة اكتملت (Mission accomplished)... بعيداً.. في عامرية بغداد، أو جبال تورا بورا بأفغانستان.. ويُغلق الشخص المشرف على العملية البرنامج (Application)، وينادي على زوجته وأولاده ليخرجوا للعشاء في مطعم للترويح عن النفس.. لا شيء عن دماء الضحايا وأشلائهم... في أحسن الأحوال يتحولون إلى أرقام.. وحينما يقع خطأ ويُعترف بأنه تمَّ قصف مدنيين كانوا يقيمون حفل زفاف في قرى أفغانستان يتم تعويضهم بدولارات معدودة. مئة دولار للضحية.

مخيف غزو الآلة للإنسان..

تُصوِّر الأسطورة الإغريقية هذا المنحى في قصة بجماليون التي نقلها ببراعة الكاتب المصري توفيق الحكيم. يصوغ النحّات بجماليون نصب كالاتيا ويهيم حبّاً به ويستجدي الآلهة أن تنفث الروح في صنيعه، وما أن تسري الحياة في التمثال البارد الجامد ويستوي خلْقاً

حتى يسأمه بجماليون فيريده نصْباً، ثم يعاوده الحنين إلى صورة كالاتيا تسري فيها الحياة، ولكن كالاتيا انفصلت عنه كما انفصلت المادة عن الإنسان. أسوق هذا الحديث الذي عبَّر عنه توفيق الحكيم في هذا السجال بين الإنسان وصنيعته حين تنتفض هذه ضدّه:

«كالاتيا: (...) إني لست من عملك الخالص كما ذكرت.. إنك تنظر إلي وفمك يرميني في كل لحظة بهذه العبارة القاسية: يا للبشاعة، يا للجريمة لقد تَشوَّه عملي.. أتحسب أطيق قولك هذا طويلاً؟

بجماليون: لا تبكي يا كالاتيا.. ألم أقل لك إني لست ناقماً عليك أنت.

كالاتيا: بل إنك ناقم عليّ.. بل إن كل يوم يمضي تتسع معه الهوة بينك وبيني.. إن وجودي معك لن يفتر يذكرك بأثرك الضائع وفنّك المفقود.. بجماليون يجب أن نفترق.

بجماليون: نفترق؟

كالاتيا: منذ الآن، هذا خير لي ولك»[4].

ومع ذلك لا يستكين بجماليون لنزق الآلهة، يطلب منها أن تعيد له صنيعه.. لقد أدرك خطورة الأمر حينما نأتْ عنه كالاتيا هذه التي صنعها بأنامله لحظة لحظة واستوت قبلها فكرة في ذهنه، وهو يُقدم في لحظة غضب، أو وعي، على هدم تمثال كالاتيا..

إنسان ما بعد الحداثة استكان لجبروت صنيعه، للآلة، ويرفض صحوة الضمير وانبجاس الوعي الذي حرّكَ بجماليون..

---

(4) توفيق الحكيم، **بجماليون**.

وهل تستطيع الآلة أن تكون صاحبة مبادرة، أو أن تكون ذات مسؤولية؟ هل يمكن أن يُفصل ذكاء الإنسان عن عواطفه.. وهذا ما يشرحه لنا العلم[5].

عبث أن يُحال دماغ الإنسان إلى آلة. وجريمة أن يصبح الإنسان مادة تباع وتشترى. تتبجح أدبيات الغرب الحقوقية باستئصال العبودية وبحقوق الإنسان، ومع ذلك لم يعرف الإنسان تشييئاً كما عرفه مع سلطة المال والسوق.. لن نحيل إلى كتابات هربرت ماركيوز العسيرة، الفيلسوف الأميركي ذي الاتجاه الماركسي الفرويدي، عن الإنسان الأحادي البُعد، ولكن إلى ما يطفح به واقع اليوم من بيع وشراء للأشخاص، بل بيع لأعضائهم من خلال شبكات متخصِّصة تنزع أعضاء الفقراء الذين تعميهم الحاجة لبيعها للأغنياء، أو تُنزع منهم قسراً.. ناهيك عن سوق النِّخاسة الجديد، سوق الدعارة، في زيغ يجهز على إنسانية الإنسان.. كل ذلك في خرق صارخ للعمق اليهودي والمسيحي الذي جعل الإنسان على صورة الله، وكل ذلك في جَنَف واضح لفلسفة الأنوار ولنداء كانط، في قوالبه، حول ضرورة جعل إنسانية الإنسان غاية وليس وسيلة، ومنافٍ لدعوة ماركس الذي وقف على استغلال الإنسان من قِبل الآلة الصناعية، من خلال تحكّم الطبقات المستغلة في أدوات الإنتاج... لم تصمد كل هذه الدعاوى الدينية ولا الفلسفية وحتى الأيديولوجية أمام زحف

---

(5) «Etre rationnel ce n'est pas se couper de ses émotions. Le cerveau qui pense, qui calcule, qui décide n'est pas autre chose que celui qui rit, qui pleure, qui aime, qui éprouve du plaisir et du déplaisir. Le cœur a ses raisons que la raison est loin d'ignorer». In Antonio Damasio: *L'erreur de Descartes*, p. 97.

السوق الذي شيّء الإنسان باسم مبادئ نبيلة، باسم الحرية، وباسم تحرر الجسد... مبادئ لم تكن في العمق إلا ذرّاً للرماد في العيون.

كان لزاماً أن تتغير طبيعة الطب وفق هذا الجنوح. لا علاقة في ممارسة هذه المهنة لقَسَم أبقراط من أجل التخفيف من معاناة الإنسان بغضّ النظر عن جنسه ودينه... ولا علاقة له كما في الحضارة الإسلامية حيث كان الطبيب يُنعت بالحكيم. نعم، لا يُسأل المريض عن جنسه ودينه، ولكن يُسأل عن ذمته المالية.. لم يعد الطب حُنوّاً على المريض وإصاخة له، ولكن عملية ميكانيكية محضة تنصرف بالأساس إلى عضو أو أعضاء من أجل إصلاحها، كما قد يفعل ميكانيكي السيارة.. ويتوارى المريض وراء أعضائه أو عضوه المريض.. المريض ليس إلا رقماً على سرير، أو رقم ملف تغطيته الصحية، إن كانت له تغطية صحية.

الطب عملية ميكانيكية ومالية بالأساس. نعم هناك مخلفات ممن لا يزالون يَحِنُّون إلى فلسفة الطب، في بُعدها الإنساني، إلى طبيعتها المتجردة، في الغرب وفي غيره، بل هم من يملأ صفوف المعارضة ويشيعون صحوة الضمير. وهل يَقْوَوْن على شيء أمام زيغ الطب وتحول معناه؟ يُنظر إليهم أحياناً كهامشيين يغرّدون خارج السرب وقد يُرْمون بكل المثالب.

هل يتجاوز الإنسان الحدود فيعمد إلى استنساخ نفسه؟ لقد نجح مع النبات وكذا مع الحيوان. هل يخطو الخطوة ليستنسخ نفسه؟ لا تزال المجالس الأخلاقية والمؤسسات الدينية تنتصب ضدّ هذا الإغراء.. حتّام؟ حتّام، ليكسر الإنسان سلسلة الأنساب فيصبح

الإنسان أب نفسه وأخاها وابنها، بشكل أبشع مما يحدثه زنا المحارم. أفلا يضع الإنسان نُصْب عينيه الاختلالات النفسية التي يحدثها كسر سلسلة الأنساب، أعني عدم الارتباط بأب بيولوجياً وعاطفياً. لم تَسلم دول العالم الثالث، التي ارتبطت بمظاهر التحديث المادي الغربي، من اختلالات اجتماعية ناتجة عن اختلالات نفسية. لقد أصيب الرأي العام المغربي بالذهول لحالة وقعت بمكناس صيف 2009 لفتى في وضع مُخلّ للآداب مع أخته التي كانت تمتهن الدعارة، وحينما رفضت تلبية رغباته أرداها قتيلة، وما كان من أمه إلا أن قتلته، وقطعت أطراف بنتها وولدها إرباً إرباً وحملتها في حقائب سفر وألقت به في أماكن مختلفة من مسار القطار.. الجسم الاجتماعي مريض في الغرب، وفي المجتمعات التي ترتبط بالغرب، ينخره الإجرام والعنف وحمّى الجنس والأمراض النفسية المتعدِّدة. ألهذا يقودنا عقل جموح وغرائز طائشة بلا ضوابط؟

إننا أمام ما يسميه الحقوقي بيير ليجندري بالنفسية الدوابية (La psychologie bétaillère). لا يمكن أن يُختزل الإنسان في بعده المادي، ولا في جسده وحده. هناك شيء آخر لا يستطيع العلم أن يحيط به، يقرُّ بذلك حتى فلاسفة وجوديون أمثال موريس ميرلو بونتي الذي يذهب إلى أن تبنّي المقاربة الاختزالية لجسم الإنسان يفكّك بنية الإنسان بنحو عميق، دون أن يأتي بطائل[6].

إذا لم يقبل الإنسان بحدود لمجال تدخُّله، فإنه يحوم حول ذاته

(6) In Guillebaud: *Le principe d'humanité*, op. cit., p. 136.

ليُجهز عليها، حول الحبل الذي يمسكها، إنسانيته، وإذا تجاوز تلك الحدود -وهو يتجاوزها- فإنه يُجهز على إنسانيته، وماذا يبقى منه إذا ذهبت إنسانيته، أو هذا البعد المطلق كما يسميه كانط. . ما مآل الإنسان في هذا كله مثلما يصيح طبيب فرنسي وعالم جينات أكسيل كاهن، أمام التكنولوجيا الإحيائية، والاستنساخ، والتجارب حول الإنسان[7]؟ هل هناك مجال لإنسية عصرية تحمي الإنسان من ذاته، من إنجازاته، من فتوحات عقله الذي أضحى بلا ضابط ولا يأتمر إلا للسوق وشطحاته؟ أيقبل الإنسان أن يُهزم من انتصاراته؟ أينتهي الإنسان كما تنبّأ الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو أمام نزوع العلم المُفرَط، فيما يمكن أن نسميه بالمنتهى الأصغر: في بنيته الجينية، في الكيمياء التجزيئية، في تركيبة الخلايا؛ وبالمنتهى الأكبر: عالَم الثورة الرقمية، والشبكة، حيث يذوي الفرد لصالح إنسان صوري اعتباري، ليس أنا ولا أنت، ولكن (س) الرياضيات؟

لا إنسانية للإنسان بلا حدود، وتجاوزها إجهاز عليها. هو عقد وجودي، على غرار العقد الاجتماعي، يتنازل فيه الإنسان عن جموح العقل من أجل الإبقاء على وجود الإنسان، وغايته في الوجود.

---

(7) Axel Kahn: *Et l'Homme dans tout ça ?*, Nil, 2000.

الفصل الرابع

هل حررت الثورة الجنسية الإنسان؟

ما الإنسان العصري أو الحداثي بلغة اليوم؟ إنه بحسب ألبير كامو في روايته **الهاوية** من يستطيع أن يُجامع ومن يقرأ الصحف.. مدار الحداثة في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية هو التحرر الجنسي خارج كل القوالب وضدّ كل الموانع، وهي الوعي الزائف الذي تشيعه قراءة الصحف.. لا يُدرى في تصوير هذا الكاتب أهو كاريكاتور أو معاينة أو إقرار بحقيقة؟

ليس الجنس في الحضارة الغربية شيئاً ثانوياً، بل هو أُسّ ثورته وعماد تميُّزه، ولا يمكن أن يُفصل عن ثورة تحرير العقل.. بل لا يمكن فصل تحرر العقل من دون تحرر الجسد.. فبقدر ما عانى العقل من حِجر الكنسية بقدر ما عانى الجسد من وصايتها وموانعها.. لذلك تبدو الثورة الجنسية إحدى قلاع الغرب الصلدة. يتجنّد ليحمي كل من يخترقها أو يتهددها فيتصدى باسم الحرية الفردية، وباسم المرجعية الفلسفية التي يوظِّفها من خلال قراءة أو إعادة قراءة للتراث الإغريقي[1]، وباسم السوق، وضدّ التابوهات

---

(1) Michel Onfray: *La puissance d'exister, Manifeste hédoniste*, Grasset, 2006.

المستقاة من الدين والتقاليد والاتجاهات المحافظة... كل الوسائل مبرَّرة من أجل الدفاع عن قلعة الجنس. وهي اللازمة التي تتكرر في كل موعد تاريخي ومنعرج حضاري. منذ النهضة، فالأنوار، فالثورة الصناعية، فالشيوعية، فما بعد الحرب العالمية الثانية ومجتمع الاستهلاك... ولذلك كانت انتفاضة الشباب في ربيع 68 في فرنسا، في جانب كبير منها، ثورة جنسية رفعت شعارات تروم هدم كل التابوهات وتحقيق اللذة من قبيل «الحق في المتعة» و«المتعة بلا حدود» و«يُمنع المنع» و«كلما مارست الحب، كلما أردت أن أقوم بالثورة» و«مارسوا الحب لا الحرب...» وهلُمَّ جرّاً..

كان ذلك هو النزع ما قبل الأخير لهذه الثورة التي ما فتئت أن تحوّلت إلى فوضى.

لم يتراجع المدّ التحرري في ما يخص الجنس بالغرب، ولكنه لم يعد الطريق المعبَّدة التي كان يُبشر بها ثوريو مجتمع الاستهلاك.. كما لو أنها نهاية طوباوية، كما انتهت الطوباوية الشيوعية، ولكن على خلاف هذه الأخيرة لم يَقُم الغرب بالجرد (L'inventaire) بعدُ. يعيش الغرب ومن يتحلق حوله هذه الفوضى دون أن يمسك بخيوطها. أليس الغرب صانع المُثُل ومحدِّد عناصر المرجعيات؟ لقد أضحى إنسان الغرب فيما يخص الجنس مأموراً يأتمر بتطور الأحداث التي لم يعد له يد فيها أو يتحكم بسبب تدخُّل فاعلين كُثر. لقد أضحى ما أريد له أن يكون: سمفونية عذبة للجسد والروح «كاكوفونيا» مزعجة... خرجَ المحافظون من مخادعهم، من متاريس الكنيسة وجيوب اليمين، يَدعون إلى جنس مقنن تحكمه الضوابط الأخلاقية والدينية، ويجأرون ضدّ الإجهاض وضدّ الواقي الذكري..

بل لم تتورع الكنيسة، من خلال أعلى سلطة فيها، عن الزجِّ بنفسها في حمى هذا السجال الذي أضحى الفيصل حول تصور المجتمع. ولم يضع المتحرِّرون السلاح لحماية القلعة المهددة. وبالوقت ذاته أصبح للمثليين موقع وصوت وصدى داخل الساحة العامة، بل في أروقة القرار. ولم تعد المثلية في الغرب تابوهاً أو مسكوتاً عنه. وكان هناك الجانب المستتر لما أريد أن يكون تحرراً. كان مرض الإيدز الانتكاسة الكبرى للمتحررين الذين دُفعوا أمام جحافل المحافظين الناهضة إلى موقف دفاعي. وتمَّ نشر غسيل الثورة الجنسية، وكان وسخاً قذراً، يطفح بالعنف ويثير التقزُّز ويتهدد المجتمعات.. أفاق الغرب على جموح الجنس وجنونه، من خلال حالات العنف المصاحبة له، من خلال التعرض للصغار، من خلال زنا المحارم.. اهتزَّ العالم على فظائع المجرم مارك دوترو في بلجيكا الذي كان يقتنص الصبايا ويغتصبهم ثم يقتلهم، وعلى حالة الأب الألماني الذي أخفى ابنته في قبو وأنجب منها ستة أولاد. هل كل هذه الحالات نتاج لجموح الثورة الجنسية أم أن الجديد في الأمر هو أن مجتمع الإعلام طرح على الملأ ما كان ضمن المسكوت؟ ومهما يكن من أمر، لا يمكن أن يُفصل هذا الزيغ عمّا يُسمّى بالثورة الجنسية في الغرب..

في حمأة هذه الفوضى أضحى السوق فاعلاً قوياً، له كلمته وله تصوره وفتوحاته. لقد أصبح الجنس سلعة يزاحم التصور القائم على أنه علاقة، علاقة عاطفية.. «بيزنس» متعدِّد المشارب، بل صناعة قائمة الذات استفادت من موجة العولمة لتكسر كل الحدود الترابية والأخلاقية والحضارية...

الجنس والمتن الفلسفي

لهذه الثورة الجنسية في الغرب بريقها، فهي أول ما يتراءى للمجتمعات الفقيرة في مرآة الغرب المنكسرة، وهي أول ما يتبادر في إرادة «التحرر والتغيير»، ولذلك كان الغرب، في ما يخص الجنس، النموذجَ، وبالوقت ذاته لم يُخْفِ رغبته «الإمبريالية» في إشاعة «فضائل» الثورة الجنسية في الدول المؤتمِرة بأمره، في الدول الفقيرة، الدافئة، حيث العجائبية، وحيث العَرض الوافر، وحيث تقلُّ وطأة الموانع، إن لم تكن الأخلاقية فعلى الأقل القانونية... أجل، فالثورة الجنسية في الغرب مُسيّجة بمتن -أو ترسانة- قانوني يتم تأويله بشكل صارم.. ما يحدث، أو يعتمل في الغرب، ينتهي إلى الأطراف، بسرعة، وبخاصة مع العولمة، بنقل جزء من «الصناعة الجنسية» إلى دول الجنوب عن طريق ما يُسمّى بتغيير المقرّ (Délocalisation). من الضروري أن نقف على مسار هذه الثورة وتداعياتها في مصادرها. ثم إنه لم يحدث في حضارة ما أن تعاملت مع الجنس كما يتعامل الغرب، فهو الموضوع بامتياز، وهو الذي يفصل بين الأطراف، وهو الذي حلَّ محل صراع الطبقات، حيث تصطدم الفِرق بقوة وعنف. كأن لا حديث للغرب، ولا همَّ له إلا هذا. ليس هناك حضارة بلغت ما بلغ الغرب من حيث الانتشاء بالنظر، وهو تعبير لا يفي بالغرض مما تعنيه الكلمة الفرنسية (Voyeurisme). في كل الحضارات، الصينية، الهندية، الإسلامية يُغلَّف الجنس بغلالة من حرمة، بل سياج من حياء. لا يعني ذلك أن هذه الحضارات لم تعرف الشبق ولا الشذوذ، ولكنها أقامت أسواراً عليه، ودسّته في مخادع، وفي تقنيات يتم تداولها تحت المعطف.

من تقنيات **كاماسوترا** الهندية، إلى المنشطات الصينية، وإلى ليالي **ألف ليلة وليلة**، وقصص **الروض العاطر**... كأنما يريد الغرب أن يثأر من كبح الكَنَسية وكبت الفلسفة الرواقية الثاوية في التراث الإغريقي، بفضح هذا المسكوت.

لهذه الثورة جذور أو أركيولوجيا. لها سند فكري وأيديولوجي.

لقد عرضنا في ثنايا هذا الكتاب ارتباط تحرُّر الإنسان الغربي بتحرُّر عقله، وأن تحرُّر عقله ارتبط بتحرُّر جسده. لا روح من دون جسد، بل الروح هي الجسد كما يقول نيتشه. عاشت أوروبا علاقاتها الحميمية ككل المجتمعات الإقطاعية، حيث هناك فيصل بين الأسياد الذين يستمتعون بملذات الحياة رغم الموانع، ويجدون الوسائل والمبررات للقفز عليها، وبين السواد الأعظم الذين تحكمهم أخلاق الكنيسة وموانعها.. وحينما أخذت فلسفة الأنوار تزحف رويداً رويداً، صبّت نظرها على نفاق رجال الدين والأسياد وأخذت تفضح سلوكاتهم الجنسية، كما فعل موليير في مسرحيته **تارتوف** الذي ينتقد فيها كذب رجال الدين وزيفهم وحب ظهورهم بمظهر الأتقياء وهم الماجنون. كما تصوِّر رواية بيير لاكلوس **الوشائج الخطرة** (*Les liaisons dangereuses*)، والتي انتقلت إلى شاشة السينما، علاقات جنسية متداخلة بين الأخلاء والخليلات ضداً على روابط الأسرة.

كانت هذه الثورة الناعمة. كان يَدْعمها في فكر رجال التنوير سلوكاتهم المتحرِّرة. ارتبط مفكِّرو الأنوار من فولتير إلى روسو بالخليلات. ومنهم من لم يتزوج قط. لم تكن حياتهم الخاصة بلا شبهة. كانت لفولتير بعد سلسة من المغامرات علاقة ببنت أخته وهو

شيخ عجوز في ضيعة فيرني على حدود سويسرا، وخلّف روسو خمسة أولاد من علاقة غير شرعية، ووضعهم في دار المتخلّى عنهم، هو الذي كتب عن التربية في كتابه المرجعي **إميل**.

ولكن الثورة القوية هي التي حملها نيتشه. ينتصب نيتشه ضدّ نموذج رجل الدين المسيحي الذي يكبت غرائزه ويقفز على جسده. يستعمل نيتشه صورة نبي من الشرق يجعله متكلّماً بفلسفته هو زرادشت، هو المتكلّم باسم الإنسان الأعلى الذي يَنْشده نيتشه. إنسان متحرِّر من الله ومن الكَنَسية ومن كل الموانع التي تقمع الجسد وتؤوِّد الروح.. بل له دعاء أو تهجُّد في كتابه **هكذا تكلم زرادشت** الذي كتبه بلغة دينية أقرب ما تكون إلى كتابات الكتاب المقدس، بعنوان «الذين يمقتون الجسد»، إليهم يوجِّه حرابه. فالجسد هو موطن العقل، وهو أسمى من كل حكمة، بل هل يحتاج العقل إلى حكمة؟ الذين يكرهون الجسد هم على طرفي نقيض من الحياة، ومن شؤون الأرض. «لن أسلك سبيلكم يا هؤلاء الذين يمقتون الجسد. طريقكم ليس بمعراج إلى الإنسان الأعلى»[2].

تحرير الجسد في عُرف نيتشه هو تحرير له من كل القيود، وعلى رأسها الدين. نموذج نيتشه متحرر من المنظومة الأخلاقية التي تستمدُّ أصولها من التراث اليهودي المسيحي، بل حتى من التراث الإغريقي. نحن في عمق العدمية، وفي حمى سادنها الأكبر. هناك ترابط بين تحرير الجسد وبين الانتفاض ضدّ الدين. لن تشذّ هذه القاعدة سواء أنحن انتقلنا من سياق القرن التاسع عشر إلى القرن الواحد والعشرين، أو تحولنا من المجتمعات الغربية إلى ضفة

---

(2) Friedrich Nietzsche: *Ainsi parlait Zarathoustra.*

الجنوب. بين الدين ودعاة تحرُّر الجسد حرب ضروس ذات أوار لا ينطفئ.. وحينما يودُّ المتحررون، وبخاصة في المجتمعات الإسلامية، أن يواجهوا الحركات الدينية يأتونها من باب الجنس.. لا جدال أن للجنس أو السجال حوله حمولة فكرية وأيديولوجية.

يريد نيتشه أن يجهز على الدين وعلى التراث المسيحي ليرتبط بالتراث البربري الوثني لألمانيا. يقول في فصل الظاهرة الدينية من كتاب **ما وراء الخير والشر**: «العقيدة المسيحية هي عقيدة تضحية بالأساس، تضحية بالحرية، وبالإباء وبثقة الذهن بذاته، وهي بذات الوقت خنوع وتحقير للذات وبتر لها»[3].

قد تليق المسيحية بالشعوب اللاتينية، ولكنها لا تلتئم وروح شعوب الشمال.. بعد قرن من الزمان سيقول هيتلر القول ذاته.. نفس الفكرة، ونفس التعبير ونفس الصورة.. ونعرف النتيجة.

في هذا المسار من ثورة الغرب على الجسد لا يمكن ألا نتوقف عند واحد من دعاة التحرر الكبار: الماركيز دو ساد الذي تمتح منه اللغات الغربية كلمة سادية والتي انتقلت إلى اللغات الشرقية ومنها العربية. تصوراته وأفكاره مزعجة وتنضح بالمروق والشذوذ، بيد أنها تستند إلى تصور معيّن للإنسان -في سياق الأنوار- أو زيغ الأنوار، وفي علاقته مع الطبيعة، ومع الميتافيزيقا أو في البُرْء منها. تحمل تصوراته دفق النتائج العلمية التي قدّمتها المدرسة التطورية التي أنزلت الإنسان من عليائه. ما الإنسان؟ حيوان. فَلِمَ يُحرم من أن يعيش حياته الجنسية بلا قيود ولا موانع؟ غاية الجنس ليست كما في التراث المسيحي اليهودي ضمان استمرارية النوع البشري، أو كما

---

(3) Friedrich Nietzsche: *Par-delà le bien et le mal.*

لدى كل الأديان، أو حتى عند التراث الإغريقي. غاية الجنس هي المتعة، بلا قيد ولا شرط. هي كسر الحرمان، وكل التابوهات..

في كتاب **الفلسفة في المخدع** استنتاجات مثيرة وتصوير بذيء يدعو إلى التقزز والنفور. لا يهمنا تلك المشاهد البذيئة المنفرة بقدر ما يهمنا سندها الفلسفي السياسي. يريد دو ساد القضاء على الخرافة وعلى سندها الدين، يريد أن يضربها ضربة لازب حتى لا تنبعث شجرتها. لا يريد أن يكتفي بالأغصان: «أنتم من يحمل المنجل باليد سدِّدوا الضربة الأخيرة لشجرة الخرافة، لا تكتفوا بتشذيب الأغصان، استأصلوا شجرة ذات مضاعفات مُعْدية».

من خلال هذا المنظور ينتفض دو ساد ضدّ البر والإحسان. إنه تحريف لما جُبلت عليه الطبيعة الإنسانية. ينبغي أن تُصرف العاطفة فيما ينبغي أن تصرف إليه: إشباع اللذة ولا شيء سوى ذلك. يقول على لسان سيدة من شخوص مسرحيته:

«إياك وأن تُضيعي هذا الجزء من العاطفة الذي جبلتنا عليه الطبيعة. لسوف نجهز عليه لو نحن عمدنا إلى تبديده. وما شأننا وآلام الآخرين، أفلا يكفيني ما أعانيه حتى أضيف أوصاب أناس غرباء عني. فلْتوقدْ هذه العاطفة نارَ ملذّاتنا وحدها. لنأتمر في عواطفنا بما يوافق هذه الملذّات، ولنعرض عمّا سواها. نعم يتمخّض عن هذا حالة نفسية ملؤها القسوة، ولكنها لا تخلو من متعة. لنستمتع بهذا الشعور الذي تثيره هذه القسوة المؤلمة: عدم القيام بأعمال الخير»[4].

---

(4) Le Marquis de Sade: *La philosophie dans le boudoir*, p. 46.

يستحق الماركيز دو ساد لقبه. إنها السادية فعلاً.

لماذا نتوقف عند هذا المُنظِّر الأهوج لكل انحلال خلقي وتفسُّخ للقيم؟ لأن هناك ثالوثاً مترابطاً أبان عنه دو ساد بجلاء، بين الموقف المناوئ للدين ورفض البر والتحلُّل الخلقي. لا أريد من هذا القول أن كل منظومة لا ترتبط بالدين تعدم أي توجُّه إنساني وتنغمر بالضرورة في اللذة، ولكنه يعسر في الوقت ذاته ألا نستخلص نقاط التقاء بين الدعوة إلى الإباحية وبين الكلبية... في التراث الإغريقي ليست الكلبية في أصولها إلا تحلُّلاً جنسياً، إلا تماهياً مع الحيوان من حيث نزواته. ثم هناك شيء آخر في تعريجنا على الماركيز دو ساد، إذ يصرُّ بعض المنحرفين على تطبيق طقوسه من حيث تعذيب الآخر. طقوس تذهب حدّ القتل والتمثيل. لا يزال دو ساد معاصراً، ليس لأن كتبه لا تزال توزَّع على صعيد واسع، بل لأن مذهبه لا يزال سارياً يسعى بعض من دعاة الإباحية إلى وضعه موضع تطبيق.

هل هذه غاية التحرُّر الجنسي؟

في موضع آخر يقول دو ساد إن الإباحية الجنسية والإلحاد قدر البورجوازية أو النافذين.

سوف يكيل ماركس حراب نقده على ممارسات البورجوازية ونفاقها، من أجل منظور جديد للأسرة وللجنس. يرُدُّ ماركس في البيان الشيوعي عن تهمة البورجوازية التي تُتَّهم فيها الشيوعية بالقضاء على الأسرة. ولكن ما الأسرة؟ أليست حكراً على البورجوازية وحدها، أما البروليتاريا فلا أسرة لها، وهي مُعرّضة للدعارة. تُفكِّك البورجوازية كل الروابط التي تربط البروليتاريا: الأزواج فيما بينهم، الآباء وأبناءهم، ليصبحوا سلعة أو أداة إنتاج ومادة خاماً للدعارة.

هذا فضلاً عن العلاقات المريبة بين الأزواج عند الطبقة البورجوازية[5]. غاية المجتمع الماركسي، في البيان الشيوعي على الأقل، هي تطهير المجتمع من الدعارة الرسمية وغير الرسمية. هي انتفاء الاستغلال. هي بناء علاقات مبنية على الحب.. نعم تطورت الشيوعية هي كذلك في منظورها للعلاقة بين الرجل والمرأة. نظرت إليها بتوجس شديد، كما لو أنها امتلاك الرجل للمرأة. ولذلك صاحبت الشيوعية التحرر جنسي ورفضت كل ارتباط، واعتبرت كل مشاعر الغيرة والتعلق ذرائع لبسط النفوذ والتملُّك. أفضى تطبيق الشيوعية في الحدّ الأقصى، في عوالم المناضلين الشيوعيين، إلى شيوعية جنسية. بيد أن هذا التحرُّر لم يبلغ ما أفضى إليه نظام السوق من انحدار خلقي وشذوذ.

لقد تأرجحت تطبيقات الثورة الجنسية في بلد الثورة البلشفية التي كانت أول تطبيق عملي للعلاقات الجنسية في منظومة شيوعية بين الإباحية أولاً فالضبط. كانت الكلمة بادئ الأمر للإباحية الجنسية، وكانت إحدى مندوبات الشعب ألسكندرا كولونتاي، والتي تميّزت حياتها الخاصة بحرية حدّ الإباحية، من مُنظّرات العلاقات الحرة، وحرية الطلاق والإجهاض. عرفت الممارسات، في حمأة الفورة الثورية، اختلاط الأزواج.. لم تدم الفورة لأنه اتضح أنها كانت تتهدد الفضيلة الثورية بوقوعها في براثن عيوب البورجوازية. أفضى تطبيق هذا التوجه الإباحي إلى انحراف الشباب وإلى الدعارة، وأخذ هذا المنحى يتهدد الأسرة. أصبح الخطاب، بل المتن

(5) Karl Marx: *Le manifeste communiste.*

القانوني، يدعو إلى الأسرة ويحمي كيانها ويعاقب على الإجهاض ويتعقب المثلية الجنسية ويعاقب عليها كذلك، بل أصبح العزوف الجنسي نوعاً من التماهي مع مثال الثورة. . لم يسعْ مُنَظّري الثورة الجنسية من ذوي المرجعية الماركسية إلّا أن عبَّروا عن خيبتهم في «الرجعية» الجنسية للاتحاد السوفيتي رغم ثورته البروليتارية، وأشادوا بالوقت ذاته بتقدمية الولايات المتحدة في الممارسة الجنسية رغم أنها خاضعة لنفوذ البورجوازية.

الثورة الجنسية

لقد كانت الثورة الجنسية ظاهرة غربية، وكان لها عرّاب أصبح عَلَماً لدى الحركات الإباحية في ستينيات القرن الماضي وحركة الهيبي، هو العالم النفسي فيلهلم رايش. كان في مفترق حركات فكرية وسياسية عميقة اعتورت أوروبا. عرف فرويد في العشرينيات من القرن الماضي قبل أن ينفصل عنه، وانخرط في الحزب الشيوعي، وكان من منظِّري التحرُّر الجنسي في بلد الثورة الشيوعية الفتية الاتحاد السوفيتي، وخيّبت آمالَه ردّةُ الفعل الرجعية التي عرفها الاتحاد فرحل عنه إلى ألمانيا، واستهوته الأفكار النازية لفترة، ثم نأى عنها بحكم أصوله اليهودية ورحل إلى الولايات المتحدة واستقرَّ فيها. هناك عرفَ جانباً من شهرته، ولكنه غار في الجنون والهذيان، وأحيل إلى مستشفى الأمراض النفسية وتمَّ إتلاف جزء كبير من كتاباته. ولكن المهم منها، مما كُتبَ في أوروبا، بقي ملِهماً للثورة الجنسية، بل هو عنوان واحد من كتبه.

ينطلق رايش من مُعطى قريب من نظرية روسو الذي يقول إن

الإنسان طيب بطبعه، وأن المجتمع هو من أزاغه عن طبيعته. تندرج الممارسة الجنسية بحسب رايش وَفق سُنن الطبيعة، وهي لذلك منسجمة وسلمية، والموانع المجتمعية هي التي تحرّف الدوافع الجنسية عن طبيعتها وتحيلها إلى أعراض مَرضية. أو بتعبير آخر إن كل الأعراض المرتبطة بالجنس مردّها عدم إشباع الرغبة. لا مكان للأدواء الجنسية في حالة إشباع الرغبة الجنسية، كالاغتصاب والشبق، بَلْه الدعارة أو الاختلالات المجتمعية. أما كبت النزوعات الجنسية فهو ما يؤدي إلى الرذائل، وإلى العُصاب بل إلى الفاشية. قمع الميولات الجنسية وتبكيت الضمير عن طريق الذنْب هو ما يفضي إلى ما يسميه رايش بـ«الطاعون العاطفي» وهو المسؤول عن كثير من الاختلالات المجتمعية كالاستبداد والفاشية والنزوع الأخلاقي والتصوف والوشاية والبيروقراطية الاستبدادية والنزوع الحربي والإمبريالي والحقد العرقي. يقرُّ رايش بأن البشرية لم تعرف بعدُ ثورة جنسية ولكنها آتية لا ريب فيها، وأنه يتعين هدم الحواجز التي تنتصب أمامها وهي الأسرة والأخلاق وكل أشكال الكبت الجنسي.

كانت نبرة رايش مهدوية على الطريقة الماركسية. الثورة الجنسية قَدَر حتمي على غرار ثورة البروليتاريا، وكما تقوم هذه الأخيرة ضدّ المِلكية تنتصب الأولى ضد الأسرة[6].

نظرة هلامية طبعاً وتجزيئية. الجنس ليس وظيفة فيزيولوجية أو بيولوجية فقط، هناك جانب ذاتي أو ذاتية مرتبطة بالشخص، بثقافة،

---

(6) Jean-Claude Guillebaud: *La tyrannie du plaisir.*

بتاريخ، هي التي تصوغ هذا الشعور الذي يُسمّى الحب أو العاطفة. ثم هناك أدواء لا يمكن أن ترد للكبت الجنسي: الشذوذ، المثلية، العِنَّة، العنف... ثم ماذا يريد رايش؟ أن يجهز على الأسرة. أُفُقٌ مظلم. على المستوى الفردي كثير من الأدواء الاجتماعية كالانحراف والعنف والمخدرات، فضلاً عن الأمراض النفسية مردّها في جانب كبير تفكك خلية الأسرة./أما على المستوى الجماعي كيف كان يودُّ رايش أن يضمن استمرارية النسل إن هو أجهز على الأسرة؟

الجنس والسوق

سيعرف الغرب ثورة جنسية هوجاء لا تبقي ولا تذر، لا تستند إلى مرجعية فكرية أو سند أيديولوجي، هي التي بلغ لهيبها أرجاء بعيدة من العالم. ثورة عنيدة وبعدة أشكال، هي تلك التي أشاعها السوق أو السوق الجنسية. كانت هناك إرهاصات لهذه السوق ملازمة للمجتمعات الصناعية في شكل المواخير، ولكن غلالة كانت تحجبها عن الساحة العامة. كانت لها أحياؤها وحياتها المنعزلة عن المجتمع يرتادها البحّارة والجنود والعُزَّاب.. وقد تكون مرحلة للمبتدئين جنسياً. كانت في عُرف التجربة الفرنسية «مرفقاً عمومياً» من طبيعة خاصة. لم تكن فرنسا في تجربتها لما وراء البحار تَضِنُّ على جنودها بإشباع رغباتهم من الجنس. كانت تحمل «زادها» الجنسي من فتيات بوادي مستعمراتها ليصحبنَّ الجنود إلى الهند الصينية، ويمخرن البحار معهم ويعشن في الأدغال معهم. كانت بيقشة، وهي الفتاة المغربية التي اجتثتها يد استيطان المعمّرين العاتية لتصبح سلعة للجنود، أو للقُوم (مع نطق القاف كالجيم المصرية،

وهم المجنّدون المغاربة في الجيش الفرنسي) في أصقاع فيتنام، نموذجاً لهذا الاجتثاث. قصة حقيقية صوّرها الكاتب المغربي موحى أبحري في روايته المكتوبة بالفرنسية **أن تكون أو لا تكون**[7].

ثم حدث على مستوى آخر تحول عميق في الممارسة الجنسية هو منع الحمل، ما نقل وظيفة الجنس من حفظ النسل أو التوالد إلى المتعة، ما دام «خطر» الحمل خارج علاقة شرعية قد أزيح، فضلاً عن تطور القوانين والممارسات التي تبيح الإجهاض أو تتستر عنه. باسم الحرية الفردية، باسم الحق في المتعة، باسم الحركة النسوية.

ولكن الأمور ما فتئت أن اتّخذت منحى آخر. بعيداً عن أي ثورة مفاهيمية أو هوس بالمرفق العمومي. الجنس في قلب السوق وفي عمق عملية الإنتاج والاستهلاك.

ظهرت صناعة جديدة عفَّت المواخيرَ، كما عفَّى الفيديو وأقراص أفلام DVD دورَ السينما. صناعة جنسية مع كل سلاسل الإنتاج. من حوانيت الجنس ومحلاته الكبرى وأروقته ومجلاته وممارساته لكل الحاجات وكل الأذواق. من الدعارة الرسمية إلى الدعارة Part time. من الجنس تحت الطلب (Livré à domicile/ Home delivered)، إلى السياحة الجنسية، ثم إلى الأنشطة الموازية للتنشيط أو للاستعاضة لمن تخلّف به الركب: التدليك، الساونا، السبا (SPA)، البارات، المراقص، الرسائل الوردية، الـ«ستربتيز»... ناهيك عن السينما البورنوغرافية، والفيديوهات الجنسية والمنشطات الجنسية والفياغرا. لم تعد المسألة تابو. تنضح الصحافة بسيل من فضائح سوق الجنس حينما يطفح الكيل.

---

(7) Moha Abehri: *Être ou ne plus être*, Centre Tarik Ibn Ziyad, 2003.

الجنس؟ سلعة ككل السلع، استفادت من موجة العولمة، وبدّدت من أجل ذلك كل الحواجز الترابية والثقافية والحضارية. رَبُّ المؤسسة من بلد كذا، وبلد الاستهلاك كذا أو بلدانه، والسلعة من بلدان العالم جميعها. هناك طبعاً عدة وسائل من أجل التمويه حينما تكون الرقابة صارمة أو العبء الحضاري ثقيلاً، أو تواطؤ الأمن غير مأمون. حمَّامات للتدليك، حمَّامات شرقية تركية أو غيرها، شركات نظافة، فنانات، مربّيات، بل عقود زواج تُستملى بها الفتيات الغريرات قبل أن يدخلنَّ عالماً لا فكاك لهنَّ منه/ وطالبات. طالبة مغربية ارتحلت لدولة خليجية، لتشتغل مربية، وانتهت في حضن الرذيلة، ولم يسعها إلَّا أن تلقي بنفسها من علِ عمارة واضعة حدّاً لحياتها.

الوفرة بقدر انفتاح الأسواق وسقوط الحواجز. أوروبا الشرقية رمز الطهرانية الشيوعية سابقاً، معين لا ينضب. منظومة الاتحاد السوفيتي ألقت في السوق الجنسية حَمَماً كبركان فائر لكل الأذواق ولكل الشرائح. نشاط يختلط بعالم المخدرات بل الأسلحة. عالم المافيا بما يحبل به من عنف وتقتيل وتمثيل.

لم تعد السياحة الجنسية، وهي أحد تمثلات العولمة الجنسية، موضوعاً محظوراً في مخططات بعض الحكومات التي تريد أن تعطي دفقاً لسياحتها. وبعدُ، فالعملية مربحة تُشغّل اليد العاملة، عفواً الجسد العامل، وتخلق، بلغة الاقتصاديين، فرص الشغل المباشرة أو عن طريق التداعي، وتدرُّ العملة الصعبة. هل من مزيد؟

كل شيء مباح في العولمة الجنسية، بما فيها إشباع رغبات «الأقليات» الجنسية، إذ على المستوى العالمي تعتبر سوقاً كبيرة،

وغرضاً أو هدفاً (Target/ Cible) ينبغي الوصول إليه. كل شيء مباح إلا . . . المجانية، لأنها منافية لمنطق السوق. لا مكان للحب ولا للعاطفة لأنهما مجّانيان ويتعارضان مع الدينامية الاقتصادية. متعة عابرة مع شريك. كذا. شريك لا حاجة إلى أن تعرفه أو حتى أن تنظر إليه أو تراه. في علب ليل مظلمة. في شبكات تشتغل تحت مواصفات غير شخصية. .

قد تثور ثائرة بلدان لكبريائها وكرامتها، فتندِّد ببلاغات واحتجاجات على التردّي الخلقي الذي يتهدّد فلذات أكبادها واستغلالها أبشع استغلال فيما تنعته بالنِّخاسة الجديدة، وتستند في دعاوى تنديدها إلى فضائح طفحت بها الصحافة. . ولكنها لا ترى إلا الجزء المرئي من الجبل الثلجي. سوق الجنس مخترقة بشبكات متداخلة يختلط فيها عالم المخدرات وأباطرته وأجنحة أمنية بل دهاقنة رأسماليين وسياسيين. قوتها من قوة العولمة، من قوة الطلب الذي يحرِّك العرض. . لا يمنع التنديد الأخلاقي والضغط الثقافي من النفاق. . حملة أو حملتين لامتصاص الغضب. ضحية أو ضحايا لإسكات المحتجين. ثم تعود المياه إلى مجاريها . . . الآسنة.

أكثر من ذلك يصبح الجنس موضوعاً سياسياً، ليس في صورته المبتذلة بين المحافظين والإباحيين، بين من يعارضون الإجهاض ومن يناصرون حرية الاختيار، بين مؤيِّدي الأسرة ومناصري الحرية الفردية كما هو الحال في السجال بين المحافظين في الولايات المتحدة والجمهوريين، بل في كونه قوة ضغط من شرائح كانت إلى عهد قريب عناصر محتجبة تتستر على طبيعتها، أعني المثليين الجنسيين. لقد صوّت المثليون للرئيس الأميركي بيل كلينتون الذي

كان وعدَ بفتح أبواب التجنيد لهم والتي كانت موصدة دونهم، ولم يستطع أن يَبَرّ بوعده أمام رفض المؤسسة العسكرية لاعتبارات أمنية أكثر منها أخلاقية أو دينية. ونزل المثليون الجنسيون، في أعقاب انتخاب كلينتون في ولايته الأولى، في مسيرة ضمّت زهاء مليون متظاهر للضغط عليه. وانتهى إلى حلٍّ توفيقي يُرضي المثليين دون أن يغضب الأمنيين: «لا تقل - لا تسأل». ليس على المثليين أن يجهروا بهويتهم الجنسية، وليس على الأمنيين أن يحشروا أنوفهم في حياة المثليين الشخصية. ولم يسعْ الرئيس الأميركي باراك أوباما إلا أن رفع الحظر في حفل مشهود نُقلت صوره إلى العالم عبر الشاشة، باعتباره حدثاً سياسياً.

بل لم يعد احتجاج هذه الفئة مرتبطاً بالبلدان الغربية أو بالانتماء إلى بلد معيّن. كلّا، المثلية عابرة للقارات، وهناك أممية للمثلية ترتبط بشبكات تضامن عبر العالم وتنظّم لقاءات ودَوَرات «توعية» وتثقيف للمجتمعات ولقواها الحية عن طريق علاقات مع فعاليات من المجتمع المدني أو مع الصحافة. تخترق قواه المدنية في أفق أن يكون لها تمثيل سياسي أو ضغط على السياسيين.

والعقبة الكأداء أمام موج الثورة الجنسية هي الأسرة وما تستند إليه من تربية دينية. يصطدم هذا الموج، موج الإباحية، بقلعة الأسرة. يحيط بها الماء أو الإغراء من كل جانب. تصمد كما تستطيع، وتتمترس في مواقف دفاعية، وقد تتصدع تحت عوامل تعرية الإعلام وسوق الاستهلاك والحداثة. الثورة الجنسية ملازمة للحداثة، في الغرب وحيثما تكون. حداثة الرأسمالية المالية، حداثة الاستهلاك.

وكيف يلتئم نظام السوق والأسرة؟ السوق يأنف من المجانية ومن الإحسان، والأسرة عالم المجانية والتضامن.

حتى ذريعة الزواج من أجل الإنجاب لم تعد قائمة، إذ يمكن الإنجاب من دون زواج، في تشريعات جديدة تعترف بالعلاقة الحرة ونتائجها.

الضحايا الجانبيون: الأب والطفل

ينسحب الأب رويداً رويداً ثم يذوي تحت تأثير موج الحركة النسوية والعلاقة الحرة وتسونامي الحرية الفردية. وبعد، فهو من يرمز إلى العتيق وإلى التسلُّط وإلى الرجعية. كل شيء سيُوظَّف في التشريعات وفي الممارسة لصالح الأم ضدّ الأب أو الرجل عموماً. ستعتبر المجتمعات الفقيرة إحدى دلائل تقدمها وحداثتها الإجهاز على الرجل، وعلى الأب. كحاكي الصدى بتعبير المتنبي، بعيداً عن مصدر الصوت وساحة الوغى، بل مِن غريب أن من سيُدافعن عن الأسرة ومتنها القانوني لم يتزوجن قط، ولم ينجبن ولا عرفن الأمومة وما تفرضه من عبء وضرورة مشاركة الأب في التنشئة وفي غرس بذور العاطفة والحنان. ومن غريب أن من سيدافعن عن الأطفال، وهو شقّ آخر من هذه الثورة الانتكاسية، لم ينجبن أو فارقن أطفالهن. ومن يأبه لذلك؟ فهنّ وهم، من النشطاء، نُسخ لصورة أصلية تنتسج في الغرب. سلع مقلَّدة. ستقوم أُسَر من غير أب ناتجة عن اختيار النساء، أو جرّاء الطلاق حيث تحتفظ الأمهات في الغالب بالأطفال، أو قد تقترن بزوج أو خليل آخر يقوم مقام الأب البيولوجي. وينشأ الطفل بلا أب، أو بأب بالتبني وأب بيولوجي،

يحمل اسمه وجيناته وقد لا يعلم عنه شيئاً. . ليس الطلاق في المجتمعات الغربية وفي المجتمعات الحديثة حدثاً عابراً، أو حادثة سير، بل مكوّن بنيوي ملازم لمفهوم الزواج في المجتمعات الحديثة. لقد اقترن الزواج في المجتمعات الحديثة بالحب، وفي ذلك مصدر قوته وكذا مصدر ضعفه. لذلك يصبح الزواج رهين تقلبات العاطفة. حينما يفتر الحب أو يضعف، أو يهون الجسد ويشيخ، إذّاك يتم التحول إلى آخر أو إلى أخرى، بلا نفاق. نعم وبلا تضحية. لقد أدركت الأديان مجازفة ربط الزواج بالحب، ولذلك اعتبرت المسيحية الزواج ميثاقاً مع الله لا يجوز نقضه، ورأى الإسلام في الزواج تعبيراً عن رحمة ومودّة يتأتّيان مع الزمن، ونَظَرَ إلى الطلاق لا كتعبير عن حرية فردية أو حق من الحقوق، بل كرخصة في حالات استثنائية. . هو ذا الفرق بين الزواج في عُرف الأزمنة الحديثة، إذ يرتبط بالآني، لا يندرج كما في المفهوم الديني كانخراط عمر، كمؤسسة. . يتزوج المرء تحت تأثير أَرَن العاطفة، ويُطَلّق لمّا يعتريها الضعف وتعترضها التقلبات. . . وهكذا يصبح الطلاق معطى بنيوياً. لقد أفصحت تقارير قضائية من تونس عن ارتفاع نسبة الطلاق. المسألة ليست اعتباطية، لأنه البلد الأول من بلدان العالم العربي الذي يتبنّى مفهوماً غربياً لمدونة الأحوال الشخصية وتأثر بقوانينه.

كل هذا يفرز أوضاعاً نفسية ومجتمعية عسيرة وعويصة: الزواج العابر، الطلاق المبسّط، الأسرة الأحادية، أو الأسرة المركّبة، أي الزوجة التي لها أولاد من زيجات مختلفة. تَقدّمٌ يحمل في طياته تخلُّفاً، ويفضي إلى اهتزازات نفسية لها تأثيرات على المرأة وعلى

الطفل. طفل ينمّي ميولات عدوانية ضدّ المرأة واستعدادات رجولية (Machisme) وجنوح إلى العنف. تقول عالمة النفس كريستيان أوليفيه: «كلما طالت العلاقة أم/ ابن واستمرت، كلما كان ردّ الرجل عنيفاً. ليست الأسرة ذات الولي الوحيد المكان الأسمى لإنجاب الرجل الجديد. على العكس، فالتربية من لدن الأم وحدها تفضي إلى ردود فعل عنيفة للأطفال ضدّ النساء. الرجل الجديد من سيكون صنو المرأة ومكمّلها (كذا) لا يمكن أن يخرج إلا من إطار لا تتركز كل السلط في يد الأم وحدها»[8].

والضحية هو الأب الذي يُغرق أساه، كما يقول التعبير الفرنسي، في الشراب والمغامرات العاطفية أو الجنسية. يطفح أدب الكاتب الفرنسي ميشيل هولبيك بصور بشعة مقززة لهذا الانحراف. يصبح الجنس ليس وظيفة بيولوجية، ولا تعبيراً عن عاطفة، بل تزجية وقت (Passe-temps) أو لعباً من لعب الكبار.

ثم هناك الطفل، الضحية الكبرى، صورة الغد. يتعرض للتعنيف والتمثيل من قِبل المؤسسات التي من المفترض أن تكون الحانية عليه، من لدن الأسرة (في فاس أقدم أب على ذبح ابنتيه في ربيع الزهور صيف 2009) ومن لدن المدرسة. تهلهلت الوظيفة التربوية بضعف مؤسسة المدرسة ولم يعد الأطفال بمنأى عن التعذيب بل عن التحرش الجنسي. والحالات أكثر من أن تُعَدّ.

ومفهوم أن تَصدُر تشريعات واتفاقات دولية من أجل حماية الأطفال، بل إن ذلك يعتبر أمراً نبيلاً أمام استفحال العنف ضدّ

---

(8) Guillebaud: *La tyrannie du plaisir*, op. cit., p. 451.

الأطفال، لكن ألا يخفي الأمر أيديولوجيا؟ أيديولوجيا تريح ضمير مجتمع، وسلوك آباء، وتعفيهم من المسؤولية التربوية ما دامت النصوص قد قامت بذلك، ما دام المجتمع المدني ينهض بذلك، ما دام الإعلام يُسوِّق لذلك. برلمان للأطفال، برامج وثائقية، برامج «تربوية» في التلفزيون.. كل شيء إلا الآباء فيما يخصّ تربية الأولاد. وهكذا يقوم جرف غائر بين الآباء والأبناء، والويل للآباء الذين يغلظون القول لأبنائهم، فهم يقعون تحت طائلة القانون، قانون شديد غليظ لحماية الأطفال. أفلا يستقيل الآباء إذّاك؟ أوَ لا يردُّون بعنف وبقوة؟

ألا تخفي الفورة الجنسية أزمة أعمق؟ لقد استكان الغرب ومن يدور في فلكه إلى «مكتسبات» تحرر الجسد، ويأبى أن يخضعها لمبضع النقد. كل شيء عرضة للنقد في الثقافة الغربية إلا «حقائقه» العامة، ولو قامت على أباطيل وأضاليل. الثورة الجنسية أو الفورة الجنسية هي تعبير عن أعراض أعمق، هي تهلهل السدى الاجتماعي وتحلُّل التمثُّلات الجماعية. هي سبب ونتيجة في علاقة ديالكتيكية محمومة. الغرب لم يعد يؤمن بشيء، ليس له تصور حول المستقبل. الماضي يؤرِّقه، وما يبقى سوى الحاضر بمتعه وإغرائه. ديكتاتورية اللحظة كما يسميها جون-كلود كيلبو. لا الأسرة ولا المدرسة يستطيعان أن يقوما بدور التنشئة أو التأطير أو الأدلجة، لأنهما لم يعودا مؤسَّستَين. بقايا منخورة من عهود مضت لا ترتبطان بتراث ولا مسؤولية ولا تندرجان في المستقبل. لا تهيئان لاستمرارية ولمشروع، رغم استعمال هذا المصطلح حدّ الغثيان. ولذلك يعشعش العنف في المدارس وتغزوها المخدرات ولا تصمد لإغراء

الجسد. لا لشيء، لأن مجتمعاتها بلا تمثلات جماعية. بلا أنا جماعي بلغة دوركايم. في الغرب وفي المجتمعات التي تطمح في أن تكون صورة له. وهكذا يقدم أستاذ جامعي على قتل طالبته التي تهيِّئ رسالة الدكتوراه تحت إشرافه في الحرم الجامعي بأكادير خريف 2009. ماذا يبقى إذاً؟ خريف الجامعة والتعليم والتربية. وهكذا يقدم سائق سيارة الإسعاف على انتشال خاتم الفتاة الضحية. ماذا يمكن أن ننتظر من السواقي حينما تكون العين آسنة، كما يقول المثل الأمازيغي؟

الفصل الخامس

الصورة الحاجبة

كان يبدو أن عالم **1984** الذي صوَّره جورج أورويل في روايته التي تحمل ذات العنوان غُلوٌّ في التصوير، ومبالغة في التحليل، حيث صورة «الأخ الأكبر» (Big Brother) تتعقبك في كل آن ومكان. لا مكان للحميمية ولا للذاتية في عالم شمولية **1984** الذي هو صورة للشموليات الشيوعية. ولكن «الأخ الأكبر» الذي يسكن الشاشة ويُصعّد النظر ويُصوِّبه حقيقة المجتمعات الليبرالية «الحرّة» كذلك. هو حقيقةٌ اليوم أكثر من ذي قبل. هو أقوى بفضل التكنولوجيا، وهو أشد مراساً بفضل انصياع الجموع التي تقبل هيمنته راضية مَرْضية: شمولية الرأسمال؛ وهو في صيغة العولمة انخراط لا يحتاج إلى قسر أو زجر، بفضل الإعلام والصورة والشاشة والشبكة. لا تحتاج شمولية الرأسمال إلى اجتماعات يوم الأحد على الساحة الكبرى، ولا لصورة الدوتشي (Duce) من الشرفة يجأر بخطبه العصماء، لا تحتاج إلى بروباغاندا غوبلز، أو تحية الفوهرر التي تُلهب الجماهير، ولا المركزية الديمقراطية للمكاتب المركزية أو تنظيمات الكومسمول (Komsomols) التي تؤطر الشبيبة الشيوعية.. الاكتتاب في الجرائد بالمجتمعات الرأسمالية عملية أوتوماتيكية يقوم بها المواطن

المستهلِك الذي يرقب تقلُّبات الأسعار وعمليات التخفيضات ومساحات الإشهار وصفحات الترفيه وجديد الطبخ. وفي ثنايا هذه السلع وتلك العروض المغرية خبر ما عن فيضانات في بنغلاديش، وفي مكان آخر زلزال في غواتيمالا، وأسفل الصفحة حصار في الضفة الغربية، بين إشهارين، وجديد نجم من نجوم الرياضة أو السينما. والتلفزيون عالم تزجية الوقت، بل السَّمير في مجتمعات فردية مجزّأة، يصحبك حتى في المنام، يُنوّمك ويدك ماسكة آلة التحكم عن بعد. وقبل أن ينيمك يحشوك بما يريد من إغراءات السوق والإعلانات، وحقيقة العالم كما يريدك أن تراه. ليس لك أن ترى ما يختبئ وراء الكواليس ولا القوى الرابضة وراءها. ثم الشبكة التي تربطك بالعالم وتجعله حقاً قرية كبيرة وتهدم المسافات والمساحات فتحيلك مستهلَكاً (بفتح اللام) ومستهلِكاً (بكسر اللام). والهاتف النقال يحمل صوتك وصورتك، وينقلهما، كما يحمل لك أخبار العالم وينقل برقياتك و... يفضحك حيثما تكون. يجعل عملية اقتفاء الأثر سهلة (Traçabilité) والتتبع (Pistage)، بلغة الأمنيين، هيّناً. لا حميمية لك ولا فردانية. لأن «الأخ الأكبر» يرصد تحركاتك أو تموجاتك، ولأن كل عملية هي بمثابة بصمة تفضحك، تفضح شركاءك وأذواقك وأهواءك.. في رسالة البريد الإلكتروني التي تكتبها وقبل أن تكملها، بل أن تسجّلها، يقفز إشهار يتبيّن لك أنه اطَّلع على رسائلك وفحوى كتابتك وردّ عليك من جنس أهوائك./

والإنسان محاط بسيل من المعلومات غير قادر أن يميز غثّها من سمينها، وصحيحها من زائفها، وهو سيل العَرَم من المعلومات يُدجن كل ملكة للنقد وكل رغبة للسؤال./ إنسان ما بعد الحداثة مهيَّأ

لأن يكون مستهلِكاً لبضائع منقولة ولصور ولتصورات. لا فرق. نعم تضيع الحقيقة، ولكن الحقيقة شأن أقلية، أقلية لا تجرؤ على فضح الأمور، لأن الغالبية لا ترى إلا الأشباح كما في كهف أفلاطون. كل هذا يقتضي أن يكسر المرء الأغلال، ولا هو قادر على ذلك، بل ما جدوى ذلك؟ عالم الصور والأشباح مريح، ولا وجه للمقارنة مع شموليات المادية التاريخية أو تميُّز العرق الآري.. شمولية لذيذة، تتيح لك كما في تعبير مارسيل غوشيه السعادات الفردية المبتذلة. شمولية لذيذة أو رخوة (Un totalitarisme délicieux). الانتقال إلى المراكز التجارية التي حلّت محل أغورا اليونان، وفورم الرومان ومعبد الأوثان. مراكز تجارية مغلقة ومكيَّفة لا يغشاها الضياء. يصحب إليها المواطن المستهلِك أولاده وأهواءه متنقلاً بين الأجنحة، مستعيناً ببركة بطاقة الائتمان كما لو هي سمسم تفتح له ما استغلق وتُذلِّل ما استعصى. ثم يركن إلى مطعم للأكل أو للمرطبات، كما يستجمُّ المستحم في الحمامات المغربية أو التركية وقد تخلَّص من أوضاره وأدرانه... شمولية تطلب منك أن تدلي بصوتك في خيارات مهيَّأة سلفاً في سجال ممتِع يُقَدَّم إليك كما لو هو سجال الدِّيَكة.. سجال يحدِّد مصيرك. وللحظة تحسب أن لك كلمة من خلال صوتك، وما تلبث أن تتبيّن أن خيارك تَمّت صياغته من خلال تأثير الإعلام وصخب الوصلات وضجيج البرامج.

الصحافة المكتوبة بين الضمير وإغراء المال

نعم، حدث انزلاق.

لم يكن الإعلام أداة في يد المالكين ولا المستبدين، بل على

العكس، كان يحمل زفير المكلومين وأنّة المحرومين. كان مصاحباً لهذه الثورة التي قام بها الغرب وأطاحت بصروح الاستبداد المحتمية بالحق الإلهي والمتلفِّعة بالقدسية. كانت الصحافة أحد تجليات الأنوار. كانت امتداداً لجرأة المفكرين الأحرار في أوراقهم (Libelles) ضدّ النبلاء، في فضحها للظلم. كانت كما رآها فيكتور هوغو أحد تجليات السلطة الروحية التي أخذت تُسحب من الكَنَسية، بل أضحت قراءة الصحف صلاة رجل السياسة وتهجُّد من يريد أن يتماهى مع روح العصر، كما في تعبير هيغل. كانت الأداة التي تزعزع المتواضَع وتفضح المستتر وتهدِّد المؤسسات وتهزأ بمنطق الدولة كما في صرخة إميل زولا: «إني أتّهم». كانت الصحافة مصاحبةً لهذه الثورة الهادئة التي دكّت عروشاً وقلبت أنظمة: تعميم القراءة والكتابة. لقد كانت تعبيراً عن ضمير، وكانت رافعة لصوت الجماهير الكادحة في بيانات وصحائف تشيع التضامن وتنشر دعوة العدل وتفضح الظلم، ولذلك اقترنت بالنضال. الكتابة الصحافية أصلاً لم تكن من أجل المحافظة على الأمور كما هي، بل هي أداة التغيير ووسيلة من وسائل التثقيف. تثقيف الجماهير. لقد كان ماركس، فيلسوفُ الكادحين ومُنظِّر الاقتصاد ومحلِّل الرأسمال ومؤرِّخ تحولات أوروبا، صحافياً كذلك، يراسل عدة صحف، لينشر الفكر الاشتراكي، و... ليتبلّغ بها ليقيم أوَدَه لمواجهة عاديات الزمن.

أضحت الصحافة شيئاً خطيراً، أي مهماً جداً، حتى لا تُترك في يد الكادحين وحدهم. انتظم الرأسمال في عمليات من أجل تكريس حقيقته وكسر رواية خصمه. من هنا يبدأ العداء بين البورجوازية والصحافة. لم تخطئ البورجوازية ولا أصحابها من أن الصحافة أداة

تغيير ووسيلة تثوير الجماهير. كانت صحف الكادحين مرتبطة بتصورات سياسية معيّنة وأحزاب ونقابات، ولذلك كانت الصحف تستند إلى قوة حقيقية. وعمدت البورجوازية إلى أن تدافع عن مصالحها من خلال صحف قريبة منها تعكس توجهاتها. ومنذ عشرينيات القرن الماضي ظهرت مؤسسات صحافية مرتبطة بالبورجوازية وبالرأسمال كردٍّ فعل على صحافة الكادحين. ومنذ ذلك التاريخ ترسّخت صورة نمطية للصحافي يتلوها البورجوازيون والنافذون في كل مكان وفي كل آن: إنه سطحي، لا يؤتمَن، يحشر أنفه في حيوات الآخرين ولا يحترم حياتهم الخاصة، هذا فضلاً عن ضحالته المعرفية، وعدم معرفته بحقيقة الأمور واكتفائه بالأقاويل والإشاعات. هو ذا حكم البورجوازية على الصحافة المناوئة، ولكن البورجوازية لم تكن لتكتفي بإصدار أحكام، كانت تريد صحافة بديلة. صحافة تنتقل من فعل النضال إلى عملية تجارية. طبعاً لم تكن لتجرؤ على الكشف عن نواياها، ولذلك كانت تلتزم التورية وتزعم أنها تريد صحافة مهنية. وهي صفة سوف تلتصق بالصحافة في الغرب وفي غير الغرب. نعم الصحافة المكتوبة هي أولاً، وهذه حقيقة، مقاولة اقتصادية، تخضع لضغط السوق وإغراء الربح. مقاولة عليها نفقات من العاملين بها، إلى النفقات المرتبطة بالتسيير، من مقرّات وورق وهاتف وتنقُّل. نفقات لا يمكن القفز عليها أو تجاهلها. ثم إن الصحافة تعتمل وسط سوق شرسة يحكمها سباق محموم وراء الإعلانات. ليس هناك صحيفة ذات هدف خيري تحكمها الاعتبارات الإنسانية بالأساس. تريد الصحيفة أن تحقق توازنها المالي ولا بأس إن حققت أرباحاً.

ثم إن الصحيفة أو الجريدة بدرجة ثانية مؤسسة سياسية، لها توجه سياسي معيّن، وحساسية قريبة من هذا التوجه أو ذاك، ولذلك لها صداقات وولاءات من عالم السياسة، ولها خصوم وأعداء. وبدرجة ثالثة لكل جريدة أسلوبها وتصورها تشاطر فيه القارئ أو تريده أن يشاطره إياه. تحرص على أسلوب خاص في الكتابة والتقرير. تلتزم لغة راقية بلا زخرفة، كما لدى **ذي إيكونوميست ولوموند**. أو هي تحرص على جمال اللغة وعلى استمالة العائلات العريقة المحافظة وأعضاء الأكاديمية الفرنسية وسدنة اللغة كما في جريدة **لوفيغارو** الفرنسية. أو هي تهزأ بكل ذلك كما **نيويورك تايمز**، وتكون الفكرة عندها مقدَّمة على الصياغة، والنأي عن حكام واشنطن السمة الغالبة، بالقدر التي تظهر فيه **واشنطن بوست** قريبة من أصحاب القرار، عاكسة لتوجهاتهم، ناطقة بلسانهم. لكل جريدة نكهة ونبرة، وقد تتطور وتتغير مع مديريها ورؤساء تحريرها، كما قد يتغير هؤلاء تحت تأثير الأحداث.

هو ذا التغيير الكبير الذي حدَّ من صفاء الصحافة المكتوبة. فهي بين شقي مؤسسيها المحددين لتوجهها، من خلال تمويلهم لها، ثم شقّ الإعلان. إن تخلصت من طوق الأوائل لم تسلم من وصاية صاحبي الإعلان. وقد تساير أصحاب الإعلان وتمالئهم وتداريهم وتنأى بذلك عن خطّ تحريرها الأول. يظل الإعلان مؤثراً في مسار الصحافة المكتوبة وفي خطها التحريري.

هو ذا الاختراق الأول للصحافة. اختراق أشبه ما يكون بإغراء الشيطان، شيطان ميفيستوفيليس يمنح غريمه الفتوة مقابل روحه.

ثم هناك اختراق من نوع ثانٍ مستتر، لا يظهر، أو لا يظهر بشكل

جلي. هناك الصحف القريبة من الدوائر الحاكمة، ولكنها في الغرب لا تظهر بالشكل الفجّ الذي تظهر عليه في دول الجنوب حيث للأنظمة جرائدها الرسمية، تكاد تكون حكراً على الحاكمين، ترسم توجهاتهم وتنمّقها وتطري على قراراتهم بزخرف المديح والتزلُّف. في الغرب لا مكان للمديح ولا مكان للتملق لشخص ما أو التزلُّف إليه، ولكن هناك مكان ما لإبراز موقف أو تمرير رأي أو «حقيقة». هناك تقنية التسريب لشيء حقيقي يراد فضحه، أو مفترى لتطويع الرأي العام أو قولبته، أو للإجهاز على شخصية عامة مزعجة أو إضعافها، أو التأثير عليها. لذلك ترتبط مؤسسات صحافية بمراكز قرار معيّنة، قد تكون مراكز واضحة كما الرئاسة أو الخارجية أو الدفاع أو الداخلية، وقد تكون مستترة كما أجهزة المخابرات. بيد أن أجهزة المخابرات لا يمكن أن ترتبط بجهاز إعلامي واحد، ولا يمكن أن تورِّط نفسها في علاقات مؤسسية. في دول العالم الثالث قد تكون هناك صحف مرتبطة جهاراً بجهاز ما من أجهزة المخابرات، بل قد يكون صنيعها، ويحدث ذلك كردٍّ فعل لتحولات عميقة تعتور مجتمعها وترى أجهزة المخابرات أن تزجَّ بذاتها في عملية التأطير الأيديولوجي، بل يحدث أن تخرج مقالات طازجة من دهاليز المخابرات ليوضع عليها اسم صحافي ما للتمويه. في الغرب الأمور أكثر تعقيداً وتأنُّقاً (Sophistiqué)، إذ ترتبط الأجهزة بصحافي أو هو يرتبط بها، صحافي لامع، له تأثير. في الغرب، لا يتسترون عن هذه العلاقة، أو قد يتم فضحها، بحكم العلاقات الشرسة والعدائية بين الصحافيين. فهم يتجنّون على بعضهم البعض، ويفترون على بعضهم البعض، ويفضحون بعضهم البعض، و... يتآزرون فيما بينهم ضدّ الدخيل.

ومهما يكن من أمر فالصحافة مخترَقة، أو على الأقل بعضها. وقد يختلف تدخُّل الأجهزة قوة وضعفاً في القضايا الحساسة، وفي ظرفية معيّنة، كما الحروب، أو التأثير في مجرى الأحداث، أو تهيِّئ الرأي العام الوطني أو الدولي لحدث. ويدرك المختصون من المراقبين والدبلوماسيين ما ينطوي عليه مقال يُشتمّ منه رائحة الأجهزة، يقرؤون ما وراء السطور، وتكون الصحافة ساحة تبادل رسائل بين قوى سياسية، بل أحياناً بين دول. وهناك مساحات الرأي التي يكتب فيها سياسيون وقادة عسكريون وسياسيون متقاعدون يمثِّلون قوى سياسية أو يودون التأثير في مجرى الأحداث. وغالباً ما يضع هؤلاء أسماءهم وتوقيعهم على المقال الذي يكتبه محترفو الكتابة (Re-writers)، ممن يؤثثون دور النشر وقاعات التحرير، كما هو الشأن بالنسبة إلى السياسيين الذين يوظفون مَن يكتب لهم خطبهم (Speech writers). ثم إن مساحات للرأي تظل معروضة للبيع، يمكن نشر كل شيء يراد، مؤدّى عنه طبعاً، كما تعمد كثير من السفارات المعتمدة للتعبير عن وجهات حكوماتها في قضايا حساسة، أو قبيل زيارة مسؤول كبير لها. تقوم بذلك في إطار عملية التواصل، وقد تستعين بشركات للعلاقات العامة تقوم بذلك العمل نيابة عنها. وقد تشترط صحف تودُّ أن تحافظ على جانب من مصداقيتها أن تضع على أعلى المقال أو الإعلان إشارة «إشهار».

لقد ارتبطت جريدة **لوموند** في وجدان الفرنسيين وقارئي اللغة الفرنسية ببريق وبسلطة معنوية أقرب ما تكون إلى الأسطورة. كانت جريدة **لوموند** إنجيل طلبة العلوم السياسية. نشأنا -أبناء جيلنا- على

هذه الأسطورة، ولم يخطر في بالنا ما قد يختبئ وراء الأسطورة، ككل أسطورة.

نعم كانت هناك أسطورة. أسطورة أقامها مؤسِّس **لوموند** هوبير بوف ماري في أعقاب الحرب العالمية الثانية. لم تكن جريدة **لوموند** مقاولة ولكن فكرة. فكرة عن دور الصحافة بصفتها ضميراً وقوة مضادة، وفكرة عن فرنسا ودورها. ولكن الأمور تغيرت بعد مؤسِّس **لوموند**. لقد فضح بعض من صحافيي **لوموند** حقيقة **لوموند** كما فعل ميشيل لوغريه في *Le Monde» tel qu'il est*». وفي سنة 2003 صدر كتاب كان له وقع كبير إبّان صدوره، كشف عن أشياء مستترة بعنوان **وجه لوموند المستتر** لمُحقِقَين مرموقَين معروفَين في مجال التحقيق والاستقصاء. فضح هذا الكتاب علاقة مديرها إيدوي بلينيل مع البوليس ومع المخابرات، بل مع أجهزة بلدان أخرى، أو بشكل أوضح مع الوكالة المركزية للمخابرات. لقد أسرَّ الرئيس الفرنسي الأسبق فرنسوا ميتيران لصديقه وزير الخارجية السابق رولان دوما ارتيابه من إيدوي بلينيل: «لدي الحجة أنه عميل، وأن **لوموند** أضحت مؤسسة لزعزعة جمهوريتنا ومجتمعنا»[1]. وفي نفس الصفحة، أسفلها، يقرُّ الصحافي أن عليه «أن يقبل بأسى دور حلقة لعملية تواصل لصالح مديرية حماية التراب (المخابرات الفرنسية الداخلية)»، ويضيف معترفاً أنه في عملية معيّنة قدّم يد المعونة لمديرية حماية التراب.

لقد كان انتحار الوزير الأول الفرنسي بيير بيريجوفوا في منتصف

---

(1) Pierre Péan et Philippe Cohen: *La face cachée du Monde*, Mille et une nuits, 2003, p. 101.

التسعينيات جرّاء حملة صحافية استهدفته بسبب قرض اقترضه من دون فوائد لشراء شقة مؤشراً على تحول دور الصحافة وعلى نظرة الرأي العام لها. كان هذا الحادث الأبرز في علاقات التنافر والنزاع بين الصحافة والسلطة السياسية بفرنسا.

أما في علاقة الحكومات الغربية ومستعمراتها القديمة، كما في علاقات الولايات المتحدة وحلفائها، فإن الصحافة تُستعمل كأداة ضغط وابتزاز ومساومة، بل تضليل. حتى أن هناك صحف في جنبات السين أو على ضفاف التايمز تعيش على هذه الحرفة المجزية، تثير هذه الحكومة بمقال، وتتهددها في لقاءات جانبية بفضيحة، وتجرّها للمفاوضة للاستفادة من رخص صيدها في أعالي البحار، أو من خشبها في أدغال أفريقيا، أو لتلك التي هي غنية نسبياً بالحصول على الإشهار، أو بحقائب مملوءة بالعملة الصعبة.

الصحافة المكتوبة مخترقة من قِبل الرأسمال الذي يُسيّرها كيفما يشاء من خلال إعلانات الإشهار، ومخترقة من قِبل أجهزة المخابرات. والحوار الذي تطرحه مشبوه في الغالب، والخبر الذي تحمله قد يكون موجَّهاً. لا تخدم الصحافة الحقيقة، بل حقيقتها.

نعم تمّت مصادرة الأكروا أو الساحة العامة، كما في تعبير الإسلامية المغربية ندية ياسين. تمَّ التحكم في الساحة العامة وتمَّ الإجهاز على الحوار الصريح. النقاش أضحى مدخولاً مغشوشاً. فكيف للصحافة المكتوبة أن تكون سلطة رابعة أو سلطة روحية في مقابل السلطة الزمنية للدولة وهي مخترقة من قِبل الرأسمال، ومن قِبل المخابرات، وقوى الضغط؟

هل ينبغي أن نلقي الحبل برُمّته، أو بتعبير فرنسي هل يجوز أن

نرمي الطفل وماء الحمام؟ كلا. تبقى صحافة ما، ولو في الأطراف، متمترسة في خندق الدفاع عن الحرية. يبقى صحافيون يُنعتون بالجانبيين والهامشيين حاملي مشعل الحرية والعدالة. وعيوب الصحافة، مهما جلّت، أقل من عيوب مجتمع بلا صحافة، كما يقول ألكسيس دو توكفيل[2].

الإعلام المرئي والمسموع

منذ غوتنبرغ ليس هناك ثورة تكنولوجية ذات مضاعفات اجتماعية وسياسية كتلك التي أحدثها الإعلام السمعي البصري. طبعاً هناك ثورة الإنترنت والتي ستكون حلقة متمِّمة للثورة المعلوماتية. الراديو والتلفزيون هما دعامة الثورة التي هيّأت لعصر الجماهير. عصر الجماهير التي تتم استمالتها سياسياً من بوق راديو أو صورة شاشة. الجماهير التي تتم مغازلتها وإغراؤها حيثما تكون وفي كل آن بفضل الراديو والتلفزيون. قوام هذه الثورة أثافي ثلاثة، الإخبار، والتثقيف أو التربية، وأخيراً التسلية. كانت هذه الوظائف ترِد على هذا الترتيب، ولكن الأولويات على مجرى التاريخ تغيرت، وأضحت التسلية أو الترفيه هي الغاية. لم تعد وظيفتا الإخبار أو التربية إلا ذريعة للتسلية، أو للدعاية. من دون الراديو لم يكن لتكون الدعاية النازية، ولا تأطير الشيوعية، ولا تجييش الجيوش أثناء الحرب العالمية الثانية وتعبئة المواطنين ورفع معنوياتهم. ولم تكن

---

(2) Alexis de Tocqueville: « Pour bien recueillir les biens inestimables qu'assure la liberté de la presse, il faut savoir se soumettre aux maux inévitables qu'elle fait naître ».

الخطة الجديدة لروزفلت (New Deal) لتجد صداها عند فلاحي الميد وست وعمال شيكاغو بعد أن اهتزَّ اقتصاد أميركا جراء الأزمة الاقتصادية العالمية. ليس بالضرورة عن طريق قول الحقيقة. الحقيقة مزعجة في الغالب.

لقد اهتمت السلطات بالراديو وبعده بالتلفزيون ووظفتهما أداة لها. ولقد أصبح الراديو في أميركا في الأربعينيات منبر رئيس الولايات المتحدة أو ما يُعبَّر عنه بمصطلح أمريكي: Bully pulpit. ولم يتخلَّف الرأسمال عن هاتين الأداتين مستثمراً فيهما، ومتدخِّلاً في ميكانيزماتهما عن طريق الإشهار، بشكل أقوى من الصحافة المكتوبة. وبعد، تظلُّ الصحافة المكتوبة شأن أقلية. الراديو والتلفزيون أبعد خطراً وأعمق أثراً. من أجل استمالة الجماهير، هذه الكتلة بلا شكل، وهذا العجين الذي يمكن أن يقولب. نعم سيدخل مصطلح جديد قاموس الإعلام نشتق مقابلاً له باللغة العربية ألا وهو التضليل (La désinformation). لقد أصاب عالِم الاستراتيجية الألماني كلاوزفيتز الرميّة حين قال إن أولى ضحايا الحروب هي الحقيقة. لا جدوى من تلمُّس الحقيقة من الإعلام أثناء الحروب. والحرب في العالم الغربي حالة مستمرة تختلف أشكالها. حروب أيديولوجية كما عرفتها الحرب الباردة، أو حروب بالوكالة يقوم بها الآخرون، أو حروب تحررية ضدّ الاستعمار، تُعرض وفق رؤية المستعمِر (بكسر الميم). ثم هناك الحروب التجارية التي لا تنتهي.

سيل المعلومات الذي يخفي الحقيقة. العالم الحر على خلاف ما قد يتبادر إلى الذهن وظَّف تقنية الدعاية لصالحه. نأى عن المصطلح لحمولته الثقيلة، ولكنه لم ينأ عن الوظيفة. عصر الإعلام

هو عصر الدعاية بشكل آخر. يُطلب منك حدّ الغثيان أن تُصوّت على هذا الشخص، أو هذا الحزب، أو أن تستهلك هذا المنتوج.. تحسب أنك تحافظ على يقظتك ونباهتك، ولكنك تنقاد بشكل مستتر وبلا وعي. تُعبّر الطرفة الأميركية عن حالة إنسان مجتمع الاستهلاك الذي يقع تحت مطرقة إعلانات التلفزيون بشكل يبعث على الضحك وعلى القَرَف في آن، حالة الشخص الذي يَهُب ليشتري أربع عجلات تحت إغراء الإعلان وبريق الإشهار، وحينما يؤوب إلى بيته يتذكر أو يتبيّن أنه لا يملك سيارة. لِم تلك العجلات إذاً؟ هكذا تذهب نباهة الإنسان أمام مطرقة الإشهار. ليست هذه الحالة كاريكاتوراً، فمن منا لم يرضخ لإغراء اقتناء أشياء لا يحتاجها؟ ولماذا يرضخ؟ لماذا يقع فريسة الإغراء؟ يُقدّم لك التلفزيون أو ملصق على الشارع الكبير إعلاناً لفيلا على جنبات الشاطئ ومنظر البحر، وبتسهيلات الأداء، ويريك صوراً لأشخاص يملؤهم الحبور وتشملهم السعادة. وتدخل في مسلسل لا ينتهي يملك عليك أنفاسك. يدجّنك. لا يمكن أن ترجع القهقرى.. وهكذا تصير الفيلا شقة، وهي لا تطل على البحر، والثمن الذي تؤدي أضعاف ما تمَّ استدراجك به. الرأسمالية تقوم على الإغراء، وواحد من أدوات الإغراء الإعلام السمعي البصري.

يستميلك المرشّح كذا الذي يكلِّم الفلاحين البسطاء بلغة بسيطة. يتكلم عن برنامجه في بلاتو ويشير إلى الضرائب، ويوقع في ذهنك أنه يريد أن يُخفِّضها، ويربط ذلك بفرضيات وأولويات وسيناريوهات. لا تفهم كبير أمر عمّا يقول، ولا عن لغة الأرقام التي يستعملها. تعجبك شنشنته أو ابتسامته. أب أسرة محترمة، يحدب على زوجته ويرأف

بأبنائه. ثم انظر علاقته بكلبه. الكلاب أو القطط جزء من الحملة الانتخابية الرئاسية. ما فصيلة الكلب الذي سيسكن البيت الأبيض أو الإليزيه؟ وبعد، أنسيت الحزن والأسى الذي خلّفته قطة آل أوباما والحداد الذي أعقبه؟ تصوّت لمرشّحك وأنت تذكر نظره المصوب في اتجاهك. تستحضره وأنت في المخدع تختار ورقة التصويت، توقن أن التغيير آتٍ.. وبعد سنوات لا يحدث التغيير وتقرأ في الصحف سيلاً من الفضائح المالية والأخلاقية عن مرشّحك الذي كان يبدو لك فاضلاً كل الفضل. هو لا يعدو أن يكون دمية، إذ الذين يمسكون زمام الأمور لا يظهرون، من عالم الأعمال (The Establishment)، أو من البنية التقنية (La technostructure).

السياسة في العالم الحديث رهينة التلفزيون. وهي في جزء منها عملية تمثيل. هناك طقوس لا مهرب منها. كيف تمسك يدك، متى تبتسم، نبرة الصوت، هل تصوب الكاميرا ملء الشاشة أو من بعيد. لا ينبغي الظهور بمظهر من يقرأ ولو أنك تقرأ من شاشة سريعة، ينبغي إعطاء الانطباع بأنك ترتجل، لحظات تأمل، كمن يبحث عن وسيلة التعبير ثم عمليات تجميلية ضرورية وإن اقتضى الحال عمليات جراحية. ثم التمثيل. وهنا تختلف المواهب والمؤهلات. ألم يعتلِ سدة حكم أميركا ممثل من الدرجة الثانية؟

والحقيقة ليست هي الشيء في ذاته، ولكن ما ينقله الإعلام. سلعة جميلة مغرية كما تبدو في التلفزيون هي الحقيقة، لا كما تَطّلع عليها فيما بعد، أو ما هي في حقيقة الأمر. سياسي كما يظهر على الشاشة يحجب حقيقته كما هو. هو ذا أثر التلفزيون والراديو. الإعلام عموماً كما يقول الفيلسوف الفرنسي ميشيل سير (Michel Serres)

يخلق واقعاً جديداً. حينما يحمل شخص ما مظلته قبل أن يتأهّب لمغادرة بيته فليس لأنه رأى إن كانت السماء ممطرة، ولكن لأن الراديو والتلفزيون قالا بذلك في نشرة الطقس. قد تعكس سماء التلفزيون سماء الطبيعة، وقد لا تفعل. كل تغطية لحدث تختلف عن الواقع. مباراة كرة القدم، مراسم جنازة، موكب رسمي، مؤتمر حزب... وهلُمّ جرّاً. التلفزيون يضفي هالة. حضرت مراسم تتويج الرئيس الأميركي بيل كلينتون في يناير 1993. لا أحفظ من ذلك اليوم إلا البرد الذي جمّد قدمَي، وصدى خطابه الذي تحمله الأبواق، وبَحة الشاعرة أنجيلو وهي تتلو قصيدة. لا شيء مما يسمو أو يتعالى، وعند المساء شاهدت المراسم كلها على شاشة التلفزيون وسط دفء البيت. صور الرئيس وهو يمشي في شارع فيلادلفيا ويُلوّح بيديه إلى الجموع. بسمته. إنه إحساس مختلف تماماً. هناك هالة يسبغها التلفزيون لا تتأتى مع الواقع.

إنه نوع من السحر، نعم الإعلام يأسر ويَسحر ويُدجّن، ولكنه يعتمد على العلم وعلى التكنولوجيا وعلى معرفة عميقة بالإنسان، بأهوائه ونزواته. يختبئ جيوش من الخبراء والعلماء في شتى التخصصات وراء التجاريين (Les commerciaux)، والسياسيين! في أميركا، وهي التي ترسم كل التوجهات في ميدان الإعلام، كما في ميادين أخرى، لا يجدون غضاضة ولا حرجاً من استعمال المصطلحات التجارية في عالم السياسية. بيع فكرة أو مقترح عوض إقناع. أو مصطلحات اللعب، لعب كرة القدم الأميركية: Breakthrough, touchdown, rain check. وقد تنتقل كما هي بلا ترجمة، مما ينقله ويلوكه المتحذلقون من أطر العالم الثالث وتقنييه.

السياسة لعب وتجارة. . . من نوع آخر، تقوم على دراسة السوق من الجانب الاجتماعي والسيواقتصادي والنفسي وهلُمّ جرّاً. توظّف كل من التجارة والسياسة تقنية استطلاعات الرأي. أنقل تحليل عالم الاجتماع الفرنسي جاك إيلول:

«يصوغ صاحب الدعاية تقنياته من خلال معرفة الكائن البشري ونزعاته ورغباته وحاجاته وميكانيزماته النفسية وردود فعله الآلية والنفسية المجتمعية كما تلك التي تغور في الأعماق، ومن خلال معرفته بالجماعات وقوانينها وتكوينها وعيوبها والمؤثرات التي تتحكم في الجماهير وحدود الإطار المجتمعي يطور آليات عمله»[3].

ليست المسألة حكراً على الأنظمة الشمولية. تبيع المقاولات الإعلامية الوهم أو تصورها كما تبيع الشركات الكبرى السلع. مثلما كانت تفعل الأنظمة الشمولية، بفجاجة أقل وباحترافية أكبر. . وبعد، ما الفرق بين قول غوبلز «إننا لا نتكلم من أجل الكلام، ولكن من أجل إحداث أثر» وقول المسؤولين الأميركيين وهم يتعاقبون دراكاً على المؤسسات الأكاديمية المحافظة أمثال Heritage Foundation, Cato Institute, American Enterprise Institute من أجل أن يغيّروا ملامح الشرق الأوسط، وفق تصورهم طبعاً، من خلال المدرسة، والمجتمع المدني بتعزيز قدراته والحكامة الجيدة. وكذا من خلال الصحافة، صحافة باللغة العربية تعكس توجهات أميركا موجهة للشرق الأوسط عبر إذاعة سوا (كما كانت تفعل إذاعة صوت

(3) Jacques Ellul: *Propagandes*, Economica, 1990.

أميركا إبّان الحرب الباردة للتأثير على الدول الشيوعية) وقناة الحرة التي سوّق لها الرئيس الأميركي نفسه جورج بوش (الابن)، وفوكس نيوز ذراع المحافظين الجدد. هذا فضلاً عن استقطاب صحافيين من دول الشرق المتوسط الكبير، من أجل أن يُسوّقوا أو يروّجوا لسياسة أميركا في الشرق الأوسط، ورديف هذه السياسة الاقتصادية العولمة. يُستضاف الصحافيون الاقتصاديون ليستكملوا تكوينهم في أروقة صندوق النقد الدولي والبنك العالمي والخزينة الأميركية. وبعد فالشعار الأميركي لفترة الأربعينيات: ما يصلح لشركة جنرال موتورز يصلح لأميركا، يتحول إلى «ما يصلح لأميركا يصلح للعالم». العولمة في نهاية المطاف أمركة، وهذه الأمركة لا تكتفي بالمنتوج المادي، ولكنها تستند على مجموعة من القيم والتمثلات والمفاهيم، تلك التي يشيعها الإعلام والسينما والموسيقى و«الشوبيزنس».

ما يراد في نهاية المطاف هو مواطن سلبي، مدجَّن، مُقولَب لا مكان عنده للحاسة النقدية.

تُعتبر الحرب على العراق في مارس 2003 حالة مدرسية لهذا التضليل السياسي والإعلامي الذي توحّدت فيه كل الوسائل من أجل تهييئ الرأي العام الدولي. أولها الدبلوماسية للتحذير من امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل: خطاب كاتب الدولة الأميركي كولن باول في أروقة الأمم المتحدة وهو يرفع كبسولة لا تتجاوز خمس سنتمترات للتدليل على امتلاك العراق أدوات الأسلحة، فرحلات مساعدي كاتب الدولة إلى دول الشرق الأوسط، ثم الجانب الإعلامي من خلال أفلام وثائقية عن انتهاكات حقوق الإنسان في العراق، ومن خلال لقاءات وحوارات مع المعارضة. كانت مواكبةُ

الإعلام قويةً قبل الحرب وخلالها وبعدها. صور لفُتوات وهي تهدم تمثال صدام في ساحة الفردوس بتاريخ 9 أبريل. صور منقولة على الشاشات الكبرى بمانهاتن غير بعيد عن مكان انهيار البرجين المعروف بـ Ground zero. ألم تكن الغاية إذاً هي التنفيس عن رغبة في الانتقام؟ لا يهم ممن، وهل اجترح فعلاً يستوجب الثأر؟ سنوات بعد حادث ساحة الفردوس سيعبِّر من كان يهوي على النصب بالمعول عن الندم. باعوه الوهم، وسوّغوا الاحتلال وغار العراق في دوامة من العنف لم ينطفئ أوارها. كيف تصمد دعاوى حقوق الإنسان أمام فظائع فتيان الجيش الأميركي وفتياته في سجن أبي غريب وهم يُمثّلون بالمعتقلين، وهم يسومونهم الخسف وينزعونهم من إنسانيتهم ويجعلونهم أشبه بالحيوانات، بل لا يحفظون للموتى أدنى حرمة. فعلى أي جرف هارٍ تستند قناة الحرة وإذاعة سوا؟

الواقع أصدق أنباء من الصور، إن كان يجوز أن نُحوّر شطر البيت الشهير لأبي تمام... حين يتاح للواقع أن يعبِّر عن ذاته. وحتى حينما يتم ذلك تكون المعركة انتهت والأهداف المراد تحقيقها اكتملت. صرخة ضمير، تنفيس عن نفس مكروبة وجماعات مكلومة ليس إلا. الواقع يفضح عمليات الخداع والتضليل، ولكن بعد فوات الأوان. لا يتغير شيء في الواقع.

ثم هناك ديكتاتور رومانيا تشاوشيسكو، والذي أطاح به التلفزيون شتاء 1988. وظفت المعارضة التلفزيون بشكل ممنهج وفجّ. أظهرت جثثاً في مدينة تيميشوارا وألقت باللائمة على جهاز سيكيرتاد الرهيب. جثث أخرجت من مستودع الأموات لتوظيفها إعلامياً.

ماذا تغيِّر هذه الحقيقة من واقع الحال؟

التلفزيون ليس وسيلة فقط، بل يتحول إلى أداة متحكمة. ليست القوى المحتجبة هي وحدها التي تتحكم في هذا الصندوق من حكومات، ومن قوى ضغط ورأسمال وأجهزة، التلفزيون يتحكم فيها. له الكلمة. التلفزيون أو الإعلام. يتحول إلى قوة مضادة، إلى سلطة. انجراف وانحراف. انجراف يتهدد الديمقراطية. لا يستطيع السياسيون شيئاً من دون التلفزيون. ولذلك يخفضون الجناح لأربابه، ويتوددون لصحافييه النجوم ويخطبون ودّهم، ويخضعون لضوابط مستشاريهم في الإعلام والتواصل وإملاءاتهم. وبعد أليس التلفزيون الساحة العامة للشأن العام؟ هو من يحدِّد أولوياتها (Agenda setting). ما جدوى تصريح في قبة مجلس الشعب، بأسمائه المتعددة، إن لم ينقله التلفزيون؟ أي أثر لنقاش مغلق في لجنة من لجان البرلمان؟ والفرق واضح بيّن مع حوار على بلاتو التلفزيون يتتبعه ملايين المشاهدين، ولو غلبت عليه الضحالة والسطحية.

الإنترنت أو الحلقة المفرغة

أحدث الإنترنت ثورة لا تقل عن ثورة الطباعة، غيّرت مفهوم المسافة الذي تهاوى، وبذلت المعلومة التي لم تعد محتكرة، وكسرت حواجز جغرافية وثقافية، ولكن ما هي المعرفة التي تحققت من هذا السيل العرمرم من المعارف كما يقول الشاعر البريطاني ت. س. إليوت صاحب «الأرض الخراب»:

Where is the wisdom we have
Lost in knowledge?
Where is the knowledge
We have lost in information?

ألا يدجِّن سيل المعلومات كل ملكة نقدية؟

غاية الشركات الماسكة بخيط شبكات الإنترنت هي الإعلان. هو البديل لمجانية المعلومات. وعلى خلاف إعلان التلفزيون أو الصحيفة فإن الحلقة بين الإعلان والبيع غير موجودة، يمكن وأنت تتهادى على موج الشبكات وقد راقك منتوج ما أن تطلبه للتو، وأن تقدم رقم بطاقة الائتمان. هذه الحلقة المفقودة تجعل الإنترنت أكثر الوسائل نجاعة في عالم التسويق.

وطبعاً لا يتم الانغمار في شبكة الإنترنت من دون أن يخلِّف المرء أثراً يجعل عملية اقتفاء آثاره وتعقّب عالمه أمراً هيّناً يسيراً. العالم العصري عالم بوليسي بامتياز، لم يعد الإنسان فيه حرّاً، يفضحه حيثما يحل هاتفه المحمول وبطاقة ائتمانه وشبكة الإنترنت. لقد تحققت نبوءة جورج أورويل حول «الأخ الأكبر» الذي يحصي على الأفراد حركاتهم وسكناتهم. الكل مراقَب من حيث يدري ولا يدري.

أما الحمولة المعلوماتية التي تنضح من شبكات الإنترنت فهي نتاج لشركات ضخمة تبذل لك المعلومات التي تريد[4].

وتضطلع السينما بدور أساسي في قولبة ثقافة ما وصياغة الرأي العام. جانب الترفيه لا يمكن أن يحجب البُعد الأيديولوجي لما يُعرف بالفن السابع. كل الأفلام التي خرجت من رحم هوليوود عن الحرب العالمية الثانية تعكس نظرة الحلفاء. كل الأفلام التي تدور رحاها في الفيتنام هي أقرب إلى تصور الأميركيين منه إلى الحقيقة الموضوعية، ولم تسلم أفغانستان التي لحقت عالم مواضيع السينما التي تعكس النظرة الملائكية لمن حلّوا بحماها لينقذوا الإنسان الأفغاني من إسار

(4) Evgeny Morozov, *The Net Delusion*, PublicAffairs, 2011.

الاستبداد والقهر وممارسات القرون الوسطى. لا ينقل الإبداع السينمائي القنابل التي تتهاوى على رؤوس المدنيين والأطفال.

أغلب المواضيع التي تُنسج عن الشرق الأوسط تعكس في سياق ما بعد 11 سبتمبر نظرة عدائية للإسلام وللمسلمين، بما فيها الدول التي ترتبط بعلاقات مميزة مع الولايات المتحدة كالسعودية. ويمكن أن يعطى المثال بفيلم «بيت آل سعود» الذي يصوِّر المجتمع السعودي جزءاً من منظومة الإرهاب واختراقه من قبل أشخاص نافذين وميسورين.. بل هناك سعي لنقل هذا التوجه عن طريق تحويل مكان الإنتاج. وقد عرفت الصناعة السينمائية طفرة في بلدان «المواجهة» الحضارية بدعم غربي وانخراط قوي للسلطات المحلية. من المجدي وفق هذا المنظور أن تتم خلخلة هذه المجتمعات من داخلها عن طريق مواضيع ذات حمولة ثقافية حيث يتوزع المشاهدون بين مؤيِّد ومعارض حول مؤشرات ثقافية واعتبارات أخلاقية. وتعتمد هذه الأفلام جانب الإثارة، وتوظِّف الجنس، ويَنصبُّ النقاش والسجال بين أنصار التحرر وبين الذين يتمسكون بالتقاليد، ويحجب هذا النقاش المشاكل الحقيقية حول التوزيع العادل للثروة وحول المشاركة السياسية وطبيعة الحكم الذي يوافق السيادة الشعبية.

ويمكن أن تضاف الرياضة باعتبارها كذلك إحدى نتاجات الصورة التي تؤثث الشاشة. وهي كذلك تعرف استثمار الرأسمال وانغمار دهاقنة الصورة، وتكون في الغالب مجال التقاء الرأسمال وعالم الصورة. لقد عرفت الرياضة نفسها تحولاً إذ أضحت نشاطاً اقتصادياً مجزياً لا علاقة له بمبدأ التباري والتنافس وتفاعل الأمم وتعارفها. وأخذت الدول الغنية تمنح جنسياتها إلى من يستطيعون أن

يرفعوا علمها في البوديوم، في الوقت الذي تسيّج سفاراتها وحدودها لمنع تسلُّل المهاجرين ومنح التأشيرة حتى لعلاج المرضى المستعصى شفاؤهم في بلدانهم، ولو أدى ذلك إلى موتهم.

الصورة استمرارية للأيديولوجيا بوسائل أخرى. وراء الصورة جحافل من العلماء ومراكز البحث. وتشبه هذه المراكز مستودعات الجملة التي تُصرّف نتاجها الفكري ليوزع بالتقسيط عبر العالم. على المجتمعات أن ترى قضاياها ومشاكلها وفق ما ترسمه هذه المراكز، فيما يخص تعليمها ووضعية المرأة وحقوق الملكية، بل كيف تقرأ تاريخها وتنظر إلى ذاتها وإلى ما يعتمل بمجتمعاتها من خلال الآخر، وعليها أن تنظر إلى الآخر من خلال النظرة الغربية. وتستند هذه المراكز إلى تواطؤ حكومات الدول الثالثية التي تأخذ على عاتقها الترويج لهذه التصورات، وكذا إلى شركاء من أكاديميين يرون واقعهم من خلال الآخر. كمن يسعى إلى إعادة ترجمة نصّ إلى لغته الأصلية انطلاقاً من لغة أجنبية. ويبلغ هؤلاء الأكاديميون حدوداً تبعث على الأسى حينما ينظّرون لما يجهلون، من خلال عدم امتلاكهم للغات الأصلية، وعدم معرفتهم العميقة والوجدانية لمجتمعاتهم وتبجّحهم بمرجعيتهم الأكاديمية ووقوعهم فريسة التضخيم الإعلامي وما يؤدّي إليه من غرور. ومن اللافت أن أغلب هؤلاء «الخبراء» لا يزيدون عن إصدار كتاب واحد، ما يطرح التساؤل إن كانوا هم حقّاً كاتبي ما سُطّر باسمهم. يظهرون وسط صخب إعلامي، ثم ما يلبثون أن يختفوا وقد أدّوا وظيفتهم التي أريد لهم أن يؤدوها لفترة زمنية محددة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل السادس

الديمقراطية بين المال والإعلام

بين نبوءة فوكوياما بنهاية التاريخ مع شيوع الديمقراطية، ودعوة حكيم اليونان صولون مسار طويل عسير. بينهما مخاض فكرة من عمقٍ فلسفي تربط بين القاعدة القانونية في مقابل نزوة الآلهة والعقل واختيار الشعب لحكّامه. من اللازم أن نتذكر المرجعية الفلسفية للديمقراطية وتلازمها والعقلانية وارتباطها بالقاعدة أو القانون ونأيها عن الميتافيزيقا. ليست الديمقراطية تقنية، واختزالها في هذا الجانب إجهاز على روحها. لم يكن هذا النظام بلا مساوئ. لقد كان اختيار الحكّام شأن الإغريق وحدهم وكان يُستثنى من ذلك العبيد والأجانب (Métèques). وكان يحدث أن تزيغ الديمقراطية من خلال حكم أقلية تصبح أوليغارشية متسلِّطة، أو طبقة غنية بلوتوقراطية نافذة... لكن ميكانيزمات اختيار الشعب أو دينامية الديمقراطية ذاتها لا تفتأ تصحِّح الأمور. ومن جانب آخر كان هناك الذين يرفضون هذا النظام الذي لم يكن يسهم في بروز القيم العسكرية والبطولة، أمثال حكام سبارتا.. ولكن مثال أثينا أصبح مدرسة، وحتى روما استنسخت كثيراً من أحكامه وفلسفته.

هو هذا المثال الذي ألهب الغرب. لا يمكن أن يُفصل الغرب

عن الديمقراطية. هي نتاج سيرورة اعتورت المجتمعات الأوروبية، وهي موضع فخاره.. حينما أخذت أوروبا تنعتق من إسار العصور الوسطى ووصاية الكنيسة وهيمنة الإقطاعيين والأسياد، وترتبط بالتراث الإغريقي الروماني، كان مما أخذت تبعثه ديمقراطية اليونان في مواجهة ملوك مستبدين يحكمون باسم الحق الإلهي. صاغ فلاسفتها مفهوم السيادة الشعبية في مقابل الحق الإلهي. فصاحب السيادة هو الشعب لا الملوك الذين كانوا يعتبرون أنفسهم خلفاء للّه (Vicaire ou lieutenant de Dieu). السيادة الشعبية وتعبيرها الإرادة العامة كما قال بذلك روسو. ويمكن أن يتم التعبير عن هذه الإرادة مباشرة من قِبل الشعب كما يزال سارياً في الاقتراع العام المباشر أو في الاستفتاء، ويمكن أن يُعبَّر عنها من خلال ممثلين لها. ولذلك فالاحتجاج والمظاهرات في سلوك الغرب وثقافته السياسية إحدى وسائل التعبير عن الإرادة العامة وتجسيداً لسيادة الشعب.. ونظّر مونتسكيو بنبرة هادئة لتوازن السلط التي من دونها لا تستقيم الديمقراطية. فكل من يملك سلطة مجبول على أن يستبد، والحكمة تقضي أن توقف السلطةُ السلطةَ. ولَكَم يظل هذا التعريج التاريخي راهنياً في حاضر كثير من الشعوب الثالثية وبخاصة في العالم العربي الإسلامي. كل تمارين الديمقراطية من دون سيادة الشعب عبث وجري وراء طواحين الهواء.

لم يكن تجسيد سيادة الشعب بالهيّن، ولم يكن يكفي أن يقول بذلك فلاسفة ويكتبوه فيغضبوا كثيراً من النبلاء والأمراء، كان لزاماً أن تنهض الشعوب، وكانت فرنسا حاملة المشعل وقبلها الولايات المتحدة في حربها التحريرية عن التاج البريطاني. تخضّب هذا

التحرير بالدم وكان في أحايين كثيرة مريراً كما كان المخاض عسيراً. . كانت الديمقراطية تحريراً للشعوب، ولم تتحرر الشعوب بقدرة قادر، بل بفضل تبصُّر مفكريها وشجاعة قادتها ونضال شعوبها. وحتى حينما تستهوي إرادة الاستبداد حاكماً أو أسرة، تنهض إرادة الشعوب ثانية. سالت الدماء في انتفاضة باريس 1832 في ذلك المشهد الرائع الذي صوره فيكتور هوغو في رائعته **البؤساء**. في استماتة شباب تشبَّعوا بفلسفة الأنوار، وشيوخ أمضّهم الظلم والقهر، ونساء مزّق الاستغلال أوصال أسرهنّ، وأطفال امتزج لديهم التمرد باللعب واللهو. انصهروا كلهم في الانتفاضة، وها هو ذا صوت الطفل غافروش يترنم ضاحكاً هازئاً: إنه خطأ فولتير، إنه خطأ روسو قبل أن يترنّح متلعثماً وقد أصابته رصاصة، ثم يسقط وقد أردته ثانية. ماتوا ميتة الأبطال من أجل تحرير الجنس البشري. ماتوا وهم يقاومون وقد نفدت المؤن وشحّت الذخيرة. ماتوا ميتة الأبطال وهم يساقون إلى الإعدام.

الديمقراطية هي ضمير متجدِّد وتضحية لأنها كانت معرّضة دوماً للمصادرة.

نعم، لازم الديمقراطية مسلسل تقني من أجل السعي لبلورة مفهوم الإرادة العامة. لم يكن حقّ الاقتراع عاماً ولا كان يشمل النساء. كان يفترض في أحايين كثيرة أن يكون الناخب مُلْزَماً، أي أن يؤدي ضرائب، وبمعنى آخر أن تكون له مِلكية. كانت تطبيقات الديمقراطية تقوم على إقصاء شرائح واسعة من الذين لا يملكون شيئاً ولا يمثلون شيئاً. في الولايات المتحدة قامت التجربة الفتية لديمقراطيتها على إقصاء للسود. لا يُعبأ بهم ولا يُؤبه لهم. يد

عاملة، بل عبيد، ما أدى إلى حرب انفصالية بين الجنوب الاستعبادي والشمال التحرري.. ولكن واقع الحال لم يتغير رغم انتصار الشمال. مأساة لم تبرأ منها الولايات المتحدة إلى اليوم. مأساة عبَّرت عنها الكاتبة الأميركية الزنجية الحاصلة على جائزة نوبل توني موريسون في رواية رائعة تنضح بالألم: **المحبوب** (*Beloved*).

كانت الديمقراطية في أوروبا وفي الولايات المتحدة ثورة. كانت تعبيراً عن سيادة الشعب. وكان مما اقترن بهذه الثورة شيوع التعليم والمعرفة. لم يكن لتستوي الديمقراطية لو لم ينتقل الفلاحون والعمال من الجهل إلى المعرفة التي تتيحها لهم قراءة بيان أو صحيفة، ومن ثمة إحداث رأي عام. ولكن تطبيقاتها لم تكن دوماً بالزاهية. ظلت مثالاً وبقيت مرجعية، واستعاض عنها بعض من الباحثين بمفهوم آخر، قريب منها، هو تعددية الحكم أو مصادره (Polyarchy)، واستطاعت البورجوازية والأسر النبيلة أن توظف الديمقراطية لصالحها، وتُحوِّر من أجل ذلك فلسفة الديمقراطية النبيلة من كونها حكم الشعب إلى صالح الشعب.

لقد أدركت الأحزاب الشيوعية هذا الخلل واعتبرت الديمقراطية بنية فوقية لتسويغ هيمنة البورجوازية. إنها نوع من التضليل. وتوزعت الأحزاب الشيوعية بين تلك التي لا ترى جدوى من أن تنخرط في مسلسل انتخابي مغشوش من الأساس، وبين تلك التي كانت ترى ضرورة إسماع صوتها ولو من داخل مؤسسات بورجوازية غير تمثيلية. وكان لماركس أن يعطي تحكيمه، ليميّز بين المجتمعات التي تنعم بهامش أكبر من الحرية، كبريطانيا وفرنسا، حيث يجوز الانخراط في العمليات الانتخابية، وبين الاستعاضة عنها بالعنف

الثوري حيثما تنتفي الديمقراطية. نعم، كانت الشيوعية تحدّياً حقيقياً للديمقراطية البورجوازية، كانت نقداً لها وبديلاً يستهوي أفئدة جحافل من المثقفين وشرائح واسعة من العاملين. وانتقل هذا التحدي من تناقض داخلي وسط المجتمعات الغربية إلى بديل كوني مع قيام أولى تجارب ديكتاتورية البروليتاريا في ما كان يُعرف بالاتحاد السوفيتي. ماذا يفيد أن تكون حرّاً إن كنت مقهوراً؟ ماذا يفيد أن تدلي بصوت وأنت تتضور جوعاً؟ واهتزت الديمقراطية في مجتمعات أوروبا، في كل من إيطاليا وألمانيا بتجارب جديدة وظّفت الديمقراطية من أجل الإجهاز عليها. كانت كل من الفاشية والنازية تهزآن بالديمقراطية. كانتا تريان فيها عقيدة ضعفاء ومسرح سجال غير مجدٍ، كما في تجربة حكومة فايمار التي حكمت ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى. كانت الفاشية ترى وجوب تَوحُّد جهود شعب كما تتوحد السنابل في إبّالة (قبضة السنابل) (Faisceau)، ولن يتم ذلك إلا وراء قائد يُري الوجهة كما تفيد الكلمة الإيطالية Duce ذات الأصل اللاتيني. ولذلك رأت في الديمقراطية تشتيتاً لمكونات أمة، وعبثاً في غياب قائد وتناثر مراكز القرار التي يشلُّ بعضها البعض. أما النازية فكانت إحدى تمثلات الإنسان الأسمى الذي يستمد جذوره ليس من التراث اليهودي المسيحي، وليس من التراث الإغريقي، بل من الجذور البربرية لأوروبا. إنسان جديد من أجل تحقيق نموذج الأبطال لا التجّار كما في ديمقراطية بريطانيا وفرنسا اللتين تنخرهما الدعة والسعي وراء المتع المادية والمال: الأبطال الذين يعيشون من أجل هدف ويموتون إن اقتضى الأمر ذلك من أجل مثال، لا التجار الذي يقايضون ويمالئون. لذلك كان انتصار الحلفاء

على دول المحور في الحرب العالمية الثانية انتصار فكرة أكثر منه درءَ خطر حرب عدوانية لدولة تريد أن توسِّع من مجالها الحيوي.

ومع ذلك لم يعد من الممكن التستُّر على عيوب الديمقراطية. ليست هي أحسن النظم، بل أقلها سوءاً، أو بتعبير تشرشل هي أسوأ نظام إذا نحن تركنا جانباً الأنظمة الأخرى. لم تعد الديمقراطية تُعرَّف بفضائلها، بل بعيوب الأنظمة الأخرى، بعيوب النازية ومساوئ الشيوعية. وبعد، ألم تستهوِ النازية جزءاً كبيراً من فرنسا؟ لم تكن حكومة فيشي استسلاماً للآلة العسكرية الضاربة للرايخ الثالث بل تماهياً مع مثلها وقيمها. لم تُجْرَ بعدُ قراءة موضوعية لتجربة فيشي في فرنسا. أحياناً يطفو من عمق تقارير استخبارية «تعاون» سياسي ما مع النازية، ما يتستر عنه أصحابه بعد هزيمتها. علاقات مشبوهة لرئيس فرنسا السابق ميتيران مع عناصر من حكومة فيشي. انخراط رئيس النمسا السابق كورت فالدهايم والأمين العالم سابق للأمم المتحدة في الجيوش الألمانية المعروفة بـ«س س». تستّر الكاتب الألماني الحائز على جائزة نوبل غونتر غراس عن ماضيه النازي وخدمته في صفوف الجيش. أمثلة هي من دون شكّ غيض من فيض.

هناك عيب ما يثوي وراء الدرّة الفريدة للغرب: الديمقراطية. هناك شيء ما ينخرها. المال؟ من دون شك، وقد أشارت إلى ذلك القراءة الماركسية وكذا النازية، ثم قراءات المسيحية الجديدة كما أسلفنا عند كل من شارل بيغي وبول كلوديل وبرنانوس. المال يتهدد القيم، ويحيلها إلى سلعة وينخر المؤسسات. ثم هناك شيء آخر، أفصح عنه محرّر فرنسا في الحرب العالمية الثانية شارل ديغول هو

الأحزاب ذاتها. كيف يمكن أن تصبح أداة الديمقراطية وسيلة للإجهاز عليها؟ كان ديغول يتكلم من علياء تجربة رصدَ فيها تصرف الأحزاب، وجريها وراء السلطة، بل لهاث القياديين وراء المناصب. رأى ازدواجية خطاب الزعماء، ثم رأى انبطاحهم أمام حكومة فيشي، وقبلها رضوخهم في اتفاق ميونيخ الذي غيّر خارطة أوروبا حينما ضمَّ هيتلر إقليم السوديت التابع لجمهورية التشيك. لم يجد ديغول ذاته في منظومة التحالفات والمؤامرات وهو الآتي من المؤسسة العسكرية حيث الانضباط، وهو المشبع بالمرجعية المسيحية، حيث يُفترض أن يكون للإنسان، ومن باب أولى لقائد، مُثُل وقيم. المشكل هو الأحزاب نفسها، وبنياتها التي لا تؤدي بالضرورة إلى اختيار أحسن العناصر. الميكانيزمات البيروقراطية للأحزاب تفضي إلى وضع الخيار على من يمثلون القاسم المشترك، من يمكن أن يكونوا ناطقين باسم الأغلبية، ومؤتمَرين باسم التوجه العام، لا الزعماء ذوي الكاريزما والذين يواجهون الصعاب ويبتكرون أمام النوائب المدلهمات. انتهى كل ذلك. القادة لا يمكن أن يخرجوا عن النص. عن نص مُعَدٍّ سلفاً من لدن بيروقراطيات إدارية أو حزبية. وهو نفس التقييم الذي سيجريه بعد نصف قرن هنري كيسنجر في كتاب قيّم **الدبلوماسية**. البيروقراطيات الغربية كما المؤسسات التمثيلية الغربية لا تفضي إلى بروز العناصر المتميزة. لا مكان للأرستقراطية التي حكمت أوروبا وتميزت بنبلها وقيمها وثقافتها. كانت عبارة عن نادي يتجاوز الأمم، ويرتبط بالمصاهرة، ويشترك في منظومة أخلاقية واحدة بل في معرفة لغات أوروبا. زعماء اليوم وقادته يقرؤون خطباً مكتوبة سلفاً، بلا نكهة. خطب

تملؤها الأرقام وينتهي أثرها بمجرد أن تُتلى، إن لم تصادفها فضيحة. من اللافت هذه العلاقة بين الاندحار وتواري الخطباء المُفوَّهين. الديمقراطيات الحديثة لم تعد تنجب خطباء مصاقع (جمع مصقع) أمثال جان جوريس أو دزرائيلي أو ديغول أو تشرشل، بسبب هذا الانجراف الذي عرفته العملية الديمقراطية بداخل الأحزاب وتطور الإعلام. على القادة أن يخضعوا لما يسميه غوشي بالمكيافيلية الجديدة. عليهم أن يُغلّفوا تصرفاتهم المكيافيلية التي تبرِّر الوسيلة بغطاء إنساني. عليهم أن يذرفوا الدمع أمام كاميرات التلفزيون. عليهم أن يشفعوا تسلقهم بدعاوى نبيلة. عليهم أن يدحضوا تهمة المنصب ورفضهم له لولا ضغوط واعتبارات موضوعية رغم تلمظ شفاههم له وسعيهم المحموم وراءه. عليهم أن يبدوا عن مؤهلات للتمثيل. هو ذا المطلوب منهم.

المال لا يُبقي ولا يذر

ثم هناك المال. المال كعامل من عوامل تعرية الديمقراطية. تكاد الديمقراطية ونظام السوق أن يكونا متلازمين، لا تستقيم هذه إلا بتلك. قد يكون هناك نظام سوق من دون ديمقراطية، ولكن لا يمكن تصور ديمقراطية من دون نظام السوق. وبعد، كلاهما ينحدران من مبدأ الحرية والمبادرة الفردية. لذلك لم تسلَم الديمقراطية من مثالب نظام السوق. لم تسلَم من تغلغل المال الذي لم يوفِّر الأسرة ولا المدرسة ولا الصحة. يحوّر المال كل القيم إلى سلع، ولا تشذ عن ذلك الديمقراطية. رأينا منذ البدايات الأولى للديمقراطية في القرن التاسع عشر أن المالكين وحدهم كان يمكنهم

أن يصوتوا. كان الانتخاب كما الاقتراع شأن المالكين والأثرياء. وكان على المنتخَبين أن يردّوا الجميل للذين أوصلوهم إلى سدة الحكم كما صاح السياسي الفرنسي فرانسوا جيزو في وجه البرلمانيين والطبقة السياسية: «اغتنوا». وكم تفصح هذه الجملة عن حقيقة للديمقراطية يتم التستر عنها، وتصدق في حالات كثيرة، وبخاصة في دول العالم الثالث التي تأخذ بصورية الديمقراطية عن طريق انتخابات! ومع التصنيع أخذت الأمور في أوروبا وفي أميركا تأخذ منحى غير مسبوق من الاستعمال المكثف للمال في كل العمليات السياسية، من تمويل الأحزاب إلى تمويل المرشحين. وبلغ هذا التمويل شأواً أضحى مرجعية وإن هو بعيد المنال، كما في الولايات المتحدة. العملية السياسية معقدة، وتضم إلى جانب الانتخابات عمليات أخرى مثل الدفاع عن برنامج أو التصدي لآخر، من استقطاب خصوم وحلفاء من عالم السياسية وعالم الصحافة وعالم الأكاديميين. عملية مستمرة. كل هذه العمليات مكلفة مادياً. يتدخل القانون ليضبطها لضمان الشفافية والنزاهة، ولكن القانون متخلِّف دوماً عن الواقع. جوانب كثيرة تخفى، عمولات تدفع ورشاوى بأشكال مختلفة. هناك ألف وسيلة ووسيلة للتحايل على القانون، ولا يطفو إلا ما تنتشله الفضائح. الفضائح التي يُراد لها أن تفشو، أو تلك التي يقتنصها الإعلام، أو يقع عليها الخصوم، أو ما يتسرّب نتيجة أخطاء وغفلة المعنيين... هو ما يُسمّى بالمال الوسخ، تمييزاً له عن المال الملازم لتمويل العمليات السياسية.

من يمكنه أن يترشح إذاً سوى الأثرياء؟ تظل نسبة الأثرياء من الرؤساء ومن النواب ومن الشيوخ مرتفعة في الولايات المتحدة، بل

هناك أسر عريقة تتعاقب على الحكم وتهيِّئ أبناءها للسياسة وتعتبرها غايتها. عائلة كينيدي مثلاً. أو عائلة بوش التي تعاقبت على الحكم الأب والابن، وعائلة بيكر، وهاملتن، وكارليدج وسواهم. ويحرص هؤلاء على أن يميزوا الأجيال بلقب الأكبر أو الأصغر، أو برقم تسلسلي للتميز عن جدّ سابق، بيكر الثاني أو الثالث. ويظل حزب الجمهوريين في الغالب حزب الأثرياء. أما المرشحون الذين يعدمون المال فمن الضروري أن يضعوا أنفسهم تحت مظلة أصحاب المال الذين يموِّلون حملاتهم وفق تصوراتهم ورؤاهم وبرامجهم طبعاً، ولا يعدو المرشَّح أن يكون ناطقاً باسمهم، معبِّراً عن مصالحهم.. قد يأنف كثير من السياسيين المحنكين وأصحاب رؤوس الأموال الضخمة من ركوب أهوال السياسية لا عزوفاً عنها، بل لأنها تُعرّضهم لسلسة من التفتيش والتنقيب في حياتهم الخاصة والمالية، ويفضِّلون أن يدفعوا ممن لا تطفح حياتهم الخاصة بصخب المغامرات، ويظلون هم الماسكين بخيوط اللعبة. وتظل الثقافة السياسية الأميركية مطبوعة بالمكارثية، تتعقب المرشحين والسياسيين في أدق حياتهم الشخصية بلا أدنى إرعاء، من أجل طهرانية مزعومة. إذ واقع الأمر أن هذا التنقيب يخضع لحسابات لا علاقة لها لا بالأخلاق ولا بالمصالح العليا للبلد. وكم من المرشحين المحتملين ينأون عن معمعان السياسة خوفاً من لهيبها أو جحيمها، أو ما يعبَّر عنه بكلمة تفيد عذاب النار (Ordeal).

يخضع تمويل الحملات إلى سلسلة من عمليات تبرع المال (Fund raising) وتصبح في الغالب نوعاً من التعاقد الضمني بين المرشَّح والممولين أو المتبرعين. إنهم أشبه ما يكونون بحاضنين

لتظاهرة ثقافية أو رياضية. يكون مؤتمر اختيار المرشح، أو ما يطلق عليه بالتعاقد (Convention) حفلاً فنياً تؤثثه الخطب.

لقد أصبح نموذج أميركا في تمويل الحملات معمولاً به، ويشْرع المرشَّح أول ما يشرع به جمع الأموال من الممولين الكبار، بل قد يحدث أن يتم تمويل حملات رئاسية بأموال دول أجنبية من دون ترك أثر، من خلال وسائط، وعبر الأوراق المالية...

أية استقلالية لمرشَّح يصعد إلى الحكم بأموال ممولين كبار أو دول أجنبية؟

تختلف الأمور في المستويات الأدنى من حيث الدرجة لا من حيث الجوهر.

يظل جانب المال وعلاقته بالسياسة محجوباً ومضروباً بسور صفيق من الصمت المتآمر.

بعد كل هذا كيف يمكن الزعم بأن العملية الانتخابية تعكس إرادة الناخب حقّاً؟ كيف يمكن الحديث، أمام هيمنة المال، عن سيادة الشعب أو الإرادة العامة؟ أليس عزوف المواطنين عن الانتخاب ردّ فعل على التدليس الذي تتعرض له العملية والتشويه الذي ينال منها جرّاء المال؟

الإعلام أو المرآة المنكسرة

لازمت حرية التعبير الديمقراطية. لقد واكب الإعلام من خلال الصحافة ثم من خلال الإعلام السمعي البصري مسلسل الديمقراطية. لكن الإعلام لم يعد صدى لعمل السّاسة، بل أثّر من جهته في جوهر السياسة. تغيّر الفعل السياسي بفعل الراديو وبعده

بالتلفزيون. أصبح السّاسة قريبين بصورهم وأصواتهم وخطبهم، ولكن بالوقت ذاته أصبحوا هلاميين، غير شخصيين. لا يظهرون على حقيقتهم وإنما كما يعكسهم الإعلام.

لقد أضحت الديمقراطية في كفِّ عفريت، تعبث بها وسائل الإعلام كما تشاء. الإعلام ليس محايداً ولا موضوعياً، وقد انعكس أثره على السياسة من تحويله من أداة إلى فاعل. ولم تعد الصلة بين الديمقراطية والإعلام -أو التواصل بتعبير آخر- علاقة تعاون وتكامل بقدر ما صارت علاقة صدام وخداع. وكما تقول الناشطة الإسلامية المغربية نادية ياسين في كتابها الذي كتبته باللغة الفرنسية **فلتخفقي يا شراع** في نقدها للحداثة الغربية، إن الإعلام قلب المبادئ الرنانة للديمقراطية رأساً على عقب، ونسف من القواعد الأُسُس الفلسفية للديمقراطية، وشوَّه ما يُسمّى التواصلُ روحَ الديمقراطية، بل أضحيا عدوان لدودان. فالديمقراطية ميكانيزم لتمثيل الشعب، والتواصل تقنيات لتضليله والتمويه عليه[1].

لقد تغير دور الصحافي ودور السياسي من جراء هذا الانزلاق الخطر. لم يعد الصحافي يخدم مبادئ نبيلة ولكنه يلهث وراء الإثارة من أجل المال ومن أجل نجاحه المهني، بل أضحى عنصر التميز هو إسقاط السياسيين وتوريطهم بأي وجه كان: بالكذب، بالتضخيم، بالتضليل، بكشف أسرار عامة، أو إفشاء الحياة الخاصة.. فكيف إذاً لا تنبني العلاقة بين الصحافي والسياسي على الحيطة والخديعة والنفاق؟ وفي الوقت ذاته يقوم الصحافيون خضوعاً لأجندة يرسمها

---

(1) Nadia Yassine: *Toutes voiles dehors*, Le Fennec, 2003.

فاعلون مستترون برفع من يريدون. يختارون له البرنامج المؤثِّر لدى الرأي العام، في أوقات التتبع القصوى أو ساعة الذروة بحسب المصطلح المستعمل. يختارون الأسئلة، ويُنسّقون مع مسؤولي التواصل لدى السياسي حول لباسه وحركاته وطريقة صياغة أفكاره، وأسلوب التعبير عنها وترددها... ثم هناك سيل من مسؤولي الإعلام المكتوب والمسموع والمشاهَد يتلقَّفون خرجة السياسي ليستخرجوا منها جملة صغير أو فكرة «نيّرة» يرددونها في وسائل إعلام أخرى ويجعلون منها كرة ثلج. إنه مسرح مرايا تعكس كل واحدة صورة الأخرى إلى ما لا نهاية. إنه خطأ البصر يصوغه مسؤولو التواصل بتواطؤ مع الإعلام. مصير السياسي مرهون باللعبة التي يُخضعه لها مسؤول التواصل والإعلام. يرقب تموجات تصريحاته على سُلّم استطلاعات الرأي. كم نقطة كسب أو كم نقطة خسر. مصيره يحدده الإعلام لا الناخبون الذين ائتمنوه على رسالة. ويخشى السياسي الإعلام أكثر من الواقع، وترتعد فرائصه لخبر مقال سيصدر، وتتلمظ شفتاه لدعوة إلى مقابلة معيّنة. يتأوّد كما تتأوّد الراقصة لإرضاء نزوات الإعلامي، كما لو أن الإعلامي إقطاعي يفتل شاربيه ساهياً لاهياً، قبل أن يلقي على الراقصة (السياسي) ورقة مالية. يخضع السياسي لتوجيهات مستشاره في التواصل ونصائحه، أكثر مما يستمع إلى المسؤولين التابعين له. ولا يتستر مسؤولو التواصل عن إفشاء حقائق «أسيادهم» يوماً ما أو في مناسبات معيّنة. يختارون الوقت المناسب والمخاطب الأنسب من ماسكي الخيوط. وقد يعمدون إلى أسلوب أكثر أثراً بأن يصدروا كتاباً أو يقدِّموا تصريحاً. كتاب قبل الانتخابات مثلاً. حقائق مثيرة تسيل لها اللعاب.

لقد أدرك الصحافيون هذا الدور، وهم يوظفونه لا خدمة لما تقتضيه الديمقراطية من حُسن تمثيل ولا ما تدفع به حرية التعبير. هكذا أصبح السيد مَسُوداً والخادم سيداً. أصبحت السياسة مسرحاً للتسلية، أو Show. يعزف المرشح الساكسفون، أو يشرب أقداح بيرة إلى ما لا نهاية في مهرجان لها بافاريا، أو يرقص رقصة البولكا وهو يترنح سكراً خارقاً قواعد البروتوكول، أو يأكل كل ما يقدَّم له ويتلفظ بجمل مبتذلة وهو يتردد في أجنحة معرض فلاحي، وقد يبدر ما ليس بالحسبان، فيرفض فلّاح أن يسلم عليه، فيجيبه بكلام ناب... حتى في حالات مصيرية تخضع هي الأخرى لإخراج سينمائي: حينما حلَّ الرئيس بوش الابن إلى بغداد ليمضي حفل Thanksgiving مع الجنود الأميركيين. وحينما تتكلم كاتبة الدولة السابقة كونداليزا رايس في برنامج لقاء الصحافة الذي يُبَث صباح الأحد ويحظى بنسبة استماع عالية، تتحدث كيف أنه تمَّ تسريبهم من أماكن جانبية من البيت الأبيض قبل أن يستقلوا شاحنة الفان وهم لا يعلمون وجهتهم. لم تتكلم رايس عن الاحتلال ولا عن المقاومة بل لم تقل كلمة عن معنويات الجنود الأميركيين. تكلمت عن الـ Show. عن الدجاج الرومي الذي تبيّن أنه كان من البلاستيك... لاعتبارات أمنية.

هو ذا جانب من اللعبة الديمقراطية، الخضوع لإملاءات الإعلام. الخوف من قول الحقيقة مخافة الانحدار في سُلّم استطلاعات الرأي.

ومع ذلك تبقى الديمقراطية معبودة، كصنم تُقدَّم له القرابين. يتم الدفع بها كما يتم الدفع بقيم «الجمهورية» في فرنسا أو الدستور في

الولايات المتحدة، باعتبارها المقدّس. يهُبُّ الغرب في انتفاضة لا تخلو من «أريحيته» من أجل نشر فضائلها. يستعيد مهمته الحضارية، في زمن آخر وبوسائل أخرى وسياق آخر. يريد أن ينشر «أفضال» الديمقراطية، يريد أن يشاطر «البرابرة» نتاجه، فيصوغ سياسة مغرية وغرّة، النظام العالمي الجديد الذي أقامه على أنقاض ضحايا العراق في عاصفة الصحراء والذئب المراوغ. لم تعد الصحافة الطابور الخامس كما يقال، بل المقدِّمة للجيوش وللعمليات العسكرية. وهكذا تبدأ الحرب الإعلامية قبل الإطاحة بهذا النظام أو إضعافه أو الضغط عليه، من أجل مبدأ نبيل مزعوم ومهمة حضارية وهمية.

لقد سعت كثير من الأنظمة التي كانت مرتبطة بالولايات المتحدة إبّان الحرب الباردة عقب سقوط جدار برلين إلى إعادة تأهيل سياسي عن طريق انخراطها في موضة الديمقراطية وفق الأدبيات التي تبثُّها تقارير كاتب الدولة في الخارجية، وترددها منظمات غير حكومية ومراكز بحث حول انتخابات نزيهة وشفافة تحت أنظار مراقبين دوليين. سيجول شباب من أميركا لا يعلمون كبير أمر عن ثقافة أمم سيحلّون بها بصفتهم خبراء أو ملاحظين، وهم لا يدركون خلفياتها التاريخية لكي يلتقوا بمسؤولين لهذه البلدان وليعطوهم الدروس في علميات الانتخابات والمسلسل الديمقراطي. سيرضخ هؤلاء للعبة، عن غير إيمان طبعاً. سيرضخون للشكليات، لأن العمق معقّد ولا يجري أمام الأنظار. العمق حالة سوسيولوجية معقّدة هم من يتحكم فيها. ستكون الانتخابات نزيهة وشفافة تحت أنظار المراقبين الدوليين الذين لن يقفوا على مواطن الخلل. ستلتف تلك الأنظمة على العملية بمتن قانوني ملتبس لا فيما يخص قانون

الأحزاب، ولا فيما يخص عمليات الانتخابات وأشكال الاقتراع. كل هذا المتن القانوني والمسطري (الإجرائي) من أجل ضبط مسلسل الانتخابات فضلاً عن التحكم عن بُعد في كل الولاءات وتحريك الارتباطات القبلية والأعيان... سيعلن الصحافي الأميركي الكبير روبرت كابلان عن زيف العملية وسيرسل قولته على متن مجلة حصيفة **ذا أتلانتيك** في «الانتخابات لا تصنع الديمقراطية».

وحتى أميركا لم تعد تؤمن بنشر الديمقراطية في أرجاء العالم. نعم جيّشت الجيوش في تلك الفترة الانتقالية التي أرسلت مبادئ الديمقراطية كأنموذج لسياستها الخارجية بديلاً عن سياسة الاحتواء التي سادت الحرب الباردة. تلا مستشار الأمن القومي للرئيس كلينتون ربيع 1993 أنتوني ليك خطاباً في مؤسسة جونز هوبكنز حول قيم الديمقراطية، وجيّشت أميركا الجيوش لإزاحة الحاكم العسكري لهايتي سدراس الذي أتى إلى السلطة عبر إطاحته بحاكمها الأب أرستيد. عملية انتقائية في بلد فقير تحت تأثير الكَنَسية. عملية استعراضية غير بعيدة عن كوبا.. سياق ما بعد 11 سبتمبر عصف بهذا كله. الديمقراطية ذكرى بعيدة. الاعتبارات الأمنية تَجُبُّ ما قبلها وما بعدها في الحرب ضدّ الإرهاب. سِجِلّ حقوق الإنسان والديمقراطية لا يُعتد به في تقييم الولاءات.

إن محلِّلاً ذا باع طويل وذا علاقات مع نافذين، فريد زكريا، صاغ مفهوماً جديداً لاعتبارات مصلحية، مصلحة أميركا: الاستبدادية الديمقراطية. قبض وبسط، ضبط وانفتاح. انفتاح محدود في دائرة النخب المضمونة للغرب والحاضنة لقيمه.. ليس من الضروري الخضوع للديمقراطية لأنه حيثما تطبَّق في أوروبا الشرقية تأتي

بالأحزاب الشيوعية، وبالأحزاب الإسلامية في العالم العربي والإسلامي.

لقد اقترنت الرأسمالية الصناعية بالديمقراطية، أما الرأسمالية المالية فلا ترى في الدولة ولا الثقافة ولا الديمقراطية إلا حواجز تعيق مسيرة العولمة. العولمة سوق بلا حواجز، والديمقراطية تنتصب عائقاً، باعتبارها تعبيراً عن الهوية السياسية لدولة، مثلما الثقافة هي تعبير لهوية أمة ما. هناك تضارب لا يمكن أن يستقيم بين منطق العولمة التي تجري وراء الربح والمصالح الخاصة والدولة التي من شأنها أن تعمل لفائدة المصلحة العامة، والدولة هي الحيّز الذي تنطبق فيه الديمقراطية. لا يمكن تصور الديمقراطية من دون أمة، من دون حيّز جغرافي محدّد ينبني على الإيمان بقيم مشتركة، ولْنُسمّه بالأسطورة المؤسسة. لا ترى العولمة في كل هذه الأدبيات إلا رَسِيساً لماضٍ، إلا شعبوية تأتي إلى سدّة الحكم بشعبويين يوقفون عجلة السوق ومسلسل التاريخ. يتعامل كبار الرأسماليين بكلبية وبراغماتية. يوظّفون الإعلام المرتبط بهم من أجل انتقاد الديمقراطية وبخاصة في الاقتصاديات الناهضة، ويشيعون أدبيات منظّريهم، ويرتبطون بجحافل التكنوقراط التي تلتف حول المقتضيات الديمقراطية وتستطيع أن تمرّر تقنياتها وخطابها لممثلي الشعب الذين بقدرة قادر يتحولون بين عشية وضحاها من منتقدين لهيمنة الرأسمال العالمي إلى مدافعين عنه، من معترضين على أدبيات الصندوق الدولي والبنك العالمي إلى تلاميذ نجباء لا يحيدون قيد أنملة عن خطوطه التي يرسمها. كل الوسائل متاحة من أجل تدجين السّاسة وردّهم إلى الجادة. هناك تقنيات المغازلة، وهناك الإغراء، وهناك

سحر الأرقام التي تُقدَّم. . لا يختلف الأمر بين الدول الصناعية الكبرى حيث الكلمة الأخيرة لكبريات المؤسسات المالية، ذات الأدبيات الهيروغليفية التي لا يفقهها السياسيون، وبين الدول الثالثية التي تأخذ بصورية الديمقراطية. ما جدوى الانتخابات؟ تمرين للتنفيس، وبعدُ يتم اختيار تكنوقراط يفقهون لغة المؤسسات المالية وعلى دراية بأدبيات العولمة ليتسنّموا ذرى السلطة. . لا حاجة إلى أن يكون المرء ذا تصور سياسي معيّن ولا أن يخضع لإرادة الناخب. . عبث كل ذلك وهراء. . المهم هو التسبيح بحمد العولمة، هو ترديد طقوسها. . إن الإجهاز على الديمقراطيات الفتية ليس نزوة مستبدين أو بيروقراطيين فاسدين، بل هو الانخراط في روح العصر. عصر يريد تكنوقراطيين قادرين على أن «يردوا» كما في لغة التكنوقراط (Deliver)، وعلى أنظمة هذه الدول أن تجدَ الوسيلة لضبط ضغط الحركات الديمقراطية وتصريف دعاوى الخصوصية. وهكذا يصبح شعار الديمقراطية في العمق تستُّراً على الرغبة في الإجهاز عليها. يتمُّ اغتيال روح الديمقراطية بالتمسك بحرفيتها والإجهاز على فلسفتها بالتمسك الأعمى بتقنياتها.

تهلهل سدى القيم المشتركة

لقد قام الغرب على عمق ديني رغم مرجعيته العلمانية. لقد كان التراث اليهودي المسيحي هو المَعين في خضم التحولات التي عرفتها أوروبا، أو التي اعتورت أميركا. لقد ترجمت فرنسا كيان الكنيسة إلى بناء علماني هو الدولة، وظلت المرجعية الدينية من حيث القيم أو حتى قوالب الكنيسة ومفاهيمها تسكن بناء الدولة. وبالوقت ذاته بقي

اليمين في أوروبا مؤتمناً على قيم قريبة من الدين ومن مصدره، مثل الأسرة والسلطة والانضباط والتراتبية واحترام التقاليد.. إلّا أن التحولات التي عرفتها أوروبا عصفت بذلك كله، عصفت بالقَوام الديني، وما لبث أن أخذ معه القيم الأخرى التي أخذت تتهاوى كقصور من ورق. أو كما يقول تود في كتابه **ما بعد الديمقراطية**:

«إن مصدر ما نعانيه من تردٍّ مردّه أزمة دينية. وكأنما ما حدث ما بين عامي 1965 و2007 من تهاوي صروح العقيدة أفضى إلى آلية تحلُّل سياسي شامل. إن الطبيعة شبه الدينية للمعتقدات السياسية الكبرى أمر مسلَّم به من الناحية السوسيولوجية»[2].

لقد حرّرت العلمانية الإنسان من الخرافة، ولكنها لم تبرئه من قلقه، وأفضت به إلى الجري وراء المادة والجنس والعنف.. وهي ميادين كان الدين فيما سلف يتحكم فيها ويضبطها.

والذي حدث هو أن السياسة أضحت جرياً لأفراد وراء السلطة. كل ما يشاع من برامج ومن تصورات هراء وعبث. فالبرامج والأحزاب مطية للسلطة. لقد أدّى هذا الزيغ إلى نفور المواطنين وعزوفهم عن العملية السياسية عموماً. وهو ما يسميه عالم سياسي غي هرميت بشتاء الديمقراطية والمتمثل في ظهور تيارَين. أما الأول فيسميه بالشعوبية، وأما الثاني فيسميه بـ«الحكامة». الأول هو الذي يخضع لما يسميه بنوع من الديمقراطية التشاركية من أجل تدبير القضايا المحلية، من لدن المجتمع المدني، أو من يعتبرون أنفسهم ممثلين عنه، وأما الحكامة فهي من شأن أقلية تعكف على رسم

(2) Emmanuel Todd: *Après la démocratie*, op. cit., p. 32.

التصورات العامة سواء على مستوى الاقتصادي أو الاجتماعي أو السياسي، من خلال أشخاص معيّنين أو مقرّبين يكونون في منأى عن تقلبات الناخبين وتحولات الرأي العام.

أما من حيث المآل، فإن الديمقراطية لا تفضي إلى ظهور إنسان متميز، بل إلى إنسان مخاتل، وإلى استبداد من نوع خاص كما يقول خبير فرنسي في العلوم السياسية[3]. لقد ارتبطت حركات تحرير أوروبا من النظام القديم، وأميركا من الاستعمار البريطاني، بانخراط أرستقراطيين في مسيرة التاريخ ودفاعهم عن الطبقات المهضومة. كانت هذه القفزة خارج قوالب الطبقات هي التي هيّأت للثورة الفرنسية وقبلها للثورة الأميركية، وصاحبت كل مسلسل التمثيل في أوروبا وأميركا، من خلال أرستقراطيين وبورجوازيين يضعون على عاتقهم هموم الكادحين وشؤونهم.

لقد دفعت العولمة بنخبة معيّنة لها ارتباطات أفقية مع نظراء لها في العالم، لا تتماهى بالضرورة مع مواطنيها، لا ثقافياً ولا مصلحياً، يربطها مع الإعلام تواطؤ خفي. إنها نوع من الانطوائية (Autisme) التي تتهدد الديمقراطية التي أضحت كما يسميها إيمانيول تود نوعاً من التضليل، فانعدام الغاية يبرِّر الوسيلة، وهو ما يطبع الديمقراطيات الحديثة ومن يجري وراءها[4].

---

(3) « La démocratie ne produit pas automatiquement un homme nouveau, parfait, désaliéné ». In Guy Coq: *La démocratie rend-elle l'éducation impossible ?*, Parole et Silence, 1999, p. 13.

(4) Emmanuel Todd: *Après la démocratie*, op. cit., p. 228.

الفصل السابع

التكنوقراطي سادن الحداثة

لم يَعُد العالِمُ سادنَ الحداثة. كان دوره مثلما حدّده أوغست كونت أن يقرأ الواقع بأدوات علمية (Savoir) ومن ثمة أن يتنبأ (Prévoir) ما يؤهله، أن ينخرط في الفعل لتقويم الاعوجاج (Pourvoir). لم تكن فكرة أوغست كونت إلا تحييناً لمن كان أباً روحياً له، وهو سان سيمون، الذي أوكل للعلماء دور إصلاح الاختلالات المجتمعية الناتجة عن النظام الرأسمالي. فكرة الفعل التي تضمّنها أوغست كونت، هي التي انتقلت لدى ماركس، وتحوّلت إلى التغيير، وهو ما عبَّر عنه في جملته الشهيرة: لم يزد العلماء سوى أن فسّروا العالم في حين أن عليهم تغييره...

انضاف إلى مسار الغرب دور جديد، يتم التعبير من خلال المثقف، ولو أن الكلمة باللغة العربية لا تؤدي المعنى المقترن بـ Intellectuel، وهو من ينتصب ضميراً.. صاحب المصطلح هو مدير الصحيفة التي نشر الكاتب الفرنسي إميل زولا مقاله الشهير «أنا أتهم» فيها، جورج كليمنصو.

ارتبطت الحداثة الغربية بدور متداخل للعالم والمفكر والمثقف. ينتصب الأول مفكِّكاً لشفرة العالم سواء المادي أو الاجتماعي،

ويضطلع الثاني بإسباغ المعنى، وينتصب الثالث ضميراً..

التطورات التي عرفها الغرب، وبخاصة مع الحرب العالمية الثانية، رفعت من شأن الخبير في تدبير مؤسسات ضخمة، على حساب العالم والمفكر والمثقف، وترسَّخ هذا الانزياح مع الليبرالية الجديدة. وأصبح العالم العصري يقوم على لبنة التكنوقراطي كحجر الزاوية. فهو حلقة أساسية في كل البنيات العامة والخاصة. لقد كانت الحداثة ثورة متعددة الأشكال مسّت علاقة الإنسان بالطبيعة، وعلاقته بالآخر، وعلاقة الحاكم والمحكوم، بل علاقة الإنسان وذاته، وعلاقته وجسده. في كل صور هذه الثورة المتعددة الأشكال تمخّض نموذج التكنوقراطي. بدأت إرهاصاته مع سان سيمون، واستوى دوره بعد الحرب العالمية الثانية. أضحى السادن أو حامي معبد الحداثة. وهو ماسك خيوط بنيات ضخمة، غير شخصانية، تقوم على التخصُّص والفعالية. لا يوجد التكنوقراطي لذاته، بل من داخل منظومة أو مؤسسة. قوته مستمدة من المعرفة والفعالية. هو إنسان الأجوبة لا الأسئلة.. فأصحاب المال رغم نفوذهم وباعهم عاجزون من دون التكنوقراطي. والساسة كذلك رهينو فصيلة التكنوقراط. لذلك كانت علاقة التكنوقراطي بأصحاب المال والسياسة ملتبسة، وتخضع لتدبير خاص، خارج علاقة التراتبية كما في الإدارة التقليدية وخارج الولاء كما في الإقطاع. تخضع هذه العلاقة إلى تواطؤ خفي يُلزم التكنوقراطي بعلاقة تبعية للرأسمالي أو لصاحب القرار السياسي. يدرك التكنوقراطي سموه المعرفي، ولكنه يدرك كذلك أنه مدين لسلطته إلى الرأسمالي أو السياسي. فللأول قوته المالية الضاربة، وللثاني شرعيته التاريخية أو الشعبية أو

الحكومية. يظل هامش التكنوقراطي واسعاً في مجتمع منفتح متعدِّد الأقطاب. وضع لا يرتبط فيه بمصدر واحد يحدِّد مآله ويتحكم فيه كما في المجتمعات الإقطاعية. بيد أن تعدُّد الموارد يفتح باب المنافسة الشرسة. ويدرك ذلك التكنوقراطي، ما يحدُّ من نزعته التحررية والاستعلائية. وعلى خلاف المجتمعات الإقطاعية حيث يصبح الخادمُ أو ما كان يعرف في تاريخ فرنسا بـ Sénéchal الماسكَ الوحيد بالمعارف والأسرار والدواليب ويصبح بحكم القوة لا بديل عنه، بل يتحول إلى الحاكم الفعلي، فإن التكنوقراطي، في العالم الغربي، يتحرّك في مجتمع تطبعه المنافسة الشرسة. حتى في المجتمعات المتقدمة لا يُعفى التكنوقراطي من تمرين التودُّد، هو من يحوم حول رجل المال أو السياسية، بسُبُل عديدة من أسباب التقرب، عن طريق تصريح يُشيد فيه بتوجه السياسي أو الاقتصادي، عن طريق مقال، خلال لقاءات جانبية في حفل كوكتيل حيث ينسلُّ ليسرِّب جملة. فرجل السياسة ورجل المال لا يوظف إلا من يريد أن يضع خبرته لصالحه في مستوى مراكز القرار أو المواضع الحساسة. ينتهي الأمر بهؤلاء إلى إرساء حاشية، حيث تقوم دوائر متتالية وفق حلقات كما لو أنها كواكب تدور في فلك «شمس» السياسي أو الاقتصادي، تلتزم صراحة أو ضمنياً بولائها -ولو أن الولاء في المجتمع العصري غير قارٍّ، على خلاف المجتمعات الإقطاعية- وعلى ضمان السرية. وهذا شيء مهم، وهو يدخل في إطار قواعد اللعبة التي يعمل بها الفاعلون. طبيعة السلطة سواء كانت سياسية أو مالية في أي مجتمع لا تختلف وإن تعددت أشكالها. تكنوقراطي اليوم هو بمثابة مرتزق حكّام إمارات إيطاليا إبّان عصر النهضة

(Condottieri)، مستعد أن يخدم أياً كان. ليس للتكنوقراطي ولاء ثابت لذلك فهو لا يجد غضاضة أن يتحول حيثما تكون مصلحته: ليس له ولاء لحزب، أو لمنظومة فكرية، أو حتى لوطنه. وطبيعة التكنوقراطي لا تختلف في الدول الغربية المتقدمة، ولا حتى في الدول الثالثية، فالأول هو النموذج، وغالباً ما يكون تكنوقراطيو العالم الثالث قد سلكوا نفس السُّبُل وتردّدوا على نفس المدارس العليا وذات الجامعات، ويرتبطون أحياناً بعلاقات دائمة في إطار قدماء مدرسة ما، أو جامعة ما (Alumni). طبيعة عملهم تجعلهم دوماً في لقاء مع نظرائهم، في اجتماعات أو لقاءات أو ندوات. فقطاع البترول مثلاً في الدول المصدّرة له يُسيّره تكنوقراطيون مرتبطون ارتباطاً وثيقاً مع نظرائهم الغربيين سواء على مستوى التنقيب والاستخراج وتقنياته وما يرتبط بذلك من عمليات ترخيص وتنقيب وتصفية وتحويل، ما يعني تدخُّل كل من المهندسين والحقوقيين، ثم هناك جانب التسويق وهو عالم تتداخل فيه سلسلة من الفاعلين من التقنيين والماليين وشركات النقل البحرية والتأمين، هذا فضلاً عن تكنوقراطيي وزارات البترول الذين يُظلّون هؤلاء جميعاً. إنها دولة داخل الدولة. وبتعبير آخر إنها بنية منفصلة عن المجتمع وعن الدولة على السواء. يمكن أن نقول الشيء ذاته عن قطاع الفوسفات في المغرب، حيث يدار بناءً على مستلزمات الطلب الخارجي والمعايير التقنية والتدبيرية العالمية. لهؤلاء رواتبهم المرتفعة التي لا ترتبط بسُلّم الأجور الجاري به العمل، فضلاً عن التعويضات الخيالية، وهم في الغالب يقطنون أحياء راقية تكاد تكون خاصة بهم وبالطبقات العليا في المجتمع، كما أن أولادهم يرتادون أحسن المدارس

والكليات ذات الكلفة المرتفعة، ولهم في الغالب نفس عوائد التسوق، كبرى الماركات الدولية في اللباس والعطور والسيارات، ولهم نوادي خاصة بهم، وأنشطة رياضية مميزة، كالغولف أو البولو أو البريدج وأحياناً الكازينوهات، وتكون النوادي الليلية مناسبة للالتقاء بنظراء لهم وحلّ مشاكل عالقة.. يُضرب على هذه القطاعات سور صفيق من السرّية، وحَجْر كبير على الحقوق النقابية والأنشطة السياسية.. والأهم هو المرجعية الثقافية المشتركة للتكنوقراطيين، بل هم يشتغلون مع متعاونين دوليين، يشاطرونهم أسلوب حياتهم ومرجعياتهم وسلوكاتهم وتقييمهم للواقع، بما فيها السياسي.. يرتادون نفس المطاعم، يقرؤون نفس الصحف: **فاينانشال تايمز، وول ستريت جورنال، ذي إيكونوميست**... ويتبادلون العناوين لكتب صدرت مؤخّراً، لهجَ بها الإعلام لواحد من كبار رجال المال أو السياسيين..

ظاهرة عابرة للقارات

نحن أمام فصيلة عابرة للقارات. فصيلة فوق الانتماءات الوطنية، وقد ازداد حجمها بحكم التوسع المعرفي وأنشطة قطاع الخدمات ومجتمع المعلومات وطفرة العولمة، وبالوقت ذاته ازداد أثرها وتأثيرها. واللافت للانتباه هو أن ما كان ظاهرة أميركية محدودة، أعني انتقال عناصر من القطاع الخاص إلى القطاع العام، أصبح ظاهرة عالمية، وأصبحت عملية الذهاب والإياب من القطاع العام إلى القطاع الخاص متفشية. وهكذا في فرنسا ذات التقليد الراسخ للدولة وللمرفق العمومي، أخذ غزو شباب من القطاع

الخاص، أو دهاقنة الرأسمال في مناصب حكومية أمراً سارياً، لم يشذّ عنه حتى الاشتراكيون، وعرف زخماً مع اليمين وبخاصة مع الرئيس ساركوزي. والعملية ليست مرتبطة بموضة، بل بتوجه عام يستجيب لمستلزمات المردودية والتنافسية، بل حتى أدبيات القطاع الخاص أخذت تغزو القطاع العام أو المرفق العام. هذا الانسياب لا يتم من دون أن يحدث أثره حول مفهوم الدولة والمرفق العام والشأن العام عموماً. . . وعرفت الدول الثالثية نفس الظاهرة حيث لم يعد الفيصل الذي كان يميز ما بين القطاع العام والقطاع الخاص قائماً من حيث التسيير، إذ يُشاهَد هنا وهناك تكنوقراطيون يأتون من القطاع الخاص يديرون مؤسسات عامة بل إدارات عمومية ويتولّون مناصب حكومية، ويسبغون تصورهم على مرافق عمومية. يسهم في هذا الانسياب علاقة الدولة بالمؤسسات المالية العالمية كالبنك الدولي وصندوق النقد الدولي إذ يوحي مسؤولوها بتعيين هذا التكنوقراطي أو ذاك بدعوى معرفته بأدبيات المؤسسات المالية وتسهيل علاقة التعاون بينها وحكومة هذا البلد، بل ظهرت موجة من التوظيفات الحكومية أو في مراكز قرار تقنية في حكومات الاقتصاديات الناهضة أو التي تطمح أن تكون كذلك من تقنيين يأتون من المؤسسات المالية لصندوق النقد الدولي أو البنك العالمي. وبمجرد ما تنتهي مهام هؤلاء أو إذا اعترض مسيرتهم المهنية اعتراض ما يعودون أدراجهم من حيث أتوا، إلى ضفاف نهر بوتوماك أو نهر هدسون أو بحيرة ليمان، حيث تتعزز نبذات حيواتهم بسطر يحيل إلى منصب حكومي أو مسؤولية في بلدانهم الأصلية يوظفونه في ترشيحاتهم لمنصب ما، أو لخبرة ما، أو لمهام ما، بداخل المؤسسات الدولية أو المالية.

صندوق النقد الدولي أو البنك الدولي ليسا إلا مثالان، إذ قد ينسحب الأمر على الأمم المتحدة وعلى المنظمات التي تدور بفلكها، أو على مؤسسات بنكية عالمية. غالباً ما تكون حياة هؤلاء الخبراء المعارين قد انتسجت في الغرب في الحلقات الحاسمة من عمر الإنسان، أثناء الدراسة والشغل والزواج. وقلما يصحبون أولادهم معهم إلى بلدانهم والذين في الغالب لا يتقنون لغات آبائهم الأصلية. يشتغل التكنوقراط الدوليون مع حكوماتهم لا من منطق الولاء للوطن، أو الإيمان بقيم مشتركة، بل من منطق المصلحة، وهم يعكسون توجهات المؤسسات التي أتوا منها، ويعتبرون توصياتها وأدبياتها الحل السحري وسبيل الخلاص.

وينأى التكنوقراطي عن الخوض في الأمور السياسية في الساحة العامة، رغم تتبعه لقضاياها، لوعيه بتأثيرها على مساره. يُفضّل أن يترك ذلك للسياسيين، وهو يحتقرهم في قرارة نفسه ويخشاهم في الوقت ذاته. فهو يحتقرهم لأنه يعرف أنهم يوظّفون الكذب والرياء لاستمالة الناخب أو التمويه على مجتمعاتهم ولسطحية معرفتهم، وأحياناً لجلافة طباعهم وسوقية كلامهم. فقد يأتي المسار الديمقراطي أو الوراثي في الأنظمة الوراثية، أو المسارات الأمنية بعناصر تتولّى مقاليد الأمور غير ذات رقّة أو تميُّز، فبالأحرى ثقافة.

والتكنوقراط يخشون الساسة لأن مصيرهم مرتبط بهم، ولأن وشاية أو نَزَقاً أو حالة مزاجية تعصف بهم. ولا يتورع بعض السياسيين من إذلال تكنوقراطييهم علانية أو مواجهتهم أمام الملأ بكلمات نابية، وقد يكون ذلك مقصوداً، وقد ينبئ عما يختبئ في لا شعور القائد تجاه خبرائه. يستوي في هذا العالم المتقدِّم والعالم

الثالث. لقد عُرف رئيس أميركي باستعماله المسرف لكلمات بذيئة مع مساعديه مما أوردته كتب كثيرة عرضت لفترة إدارته، كما لم يتورَّع رئيس فرنسي عن استعمال كلمات نابية أثناء تظاهرة عامة تسرّبت إلى ميكروفونات التلفزيونات وتناقلتها الصحف.

ولذلك يحدث أن ينتفض التكنوقراطي فيسعى لأخذ الثأر. هي عملية غير مأمونة، ولكن كثيراً من التكنوقراطيين وقعوا تحت إغرائها، والغالب أن ما يحدوهم لركوب المغامرة هو اعتبارات ذاتية، إهانة ما، أو وقوفهم على حقيقة القائد ومزاجيته وتقلُّباته وأناه، أو ربما إغراء الإعلام حينما تملأ صفحات الإعلام وشاشات التلفزيون صورهم فيتملّكهم الغرور، أو تحريك قوى خفية تدفعهم وتغريهم.. لقد توجّس ميتيران خيفة ممن كان ينظر إليه كخليفة له وكان وزيراً أولاً هو ميشال روكار، وكانت النهاية هي إعدام سياسي لهذا التكنوقراطي الذي لم يكن يخفي طموحه. وانقلب بالادور الوزير الأول على ولي نعمته شيراك ورأى نفسه الأحق بالإليزيه، وانتهت الأمور إلى قطيعة وإلى صدمة آذت شيراك وغيّرت منظوره للعلاقات السياسية. وعرفت العلاقة بين الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة ووزيره الأول علي ابن فليس تطوراً دراماتياً، ونازع هذا الأخير ولي نعمته في السباق نحو الرئاسة. وقد يلجأ السياسي إلى ضربة استباقية في اتجاه تكنوقراطي واعد، قد يتحول نجاحه إلى إغراء سياسي. وما يتم في درجات أدنى لا يختلف عمّا ألمعنا له في الدرجات العليا.

ومع ذلك فما يطبع التكنوقراطي هو براغماتيته في الغالب. فهو نفعي وكلبي يدور مع الزمان كما يدور، كما يقوم أبو الفتح

الإسكندري في **مقامات الحريري**، يلتئم مع الأوضاع، لا يتحرج من التناقض، ولا من الدفاع عما لا يؤمن به. ويحدث لكبار الموظفين الدوليين أن يتفوهوا بكلام لا يؤمنون به إرضاء لدول يروق لها أن تسمع ذلك الكلام. ويفعل الشيء ذاته تكنوقراطيون مع رؤسائهم. ليس بالجلافة التي يقوم به المتملّقون كما في الحاشيات، كلا، يسبغون على أقوالهم ظاهراً من الموضوعية والمهنية. وبعد، فالتكنوقراطي محنّك، أو بتعبير أميركي فهو احترافي (Professional) لا يدع مشاعره تتسرب أو تفضحه. وقد يفعل ذلك التكنوقراط الوطنيون إيماناً بمصلحة عليا، أو حفاظاً على هيبة مؤسسة ما. ما يطلق عليه باللغة الخشبية ليس تعبيراً عن سذاجة أو بلادة بقدر ما هو تعبير عن براغماتية لا تودّ أن تفصح عن الحقيقة. اللغة الخشبية هي طوق النجاة في يد التكنوقراطي: يقول كلاماً لا يؤمن به، ويعرف أن محاوريه لا يؤمنون به هم أيضاً، ولكنه لا يودّ أن يجشم نفسه مغبّة سُبُل غير مأمونة. إنها عملية إغراق السمكة كما يقال بالفرنسية. هذا الجانب الاحترافي هو ما يجعل كثيراً من القادة يميلون إليهم أكثر مما يميلون إلى السياسيين، ويفضّلونهم في تدبير الشؤون العامة أكثر مما يفضّلون سياسيين أو مناضلين حزبيين. فهم أدوات ناجعة وطيّعة في الغالب، ولو هي لا تخلو من «خطورة» إن ارتأت يوماً أن تنتقل من عالم خبرتها إلى إغراء السياسة.

ليست هناك مؤسسة ما في أي بلد ما لا تُدار من قِبل تكنوقراطيين، ولا تنطبع بسلوكهم ولا تتأثر بخياراتهم. ولهذه الفصيلة التي تملأ الدنيا وتشغل الناس جذور أو أركيولوجيا. فهي ليست منفصلة عن مسار تاريخي تبلور في أوروبا أولاً واستوى في

أميركا. فالتكنوقراطي مثلما يقول جون رالستون شاول الذي أفرد للظاهرة كتاباً ضخماً سمّاه **حراميو فولتير، أو ديكتاتورية العقل في الغرب**[1]، يتحدَّر من المدرسة اليسوعية من داخل الكنيسة التي بدأت إرهاصاتها الأولى منذ القرن السادس عشر. لقد جعلت وكْدَها أن تُعلّم المنضوين فيها عدم الاستخفاف بأي معلومة، والتقاط أي شيء، جلّ أو قلّ، ولقد اعتبر المعاصرون آنذاك هذا الأسلوب نوعاً من الاستبداد وافتئاتاً ضد الروح، وهو ما يمكن أن ينعت بتكوين يستهدف نزع الجانب الإنساني من الشخص (Dépersonnalisation). (ترى أن مؤسسات المخابرات تقوم على هذا المبدأ إذ تعمد على جمع المعلومات حتى التافهة عن شخص ما، والتقاط أي شيء، وهذا الأسلوب يجد جذوره في المدرسة اليسوعية). ثم عمدت إلى تعليم مُريديها أسلوب الجدل. كل من تتلمذ على يد اليسوعيين عليه أن يحذق فنّ السجال، وعليه أن يتهيأ لكل احتمال من لدن خصومه ويعرف بنيتهم الذهنية.. كان تكوين اليسوعيين يتم في إطار من الصرامة والزهد مثلما تقتضي بذلك قواعد الكنسية. ولقد كان من كبار تلامذة اليسوعيين فولتير الذي أخذ عنهم فنّ السجال، ووظّفه لا لصالح الكنسية أو أي معتقد، بل لصالح الأنوار، لصالح إنسان لا يأتمر إلا بالعقل وينبذ الكَنَسية وبناءها وما تنبني عليه من تعصُّب (Fanatisme) ورفض للآخر، من أجل تحرير الإنسان.

ولكن هل رعى ورثة فولتير الأمانة حقّ رعايتها؟

---

(1) John Ralston Saul: *Voltaire's Bastards, The Dictatorship of Reason in The West*, Free Press, 1992.

نعم هم يحذقون السجال، وهم يَكْلفون بالجزئيات، ولكنهم على خلاف فولتير ينأون عن القضايا العامة. لقد كان فولتير موسوعياً، ولم تكن الموسوعية حتى من قَبل فولتير سعياً إلى المعارف وحدها، بل كانت تعبيراً عن إنسية، وسعياً إلى تحرير الإنسان مثلما يفصح عن ذلك ديدرو في كتاباته، وبالأخص في رائعته **قريب رامو**[2]. الفيلسوف هو من ينزع نفسه من كل إغراء، هو من يرفض أن يتزلّف للنبلاء وللأسياد من أجل مائدة مليئة، ولو اكتفى بالخبز القفار (الحافي) وبالماء. تلك كانت مبادئ فلسفة الموسوعيين. وقد شفع فولتير معارفه بما يمكن أن يُسمّى بالنضال ضدّ الأسياد وضدّ ظلم الكَنَسية وافتئاتها كما في قضية الضحية جان كالاس الذي اتّهمته الكَنَسية ظلماً وبهتاناً بقتل ابنه، وخلّدها فولتير في كتابه **رسالة في التسامح**. وندّد فولتير بموقف أولئك الذين رأوا في زلزال لشبونة عقاباً إلهياً. كان دَيْدنُ فولتير أن يجعل العقل في خدمة إنسية الإنسان طبقاً لفلسفة الأنوار. لقد أتى خلفٌ من بعد فولتير وظّفوا المنهجية اليسوعية والعقل من أجل النجاعة، وفصلوهما عن الاعتبارات الإنسانية. ولذلك فهم خانوا رسالته وأضاعوا ميراثه.

خيانة فلسفة الأنوار

لقد تناسلت المؤسسات التي أقيمت بعد الثورة الفرنسية من أجل خدمة مؤسسة الإمبراطورية وفق مبدأ الفعالية. أنشأ نابليون

---

(2) Denis Diderot: *Le neveu de Rameau.*

مدرسة البوليتكنيك، أو شُعَب التقنية المتعددة كما يدل عليها اسمها. تطورت هذه المقاربة مع سان سيمون الذي أرسى مدرسة تقوم على إسناد شؤون التدبير للفئة المتعلمة، وبذلك يكون أول من وضع الإرهاصات الأولى لما سوف يصبح التكنوقراط. ومن أهم تلامذة سان سيمون، الذين سوف يطوِّرون المقاربة السان سيمونية، أوغست كونت الذي اعتبر أن مصدر اختلالات النظام الرأسمالي هي بالأساس ذات طبيعة تدبيرية وليست بنيوية على خلاف المقاربة الماركسية. بيد أن أهم تجربة هي تلك التي ظهرت من رحم جامعة هارفارد إثر استحداث مدرسة هارفارد للأعمال (Harvard Business School) سنة 1908. لقد أضحى تدبير الإدارة مهنة قائمة بذاتها، وقد تأثرت بنظرية فريدريك تايلور وهو ابن الطبقة المتوسطة ومن أصول بروتستانتية والذي يُنسب إليه مبدأ التايلورية أو التدبير العلمي (Scientific management). أتى بأسلوب جديد لتدبير المعامل يقوم على رفض تصور صراع الطبقات المتشائم، وكذا التصور المتفائل الداعي إلى اقتسام الأرباح. وتدعو التايلورية عوضه إلى نظام عقلاني علمي يخضع له كل العاملين، وتتم مكافأة الذين يخضعون للمنظومة بلا جدال. وبتعبير آخر فالإنسان داخل المنظومة هو آلة، وكلما كان أداء الآلة عالياً كلما كان أداء المنظومة مرتفعاً. يُنزع الإنسان من إنسانيته. لقد كانت طريقة التدبير هذه التي طبّقها تايلور في المعامل نموذجاً لمدرسة الأعمال بهارفارد وأضحت منهاجاً لتدبير الشركات ومن ثمة المؤسسات العامة، وهي نظرية تقوم على سيادة التكنوقراط، وتدعو ضمنياً إلى تعويضهم لنخبة السياسية التي يطبعها «الفساد وعدم الفعالية».

يمكن أن نستخلص السمات المميزة للمدرسة التايلورية أو الخلية المغذّية للتكنوقراط فيما يلي:

- نزع الجانب الشخصي في عمل التكنوقراطي،
- تعويض هذا الجانب بمكافآت مالية،
- التوجُّس من السياسيين.

وهذه السمات لا تزال تطبع العلاقة بين التكنوقراطي والسياسي، ويتم الالتفاف عن علاقات التوجس هذه بحاجة السياسي إلى التكنوقراطي، ولكن في الوقت ذاته ضبطه من خلال منافسين، يغازلهم السياسي أو يقربهم، ومن خلال جوانب يحجبها السياسي عن التكنوقراطي. وهو الشيء الذي لا يقبله التكنوقراطي، لا يريد أن يستأثر السياسي عنه بشيء. إنه بضاعته. ومن جانب آخر يعمد التكنوقراطي إلى تضليل السياسي. إنها ثقافة الحريم حيث تختلق المحظية كل الأسباب للتودد لسيّدها واستئثارها به. وهكذا يحدث التكنوقراطي مشاكل جانبية ليقدِّم نفسه على أنه صاحب الحل وبالأخص ما يرتبط بالجانب الأمني. فجانب كبير من قوة التكنوقراط الأمنيين مصدره التضليل والتضخيم لأن المسألة مرتبطة بغاية وجودهم.

قوة التكنوقراطي هي المعرفة وهي الفعالية. في كل منعرج من علاقات السياسي بالتكنوقراطي تذلل الفعالية ما يعتري العلاقة من صعاب وما يتخللها من انعدام الثقة. تَجُبّ كل سوء الفهم وكل ما قد يعكِّر الثقة أو الحاجة. فالبنية الذهنية للتكنوقراطي التي أخذها من تكوينه هو إيجاد الحلول لكل وضعية. وتعتمد الدراسة على ما قد يبدو نوعاً من التناقض، دراسة الحالة (Case study)، واستخلاص

القواعد من هذه الحالة. ولذلك يشتغل التكنوقراطي وفق قوالب أو سيناريوهات، ولا ينظر إلى الواقع إلا من خلال القوالب الجاهزة أو من خلال السيناريوهات. المهم ليس الواقع، وعلى الواقع أن يخضع للقوالب، وينصهر فيها. ما قد يفيد الطالب الذي يتهيّأ لأن يكون تكنوقراطياً هو نفسية شرسة، بل عدوانية. لا تُعتبر هذه النفسية شيئاً سلبياً، بل على العكس تلتئم ومقتضيات البنية الذهنية للتكنوقراطي. لا مكان للعفة ولا للأنفة، بل هي سمات لا يمكن أن ترقى بصاحبها، لا فيما يخص التكوين ولا فيما يخص الارتقاء في العمل.

تنظر مدارس التدبير نظرة ازدراء إلى كل ما يُسمّى في الغرب بالإنسانيات (Humanités/ Humanities)، أي كل ما يرتبط بالوجدان وبمسيرة الإنسان عبر التاريخ وتفاعله مع الأحداث ومع الأشياء، من دراسة للتاريخ وللآداب وللفلسفة. فهي لا تفيد لأن الطالب مهيّأ لأن يكون عملياً براغماتياً. ليس له أن يرِقّ لحالات إنسانية، وليس له أن يطرح أسئلة وجودية. للحالات الإنسانية مجالها وأصحابها وظرفها، وهو إنسان الأجوبة لا الأسئلة.

لقد أخذت بريطانيا بما انتهت إليه مدرسة التدبير بهارفارد وأنشأت مدرسة لندن للأعمال، وتناسلت المدارس عبر العالم التي تمتح من نموذج مدرسة هارفارد.

واللافت هو أن هذه الثورة انتقلت من عالم الأعمال إلى عالم الإدارة. لقد بدت المدارس الإدارية وعلوم السياسة والاقتصاد التي تمَّ استحداثها عقب الحرب العالمية الثانية من أجل تكوين موظفين عملية استنساخ لمناهج مدارس الأعمال: نماذج مجردة، لغة

متخصصة، تعابير مقعرة، تخصص... وتفضي هي كذلك إلى تكوين نفسية خاصة متعالية ومتعجرفة ترفض الواقع بل تريد للواقع أن ينصهر في قوالبها ومنظورها.

وهكذا قامت مدرسة جون كينيدي للإدارة التابعة لجامعة هارفارد بتطبيق نفس مناهج مدرسة هارفارد للأعمال على ميدان الإدارة وأساليب التدبير، واستحدثت فرنسا المدرسة الوطنية للإدارة عقب الحرب العالمية الثانية. لقد جعلت المدرسة وَكْدها، كما حدّد ذلك ميشال دوبريه الذي عهد إليه ديغول بإرسائها، تكوين طلبة من شأنهم أن يتخذوا القرار الصائب بعد تقييم المخاطر، ولهم إمكانية الابتكار اللازم مع الأصالة. كذا. عموميات. إذ واقع الأمر أن المدرسة الوطنية هي أداة لتكوين نخب حاكمة، نخبة كما قال عنها واحد من خريجي هذه المدرسة قادرة على أن تفعل أي شيء ولا شيء.

والمهم هو قيم النجاعة وعودة الاستثمار والكفاءة (Efficacité, retour d'investissement et performance) كما حددها منظّرو هذه المدرسة العتيدة.

وسواء كان التكنوقراطي خريج مدرسة كينيدي للإدارة أو المدرسة الوطنية للإدارة الفرنسية، وسواء اشتغل مفتشاً للمالية، أو مستشاراً لدى مجلس الدولة في فرنسا، أو أي إدارة من إدارات العالم الثالث، فإن لهذه الفصيلة سمات مشتركة، هي التي أوجزها شاول في الكتاب الذي ألمعنا إليه:

«ليس لهؤلاء النساء والرجال الشرسين قابلية أو استعداد للأحاسيس العامة، فطبيعة الدراسة التي تلقوها هي بالأساس جوفاء، إلا فيما يخص ما ينبغي القيام به من

أجل الاضطلاع بعمل ما أو شغل ما. وإذا حدث أن اعترض أحدهم لطريقة تدبيرهم لشغلهم، فإنهم لا يحيدون قيد أنملة عن موقفهم، لأنهم غير قادرين على قبول التسويات ولأنهم يعدمون الجذور التي من شأنها أن تؤهّلهم للنفاذ إلى الموضوع. يردّون بعناد ويدافعون بشراسة عما لا يؤمنون به في العمق. هذه الحالة النفسية المجتثة الجذور هي ما يجعل هؤلاء يخلطون السلطة والأخلاق والإدراك»[3].

ليحاولْ كل من يقرأ هذا التحليل الذي صدر سنة 1994، ويهم بالأساس المجتمعات الغربية، ليحاولْ أن يطبّقه على تكنوقراطي العالم الثالث في البلاد التي يعيش فيها ليقفَ على مطابقته للحقيقة. فغالب الذين يتولّون مسؤوليات من التكنوقراطيين في العالم الثالث ليس لهم مسار سياسي أو فكري يرتبط بهموم مجتمعاتهم وقضاياهم، وهم يعتبرون دائرة عملهم هي الحقيقة، وهم يربطونها والإدراك وما ينبغي أن يكون، ولا يقبلون أن يصدر شيء مخالف لما يرتؤون، وهم يدافعون بشراسة عن مقارباتهم التي تكون في الغالب قد فُرضت عليهم فرضاً من قِبل مؤسسات دولية أو حكومات غربية، وهم يفرضونها بدورهم على مجتمعاتهم قسراً. وتظل السلطة سواء التي يمارسون، أو تلك التي يمارسها السياسيون أهم شيء بالنسبة إليهم، أهم من الأحاسيس العامة، والرأي العام، وأهم من الواقع، وهم مستعدون لكل شيء من أجلها.

---

(3) John Ralston Saul: *Voltaire's Bastards, The Dictatorship of Reason in The West*, op. cit., p. 133.

إن عيوب التكنوقراطي في الغرب مهما جلّت، يحدّ منها توزع مراكز القرار، ووجود مراكز سلطة مضادة، ومجتمع مدني قوي وصحافة مؤثرة.. أما في العالم الثالث فسطوة التكنوقراطي تصبح نوعاً من الاستبداد غير المستنير (Despotisme non-éclairé)، ذلك أنه استبداد لا يفضي إلى حلٍّ ما يتخبط فيه المجتمع من فقر وفوارق اجتماعية وتخلُّف. فالتكنوقراطي في الغالب مجتث الجذور عن بنية مجتمعه، وجدانياً وثقافياً وطبقياً، فهو من حيث أصوله ينتمي إلى الأرستقراطية أو إلى الأسر العريقة، أو البيروقراطية القديمة، وهو بحكم تكوينه في الخارج أو تمثّله لبرامج خارجية يعدم الصلة الوجدانية مع مجتمعه ومع الواقع، وهو ثقافياً بعيد عن ثقافة المجتمع، لأنه تلقّى تكوينه بلغة أجنبية، وتتأرجح معرفته باللغات الوطنية من الجهل إلى المعرفة المتعتعة، مع احتقار لها في الغالب. ومعيار نجاحه هو أن ينأى عن مجتمعه، من خلال نظام حياته، ومكان إقامته، ومن خلال الأماكن التي يرتادها هو وبنوه... وحينما يخفق في كل ما لوّح به من مقاربات وتصورات يُنحي باللائمة على الواقع، وعلى من يُعبّر عن الواقع فينعتَه بهذا النعت الذي يحمل حمولة أيديولوجية «الشعبوية».

لقد كان التعاطي مع ملف التعليم والفقر في المغرب تعاطياً تكنوقراطياً صرفاً، وعرفَ هذان الملفان تعثُّراً بيّناً رغم الجهود التي بذلت ولم تفضِ إلى نتائج ملموسة.. ألا يبدو أن من أسباب التعثر السعيُ إلى سكب الواقع في قوالب جاهزة؟ هي عدم ربط التعليم بمنظومة أخلاق وثقافة مجتمع وطموح جماعي.. ليست المسألة هيّنة أو سهلة، ولكن أليس اعتماد مقاربات كمية سواء فيما يتعلق بعدد

المتمدرسين وعدد الأساتذة، والمنقطعين (وهي الحالة التي تُسمّى بالهدر مما يفيد شيئاً مغايراً في اللغة العربية) يحجب نوعية التعليم الذي يُراد تلقينه والذي يغيب وسط جلبة الأرقام؟ ألا يدل النزوع إلى ترجمة الكلمات والمصطلحات وما يحيل إليه من انتحال منظومات ظهرت في أماكن أجنبية بمفاهيمها وسياقها، وتفرض على واقع مغاير، استقالة فكرية؟ ما معنى أن ندفع بجودة التعليم كما لو أنه بضاعة؟ أليس المراد أن يكون التعليم نافعاً في الحياة عموماً وفي الحياة المهنية خصوصاً، ويهيّئ للمُواطَنة وللقيم الكونية؟ ألا يدل استعمال مصطلحات من قبيل العرض المدرسي إلى تغلغل المقاربة الاقتصادية وشبكة السوق في المنظومة التربوية؟ وماذا يعني «تجويد» النظام التربوي إذا لم تعد للمفاهيم مصطلحات قارة، فللتجويد في اللغة العربية معنى دقيق، ولا يمكن أن نعبث بالمفاهيم بالعبث بالكلمات وعدم تحديد مفهومها؟ أذكر بكثير من التقدير ما كان يردّده لنا أستاذ من أن التعليم الصالح هو أن تعلِّم أبناءك اصطياد الأرانب في مرج يوجد به الأرانب، وأن التعليم غير الصالح هو أن تعلمهم اصطياد الأرانب في مرج انقرضت فيه الأرانب. وأذكر مقولة أميركية كان يردّدها علينا أستاذنا في التعليم العمومي: إذا أردت أن تعلِّم اللاتينية لجون فليس عليك أن تعرف اللاتينية، ولكن يتوجب عليك معرفة جون.

ونفس الشيء يُقال عن الفقر. تنصرف جهود من أجل إعادة النظر في تقييم مؤشر التنمية البشرية، عوض أن تنصرف إلى الواقع الذي لا يحتاج إلى أرقام أو إلى مؤشرات لأنه معبِّر عن ذاته، وإلى سُبُل تغييره. ويَصرفُ التكنوقراطيون المشرفون على تفعيل برامج

التنمية البشرية جهداً كبيراً في مساطر (إجراءات) دقيقة، وفي التأثر بمقاربة بنكية وفي المراقبة الجزئية التي تفضي إلى توجس الفاعلين والمسؤولين. والمسألة ثقافية مرتبطة بنزوع التكنوقراطي إلى التمسُّك بالمسار (Processus) عوض النتيجة، والارتباط بالبنية عوض الوظيفة.

إنهم نوع من السفسطائيين الذين حذّر منهم سقراط، ومن الفرسيين (Pharisiens) الذين خانوا روح اليهودية وتمسكوا بطقوسها عوض أن ينفذوا إلى روحها وجاهروا المسيح بالعداء. لقد حاكم الأوائل سقراط وحكموا عليه بالقتل، وفتن الفرسيون المسيح. خان الأوائل روح الفلسفة، وثلم الأواخر روح الدين.

السير على بينة يفترض وجود من يطرح الأسئلة الجوهرية، وهي مهمة الفلسفة، ومن يربط التصورات والمناهج بهدف إنساني، وتلك غاية الدين. ليس الدين أفيوناً إلا حين يُراد له أن يكون كذلك.

الفصل الثامن

العيش المشترك على المحكّ

منذ 11 سبتمبر 2001، تغيّرت خارطة أولويات الغرب، وأضحى مسكوناً بهاجس الأمن، وأصبحت الحرب على الإرهاب واحداً من محددات سياسته.

ليست الحرب على الإرهاب «حرباً صغيرة» لجماعات محدودة، توظف وسائل بدائية لكي تَفُلّ من الغرب وتُقوّضه. عسكرياً وأمنياً واستخباراتياً، يبقى للغرب الامتياز ضدّ أعدائه، ولكن الطبيعة المتشعّبة للإرهاب والمعقّدة، تجعله بتعبير الفيلسوف الفرنسي أونفراي، حرباً كبيرة. لسنا أمام شيء عارض، بل هو ظاهرة بنيوية متداخلة، لا يمكن ردّها إلى عامل، وهو لذلك متطور متحول، وممتد عبر الزمن، يندرج في الزمن الطويل، الغاية منه هو الإنهاك.

تناسلت الأحداث الإرهابية، في الغرب وخارج الغرب في الدول التي ترتبط به، أو التي تتقاطع ومصالحه وتشاطر رؤاه... لسنا هنا أمام شكل من أشكال الجريمة المنظَّمة، أو الجريمة عابرة للقارات، بل أمام فعل إجرامي ذي حمولة أيديولوجية، تُسائل الغربيين، وتسائل غيرهم من بلدان العالم الإسلامي، قادته ومسوؤليه وسياسيه وعلمائه ومثقفيه وهيئاته.

نحن أمام ظاهرة معقّدة، ومتداخلة، تغتذي من الأحداث السياسية، والظروف الاجتماعية والاقتصادية وتضرب جذورها في عمق المخيال التاريخي والحضاري، استفحلت بعد سقوط جدار برلين.

البحث عن عدو

يذكر أحد كبار ضباط القيادة العليا العسكرية فيما كان يُعرف بالاتحاد السوفيتي سابقاً أنه أسرّ لواحد من كبار العسكريين الأميركيين في إحدى المفاوضات حول الأسلحة النووية أثناء مسلسل التطبيع قبل أن تنهار الإمبراطورية الحمراء: «إننا نقدِّم لكم خدمة سيئة، إننا نحرمكم من عدو».

لم تُحمل هذه الكلمة محمل الجد، ورأى الكثيرون من السياسيين ومن المحللين أن سقوط جدار برلين واندحار الأيديولوجيا الشيوعية سيفتح منادح عالم آمن، بل سيكون مؤشراً لما أسماه فوكوياما بنهاية التاريخ، الذي سوف يصادف انتصار قيم الحرية والسوق و... الضجر. ولكن محللين مؤثرين لم يستسلموا لهذه النظرة الوردية وشرعوا يبحثون عن عدو. كان من أبرز هذه الكتابات مقال لبرنارد لويس صدر سنة 1991 في مجلة **ذا أتلانتيك** بعنوان «سُعار الإسلام» (The rage of Islam)، وكان يبدو أن ما سُمّي بـ«الخطر الأخضر» مهيّأ أكثر من غيره للاضطلاع بهذا الدور. ثم كانت محاضرة هنتنغتون عن صدام الحضارات التي ألقاها في نوفمبر 1992 في معهد المشروع الأميركي (American Enterprise Institute)، معقل ما سيصبح المحافظين الجدد، وهي المحاضرة

التي ركّز فيها على الإسلام كعدو محتمل قبل أن يُنقّح محاضرته في المقال الذي نشرته مجلة **فورين أفيرز** صيف 1993.

ليست الغاية استعراض الكتابات التي عرضت الإسلام بصفته عدواً محتملاً، فلن يتسع المجال لذلك، ولكن من الضروري أن نُذكّر أن هناك ما قبل 11 سبتمبر. لا يبرر هذا ما حدث في 11 سبتمبر، ولا يبرر أي لجوء إلى العنف، في أي مكان. هناك ما قبل 11 سبتمبر، وهو جملة من تحرشات أكاديمية، وإعلامية، وتعثرات دبلوماسية في مسلسل السلام في الشرق الأوسط وتلكؤات ووعود عرقوبية فيما يخص القضية الفلسطينية.. بل صور لتطهير عرقي، ولحروب بالوكالة تخوضها أنظمة في شكل حروب أهلية. كان هناك بحث محموم للبحث عن عدو للتنفيس عن تناقضات الغرب. لا شيء يعبِّر عن هذا الشعور مثل قصيدة للشاعر اليوناني كالفاري الذي كان جعل الإسكندرية مستقرّاً له، بعنوان «البرابرة»، التي عرفت حياة جديدة في أعقاب سقوط جدار برلين. كان الحديث محتدماً عن برابرة يتهددون المدينة، وعن الترتيبات التي ينبغي اتخاذها لدرء خطرهم. وحينما أتى رجل من أرباض المدينة تكوّفت حوله الجماهير تسأله عن البرابرة، فأجاب أن ليس هناك برابرة على مشارف المدينة. نظر القوم بعضهم إلى بعض ثم قالوا لبعضهم البعض: ما نحن صانعون من دون برابرة؟

كان الإحساس قوياً بضرورة إيجاد عدو يضطلع بدور مِشجَب، تُعلّق عليه تناقضات الغرب، ووجد هذا الشعور تبريره في أحداث 11 سبتمبر.

إن هذا التاريخ علامة فارقة في علاقة الغرب والإسلام، وهو ما

سيسبغ الشرعية على العداء على الإسلام والتحامل المجاني لأوساط غربية عليه ديناً وحضارة وشعوباً. أضحى العدو النموذجي والضروري كما يقول إيمانويل تود، منتقداً هذا النزوع.

علاقات ملتبسة ما بين الغرب والعالم الإسلامي

العلاقة الملتبسة ما بين الغرب والعالم الإسلامي، لعدة قرون، أعطت للحرب على الإرهاب بُعداً ميتافيزيقياً، أو مانوياً، أي تجزيئياً ما بين الخير، الذي يمثله جانب، والشر الذي يسكن جانباً آخر، وهو ما كان عبَّر عنه الرئيس الأميركي جورج بوش الابن عقب أحداث 11 سبتمبر، بحرب صليبية، أو من ليس معنا فهو ضدنا، أو ما عبَّر عنه أسامة بن لادن بـ«الفسطاطَين» (المعسكرَين).

إن هذا البُعد الديني سواء لدى الغرب، أو ممن يجترحون أعمال العنف باسم نظرة مؤدلجة للدين، هو ما يؤجِّج الظاهرة، ويجعلها أكثر تعقيداً. فلفيف من الخبراء الغربيين ممن يجدون آذاناً صاغية لدى أصحاب القرار بالغرب، يربطون ما بين الإسلام والعنف، ويجعلونه مقترناً بالإسلام، وبنصّه المؤسِّس، القرآن الكريم. ويذهب هذا المنحى الخبير الفرنسي جيل كيبيل، (Approche essentialiste)، ومثله برنارد لويس في العالم الأنجلوساكسوني أو دانيال بايب الذي يعتبر الإرهاب حرباً عالمية رابعة، على اعتبار الحرب الباردة حرباً عالمية ثالثة. وتجدُ هذه القراءة تبريرها من لدن مثقفين من العالم الإسلامي، يجدون في مجريات الأمور تحريراً لما كانوا يتسترون عنه ولم يكونوا يجرؤون على الجهر به، واستطاعوا بعد سياق 11 سبتمبر أن يعبِّروا عن ذلك

بجرأة. لقد بدا حضور محمد أركون لافتاً في وسائل الإعلام بعد أحداث 11 سبتمبر وشرحه لسورة التوبة والأنفال وإيحائه بأنها في مضامين آياتها تدعو إلى العنف. وقد عُهد إليه ترؤُّس لجنة تحديد مفهوم العلمانية بفرنسا. ويمكن أن نعطي مثال الصحافي الأردني شاكر النابلسي الذي كان صدى المحافظين الجدد، أو كتاب **لماذا أنا لست مسلماً** لصاحبه ذي الاسم المستعار ابن الوراق، أو كتاب **داء الإسلام** (بالفرنسية) لعبد الوهاب المؤدب.

وجد هذا الاتجاه زخماً في فرنسا بعد أحداث شارلي إبدو في فرنسا بتاريخ 7 يناير 2015. تعتبر أحداث شارلي إبدو بمثابة 11 سبتمبر فرنسي، أو 11 سبتمبر صغير، مثلما يقول الفيلسوف الفرنسي ميشال أونفراي. لم يبلغ الحدث من حيث البشاعة وعدد الضحايا أحداث البتكلان في 13 نوفمبر 2015، أو مجزرة نيس بتاريخ 14 يوليو 2016، يوم العيد الوطني الفرنسي، ولكنه الحدث الذي يؤشِّر على تحول، إذ هناك ما قبل شارلي إبدو وما بعده، وأثّر ذلك في علاقة فرنسا بالإسلام ومن ثمة بالمسلمين، مثلما حدّد سُلّماً جديداً للأولويات سواء على المستوى الداخلي، فيما يخص أولوية الأمن، أو في علاقتها بالهجرة، أو الجاليات المسلمة، أو الفرنسيين المسلمين، كما على المستوى الخارجي، وبخاصة في علاقتها بالدول التي ترتبط بها فرنسا بعلاقات تاريخية، ومنها بلاد المغرب، وأفريقيا جنوب الصحراء، وسوريا ولبنان.

وتعتبر «معركة المخيال» (La bataille des imaginaires)، أو السرد المضاد، أحد أوجه ما يُسمّى في الأدبيات الأمنية بـ«استئصال الراديكالية» (Déradicalisation). ويعتمد ما يُسمّى بالسرد المضاد،

على أكاديميين وكتّاب وصحافيين، يحظون برعاية وعناية إعلامية بل يصبحون موضع استشارة، ويمكن أن نعطي أمثلة من عالم النفس التونسي فتحي بنسلامة الذي يشتغل خبيراً فيما ما يُسمّى بمحاربة الراديكالية بفرنسا، أو الكاتب الجزائري كمال داوود الذي ربط ما بين داعش وبنية الخطاب الإسلامي في مقال عَرَفَ انتشاراً كبيراً ونقلته **نيويورك تايمز**. كما يمكن أن نعطي أمثلة عن السرد المضاد الذي يفكّك المرجعيات الأساسية، مقتفياً أثر محمد أركون، من خلال المغربي الفرنسي رشيد بن الزين، أو العراقية وفاء سلطان. ويدخل الناشط الأمازيغي أحمد عصيد من المغرب في زمرة من يقدِّمون سرداً مضاداً، من خلال قراءة نقدية لتاريخ الإسلام. وقد اعتبر رسائل النبي لملوك عصره، وتأويله للمقتضى المتضمن في تلك الرسائل «اسلم تسلم»، دعوة إرهابية (و لو أنه خلط ما بين الترهيب والإرهاب)، وهو ما لا يخلو من تعسف في التفسير وانتحال الوقائع.

من جانب آخر، يستند منظِّرو الإرهاب على رؤية ومنظور. فأعمال العنف ليست معزولة أو من دون غاية، إذ تندرج في إطار حرب حضارية، لها جذور تاريخية، تحيل إلى الحروب الصليبية، مثلما توظف واقع المسلمين، (الحصار المضروب على العراق وما ترتّب عنه من تجويع باسم «الشرعية الدولية»، مسلمو البوسنة وما تعرّضوا له من تطهير عرقي، أوضاع الحصار المضروب على الفلسطينيين، الاضطهاد الذي يتعرض له مسلمو الشيشان، أو كاشمير، أو الروهينغا مؤخّراً في بورما..)، أو أوضاع الجاليات المسلمة في البلدان الغربية، أو هيمنة الغرب الاقتصادية والثقافية. وتَعتبر أدبيات الراديكاليين الجهاد ركناً سادساً أو فريضة غائبة، وترى

أن الفرق الجوهري ما بين الغرب وعالم المسلمين هو ما عبَّر عنه أسامة بن لادن «أنتم تحبون بيبسي كولا، ونحن نحب الموت». وبتعبير آخر، ما يحرِّك الغرب هو حافز المتعة أو إيروس (Eros) في حين أن ما يحرِّك عالم المسلمين هو حافز الموت أو ثاناتوس (Thanatos)، ومثلما يذهب الفيلسوف الفرنسي ميشال أونفراي في كتابه **أفول**، في الفصل الذي يعالج فيه ظاهرة الإرهاب، فإن من يتوفر على «امتياز» التضحية هو من يكسب المعركة، فالحروب الحضارية، بحسب هذا الفيلسوف، ليست شأن أشخاص ودودين، بل أفظاظ لا يتورعون عن اللجوء إلى القوة، والبشع من الأساليب[1].

بيد أن أهم سند أيديولوجي للإرهاب وتبريره للعنف من منظور الجماعات الإسلامية المتشدِّدة، هو كتاب **إدارة التوحش** لأبي بكر الناجي، ويعتبر مرجعاً استراتيجياً شبيهاً بكتاب **عن الحرب** لكارل فان كلاوزفيتز. فإذا كانت الحرب هي استمرارية للسياسة بوسائل أخرى، فإن الإرهاب استمرارية لـ«الحرب الحضارية» بوسائل أخرى. الغاية التي يرسمها أبو بكر الناجي هي إقامة الدولة الإسلامية، وهذه لن تقوم إلا من خلال الدخول في صراع مع العدو، أو من يجسِّد «الآخر»، ومن يحمل إصْر تعطيل وحدتها وإبقاء حال الفرقة والتمزق. ولذلك يوصي بما يسمّيه بـ«شوكة النكاية والإنهاك»، أي إنهاك القوى الغربية بشكل متواصل بالتهديدات والإرهاب والعدوان، ما سيترتب عنه تفجير الغرب من الداخل، وبخاصة الولايات المتحدة نتيجة عدة عوامل منها «انهيارها الأخلاقي، انعدام المساوة الاجتماعية، الجشع، إعطاء الأولية للمتع الدنيوية». بيد أن

(1) Michel Onfray: *Décadence*, Flammarion, 2017.

الغاية هي إنهاك العدو اقتصادياً جرّاء الحروب المتواصلة، مع ما يترتب عن ذلك من تداعيات اجتماعية من شأنها أن تنهك الغرب. أما المرحلة الثانية فهي ما يسمّيها أبو بكر الناجي بـ«إدارة التوحش» حيث يقوم «الجيش الجهادي» بتدمير أي شيء يقف في وجهه، ولن يستطيع الأميركيون أن يصمدوا لما «وصلوا له إليه من التخنيث مما لا يسمح لهم بأن يكونوا قادرين على تحمل المعارك لوقت طويل، ولذلك فإنهم يعوضون عن ذلك بستار إعلامي خادع»[2].

«غزوة» برشلونة

تعتبر الضربات الإرهابية التي استهدفت برشلونة بتاريخ 17 أغسطس 2017 إحدى الحلقات البشعة في حلقات الإرهاب البغيضة. مقياس البشاعة ليس مقترناً بعدد الضحايا (15 قتيلاً، وأكثر من مئة جريح)، ولكن لحمولته الرمزية ولأنه يحيل على مرحلتين، ما قبل وما بعد.

تأتي الضربة بعد اندحار فلول داعش في الموصل، وتحويله الصراع إلى داخل أوروبا. ذلك أن «غزوة» برشلونة أتت لتؤكّد أن الإرهاب ليس تنظيماً ولكن فكرة، مثلما تؤكّد أن أساليب الإرهاب متطورة.

يأتي استهداف برشلونة لرمزية إسبانيا، التي ظلت تلهب المخيال الإسلامي باعتبارها «الفردوس المفقود»، وبلد محاكم التفتيش، وتهجير المسلمين والتنكيل بهم. مثلما ظلت إسبانيا

---

(2) عبد الباري عطوان، **الدولة الإسلامية، الجذور، التوحش، المستقبل**، دار الساقي، 2015، ص 199.

مسكونة بخطر «المورو» أي المغاربة، وتقترن الإسلاموفوبيا بما يُسمّى بالموروفوبيا، أي العداء للمغاربة.

يحبل تاريخ البلدَين بمناطق ظلّ، منها ما كان يقوم به المغاربة من أعمال قرصنة، تختلط فيه الاعتبارات الدينية أو ما سمّي بـ«الجهاد البحري»، بالنهب والسلب، والاحتماء بجُزر أو بخلجان، وهو ما دفع بإسبانيا إلى احتلال مرافئ من التراب المغربي منها العرائش، والمعمورة والنكور وباديس، فضلاً عن سبتة ومليلة. أما الجُزر التي كان يحتمي بها القراصنة فقد أطلق عليها «الشفّارين»، أي من يحملون الشفرة، وتحوّل نطقها في الكتابات العربية إلى «الجعفرية».

تعتبر حرب 1860 أو حرب تطوان من الفصول المثقلة في تاريخ البلدَين. شنّت إسبانيا الحرب على المغرب بذريعة تحرُّش عناصر من قبائل أنجرة المحاذية لسبتة لعرقلة بناء مكان حراسة، وشرط تسليم الجناة للاقتصاص منهم. كانت إسبانيا تعيش آنذاك وضعاً صعباً داخلياً، استفحل مع تضييعها لمستعمراتها في البحر الكاريبي، ومن ثمة حوّلت اهتمامها إلى جارها الجنوبي كي تقتص من لعنة التاريخ.

لم تصمد الجيوش المغربية والقبائل المعبّأة، وسقطت تطوان، وفرضت إسبانيا شروطها المجحفة، واعتبرت انتصارها تذكيراً باستعادة غرناطة، واستباحت المساجد، مثلما أحيا الحدث، في نفوس ساكنة تطوان، ذاكرة سقوط غرناطة المؤلم، وعمَّ الساكنة الحزن والأسى مما عبَّر عنه الفقيه التهامي أفيلال في قصيدة مأثورة، تذكِّر بسابقة غرناطة، ومشبِّهاً تطوان بالحمامة البيضاء، أي

المسالمة. ولعلّ مما ينبغي التذكير به، في هذه الحرب ذات الطبيعة الصليبية، أولاً التوسع في مرفأ سبتة واحتلال مساحات شاسعة ضُمت إلى سبتة التاريخية التي تخلّى عنها سلطان من سلاطين الأسرة الوطاسية في حالة ضعف، وفرض تعويضات خيالية للانسحاب من تطوان أنهكت خزينة بيت مال المخزن المغربي ورهنت مستقبل المغرب، واحتلال مرفأ في عرض الأطلسي حمل اسماً ذي حمولة صليبية «الصليب المقدس» (Santa Cruz)، هذا فضلاً عن تذويب المدافع المغربية التي غنمتها إسبانيا وصياغة الأسدين اللذين يُرصّعان إلى الآن مدخل مبنى الكورتيس (البرلمان الإسباني) وإطلاق اسم حرب تطوان على شوارع كافة مدن إسبانيا.

يعتبر فصل الموريسكيين المطرودين من إسبانيا سنة 1609 من الفصول المؤلمة في تاريخ الضفتين، وهو حالة من حالات التطهير العرقي بحجة صفاء الدم والعقيدة (Limpieza de sangre)، وهو ما تنعته الأدبيات الكَنَسية بالهولوكست اللذيذ (El agradable holocausto).

سبق لإسبانيا أن عبّرت عن اعتذارها لما حاق باليهود المطرودين، وذهبت أبعد سنة 2015 إذ منحت الجنسية الإسبانية للمواطنين اليهود من أصل إسباني، ولم تقم بشيء تجاه المسلمين من أصل إسباني (الموريسكيون). كان للذكرى الأربعمئة لقرار الطرد والذي صادف المرحلة الممتدة من سنة 2009 إلى غاية سنة 2014، أن يكون مناسبة لفتح هذا الفصل المؤلم، لحوار جدّي، لا للعقاب أو الثأر، مثلما تطفو به بعض خطابات من هم من أصول موريسكية، بل للمعرفة والفهم، ولأن المسؤول عن هذا الفصل المُروِّع ليست

إسبانيا بصفتها كذلك، بل أيديولوجيا معيّنة، مثلما لا يسوغ أن يُحمل كافة المسلمين بجريرة أعمال عنف وإرهاب يجترحها أشخاص أو تنظيمات باسم فهم معيّن للإسلام.

كُلمت إسبانيا جرّاء أحداث إرهابية في مارس 2004. لم تكن تلك الأحداث منفصلة عن سياق تداعيات حرب العراق لسنة 2003، وحلف جزر الآزور الذي جمع الرئيس الأميركي بوش الابن برئيس الحكومة الإسباني خوسيه ماريا أثنار. تحول مجرى الانتخابات لفائدة اليسار، وصعود لويس ثباتيرو الذي أرسى مشروعاً لما سمّي بـ«تحالف الحضارات». والفكرة على نبلها لا تستقيم، لأن الحضارات لا تتحالف، وإنما تتفاعل. ولم يكتب لهذه الفكرة النبيلة النجاح.

أحداث برشلونة تدحض المقاربات التحليلية القائمة والرؤى السائدة، فبرشلونة عاصمة كاتالونيا ظلّت في منأى عن الاتجاهات اليمينية الإسبانية التي تمتح من مرجعية كَنَسية ذي نَفَس صليبي، بل كان إقليم كاتالونيا أكثر تعاطفاً تجاه المغاربة والمسلمين، والأمازيغ خاصة. وبالوقت ذاته سادت فكرة مفادها أن العناصر الأمازيغية، من خلال تقريب مع حالة الأكراد وتسطيح في التحليل، أقرب إلى الغرب منه من العناصر العربية المغربية[3].

(3) « « La deuxième et troisième génération ont peiné à s'intégrer, ce qui a pu faciliter l'endoctrinement à des fins terroristes ». Une explication avancée, du Rif au Souss, à chaque fois que des terroristes d'origine marocaine sont impliqués dans des attentats comme ceux de France ou de Belgique. C'est donc au tour du Moyen Atlas, connu pour être la région la plus tolérante du pays, de découvrir la haine qui sommeillait en certains de ses enfants exilés ». In *Jeune Afrique*, 27 août 2017, « Born in Morocco ».

ليس العرق هو محدِّد توجه معيّن، ولو أن هذه الفكرة سادت لفترة، بناءً على توظيف معيّن وقراءات سادت عقب سقوط حائط برلين تركّز على «المحدد» الثقافي، دينياً أو إثنياً، وإنما الظروف الاجتماعية والاقتصادية هي التي تؤثر في التوجهات. هوية الإرهابيين تحدّدت في الغرب، من خلال شيطنته، بناء على ظروف اجتماعية وملابسات اقتصادية، وأوضاع نفسية وخطابات سياسية تحريضية أجّجت التمايز ومن ثمة رسّخت شعور العداء تتداخل فيه الجوانب السياسية والاعتبارات التي تزعم التمسك بالأخلاق، وعالم المخدرات والانحلال والزعم بـ«التوبة» من خلال أعمال «بطولية».

إن حدث برشلونة يطرح على الإسبان مثلما على المغاربة مسؤولية لتجاوز الكليشيهات القائمة، وبالوقت ذاته مسؤولية لمحاسبة الذات، مثلما ينبغي الإقرار بفشل سياسية الغرب في الهجرة والإدماج والارتكان للحلول السهلة.

لا يمكن طبعاً الضرب صفحاً عن خطابات العداء المستشرية وتأثيرها، ذلك أن العنف، والإرهاب تعبير عنه في أبشع صورة، يبدأ فكرة قبل أن يتمثّل فعلاً.. فلا يزال المغربي في مخيال الإسباني هو الآخر، والعدو المحتمل، ولا تزال إسبانيا في مخيال ليس بعض المغاربة فقط، بل في وجدان كثير من المسلمين، من وضع حدّاً لـ«الفردوس المفقود» ومن طرد الإسلام منها. إن المغرب امتداد لإسبانيا جغرافياً مثلما كانا امتداداً تاريخياً لبعضهما البعض. إن عدم البرء من عبء التاريخ وقراءته قراءة أيديولوجية من شأنه أن يؤجّج الخلاف، أو يُستثمر في صراعات أخرى لا تفصح عن أهدافها الحقيقة.

إن المسألة تتجاوز ما يُسمّى بتحالف الحضارات، أو السرد المضاد، أو حرب المخيال. إنها تفترض حواراً صريحاً بعيداً عن التوجس والارتياب والأحكام المسبقة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الإسلاموفوبيا

تتلازم الإسلاموفوبيا والإرهاب، وإن كانا ذا طبيعيتَين مختلفتَين. فالإسلاموفوبيا، أي العداء للإسلام وللمسلمين، يسبغ «الشرعية» على الإرهاب، مثلما أن الإرهاب يغذّي الإسلاموفوبيا ويؤجّجها. وكلتا الظاهرتين باعتبارهما تعتملان في الغرب، تهددان قيمه وتماسكه الاجتماعي وتحبلان بخطر الحرب الأهلية، وتحملان آثار التمزق الاجتماعي في شكل «غيتوهات» الضواحي وأبارتيد فعلي وانقسام قيمي.

و الإسلاموفبيا تعبير عن ما يسميه العالم الاجتماعي إيمانيول تود بالتنفيس عن الذات، أو البحث عن كبش الفداء.

ومن دون شكّ أن كلاً من الجغرافية، أي الجوار، والتاريخ، وما طبعه من صراع وتداخل ما بين العالم الإسلامي وعالم المسيحية ومن ثمة الغرب، يسهمان في شعور العداء، أو الإسلاموفبيا. فتاريخ الإسلام والمسيحية أو الغرب، يبدو كما لو أنه ساعة رملية تمتلئ من جانب حينما تُفرغ من آخر. ينضح التاريخ بهذه العلاقة الطردية والصدامية، منذ فتح (أو احتلال من منظور إسباني) الأندلس من قِبل طارق بن زياد، الذي لم توفّره قراءة اليوم الأيديولوجية فاعتُبر أول إرهابي من قِبل اليمين الإسباني، فقيام الحضارة الإسلامية في شبه الجزيرة الإيبيرية، ثم سقوط قسطنطينية على يد محمد الفاتح،

وحصار فيينا من لدن الجيوش العثمانية. لقد اكتسى حصار فيينا بُعداً دينياً، وآل ساكنة فيينا المحاصرين ومعهم مسيحيون من أصقاع أوروبا هبّوا ليدافعوا عن حياض المسيحية، أن يذلّوا رمز الإمبراطورية العثمانية فأخذوا يصنعون حلوى على شكل هلال التي تعرف اليوم بـ Croissant، وكان رجل دين إيطالي يُسمى كابوتشي يستحث همم الجيوش ويستنهضهم وقد تعبوا ونضب زادهم فيوزّع قهوة ممزوجة بحليب، وهي ما سيصبح قهوة كابتشينو[4]. وحتى الحركات الاستقلالية في بلدان البلقان في القرن التاسع عشر، لم تسلم من نزوع ديني، وتعاطف من لدن أتباع المسيحية، ويكفي أن نشير كيف أن الشاعر البريطاني بايرون رفع مشعل مطالب استقلال اليونان.

ثم من الجانب الآخر، هناك جزر الحضارة الإسلامية بسقوط الأندلس واستعمار غالبية العالم الإسلامي واحتلال فلسطين وحالة الفرقة والصراع والضعف الذي يعيشه العالم الإسلامي، مما يؤجّج الشعور بالحذر إن لم يكن العداء.

ومع ذلك التاريخ ليس إلا نتاج الجغرافيا. نتاج علاقات الجوار وما تفرزه من منافسة بل من عداء وما يفضي إليه كذلك من تداخل وتفاعل.

في حمأة هذا الصراع وظّف الغرب أداة من أدواته الناجعة، هي دراسة المجتمعات الإسلامية، أو ما يُسمّى بالاستشراق. لقد كانت دارسات علمية رصينة ولكنها لم تخْلُ من خلفية أيديولوجية. ليس

(4) Gilles Kepel: *Fitna. Guerre au cœur de l'islam*, p. 89.

هناك علم اجتماعي مجرّد، ولم تكن تلك الدراسات إلا بوابة علمية من أجل معرفة تلك الشعوب لإخضاعها. ولم تكن تلك النظريات رغم العتاد العلمي تخلو من نظرة مغرضة وحمولة أيديولوجية. لقد كان الاستشراق أداة أيديولوجية كما أوضح ذلك إدوارد سعيد في كتابيه **الاستشراق والثقافة والإمبريالية**، ومع ذلك كانت تلك الدراسات تستند إلى معرفة عميقة بتلك المجتمعات، ولم يستنكف المستشرقون من تعلُّم اللغات الشرقية سواء أكانت اللغة العربية أو الفارسية أو التركية، أو لغات أقل شيوعاً وتأثيراً. وهو ما ينعدم اليوم في صورة الاستشراق الجديد.

إن الإسلاموفوبيا هي نتاج لأزمة داخلية للغرب. لقد تهلهل السدى الثقافي للغرب، وتحلل من أي مرجعية دينية، وأفضى إلى ما أسماه إيمانويل تود بالفراغ الديني[5]، وهذا الفراغ الديني يجد متنفسه في الحط من الآخر وثلبه أو ما يعبَّر عنه بمصطلح مترجَم عن اللغات الغربية: الشيطنة. فالإسلام، وفق هذا الملاحظ، يقوم بدور العدو الضروري، ويحمل مشجب كبش الفداء لكل أدواء الغرب. لم تعد المسألة مرتبطة فقط بتحرشات عنصرية تعيشها الطبقات الدنيا المحتكة فيما بينها، بل بالطبقات العليا من النافذين، وهو التحول الخطير: من رجال السياسة، الذين يتخذون موقفاً مناوئاً في هذه

(5) « L'Islam prend le statut de bouc émissaire, d'ennemi indispensable. Dans l'Europe du début du troisième millénaire, il devient la victime sacrificielle de notre mal-être métaphysique, de notre difficulté à vivre, sans Dieu tout en clamant que notre modernité est la seule possible, la seule valable ». In Emmanuel Todd: *Après la démocratie*, op. cit., p. 39.

القضية أو تلك، من الإعلام، من جهاز الدولة التي ترسي متناً قانونياً ومؤسَّسياً لاحتواء «المدّ الإسلامي»، من علاقات دبلوماسية تحشر نفسها في قضايا ثقافية لهذه المجتمعات. يُخضع الغرب قضايا معقّدة لثنائية العرض والطلب، وبلد الإصدار، وبلد الاستقبال، ولذلك يريد من الحكومات الحليفة أن تقوم بدلاً عنه باحتواء الإسلام، أو بإشاعة إسلام معيّن. وهكذا ظهرت مفاهيم جديدة من رحم الغرب، إسلام أوروبا، الذي من شأنه أن يطوِّر الإسلام نفسه. كذا. والذي أبان عن فضله، أو إسلام مسعود شاه بتعبير برنار هنري ليفي، أو إسلام الدراويش، أو تدبير الطوائف الدينية، من خلال مديرية للمعتقدات تابعة لوزارة الداخلية الفرنسية، أو من خلال برامج الدراسة، أو ما طالبت به فرنسا بتعريف العلمانية.

وبالتبعية يصبح التعليم في البلدان الإسلامية شأناً غربياً تنكبُّ الحكومات الوطنية على النظر في برامجه وفق النظرة الغربية. وهكذا يحشر الغرب نفسه في الإعلام، إما مباشرة وإما عن طريق الاختراق من خلال عناصر مرتبطة به وتخدم بالأساس تصوراته ومصالحه وتأتمر بأجندته، بل قد يتدخل في الحقل الديني بطريقة غير مباشرة، عبر علاقات مع المؤسسات الرسمية المهادنة من منظور تصور معيّن للإسلام، أو النفخ إعلامياً في توجهات معيّنة لدول حليفة.

وعلى خلاف فترة الاستعمار حيث كان للغرب أداة معرفية عميقة من خلال مستشرقين فطاحل، فإن أداة الغرب الاستشراقية ضحلة أو تنخرها الأيديولوجيا.

ودخلت الكَنَسية لفترة على الخط. لقد كانت الكَنَسية قبل البابا بندكت السادس عشر ترى في الإسلام حليفاً ضدّ النزوعات المادية،

وتلتقي معه في قضايا كثيرة ضدّ الإباحية الجنسية والحفاظ على الأسرة، بيد أنه منذ خطاب البابا بندكت السادس عشر في 12 سبتمبر 2006 حينما انتقد الإسلام باعتباره ديناً يقوم على العنف، ويدحض مقتضى الآية ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ باعتبارها نزلت والإسلام ضعيف، وأن الإسلام لم يقدِّم شيئاً يُذكر للإنسانية، دخلت علاقات الكَنَسية والإسلام مرحلة جديدة، غير المرحلة السابقة التي اتّسمت بالتعاون والاحترام. بيد أن الموضوعية تقتضي أن العلاقات الإسلامية المسيحية مع البابا بونوا، عادت إلى طبعتها السابقة من الاحترام.

إن فشل سياسات الهجرة والإدماج، جعل المسلمين في الغرب والجاليات المسلمة تعيش في ما يشبه غيتوهات، مع ما يترتب عن ذلك من نظام أبارتيد فعلي. لقد كان للوزير الأول الفرنسي السابق مانويل فالس من الجرأة والحصافة، غداة ضربات شارلي إبدو، مع أنه ليس ممن قد ينعتون بالحمائم، كي يعبِّر عن واقع الأبارتيد.

لقد أضحى خطاب العداء للإسلام أحد مكونات المشهد الثقافي بل السياسي والمجتمعي في أوروبا، ويستفحل هذا الخطاب مع ما يغذيه من سلوك (اعتداءات، ضرب مجاني، عنف رمزي...)، مع الأزمة الاقتصادية وتواتر الأعمال الإرهابية. إن ضحايا خطاب العداء ليسوا مهاجرين حلّوا بأوروبا ويحملون جنسيات بلدان إسلامية، بل هم أبناء أوروبا، ولدوا بها، ويحملون جنسيتها.

لقد تحولت العنصرية التي طبعت أوروبا والغرب في القرن العشرين، ولازمت الفترة الاستعمارية والمركزية الغربية إلى عداء

لثقافة وحضارة ودين هو الإسلام، وأصبحت مثلما يقول عالم الاجتماع الفرنسي فنسان جيسير الذي أفرد للموضوع كتاباً، «مهنية»، أي تتلفع بالدراسات واستطلاعات الرأي والخبراء، وتأبى أن تميِّز بين الإسلام والاتجاهات التي توظِّفه لأغراض سياسية[6].

أما الصحافي إيدوي بلينيل صاحب موقع ميديابارت (Mediapart)، فقد حلّل الظاهرة في كتابه **من أجل المسلمين**، من خلال استقراء تاريخ فرنسا الحديث وحلول المسلم في مخيال الفرنسي والغربي محل اليهودي حينما كان موضعاً للعداء[7]. ويستحضر قضية دريفوس وما صاحبها من عداء للسامية، وموقف الكاتب الفرنسي إميل زولا، الذي شجب النزوع العدائي المجاني للسامية، واعتبر أن اختلاق عدو وهمي يفضي إلى تحقق الخطر. كما يحيل إلى تحليل سارتر في كتابه **المسألة اليهودية**، الذي يشرح فيها عدم قابلية اندماج اليهودي آنذاك، ليس لأن موانع ثقافية تحول دون ذلك، بل لأن الآخر ينظر إليه نظرة دونية.

هل يقبل الغربيون التصنيف القائل بأن هناك غربيين أُصَلاء (De souche) وآخرين دُخَلاء، ومن ثم نسف قاعدة العيش المشترك والمواطنة، وهي القيم المؤسسة للغرب وللحداثة؟ هل ينظر الغرب إلى مواطنيه غير الأصليين كطابور خامس، مع الأخطار المحتملة

---

(6) Vincent Geisser: *La nouvelle islamophobie*, La Découverte, 2003.

(7) « Le marqueur islamophobe supplante celui de l'antisémitisme. Le message est recontextualisé et peut être véhiculé par ces mêmes mots: le danger islamiste s'oppose aux valeurs laïques prônées par notre pays et fondements de la République française ». In Edwy Plenel, *Pour les musulmans*, La Découverte, 2014.

جراء هذا الطرح، أم يُكبُّ بموضوعية وجرأة على إعادة سياسات الإدماج والأبارتيد الفعلي؟ هناك وضع يرهن قيم المواطنة والعيش المشترك التي من دونها لا يمكن للمجتمعات أن تقوم أو تصمد.

الفصل التاسع

العالم العربي أو الصورة المنكسرة للغرب

قبيل قيام ما سُمّي بدولة الخلافة الإسلامية بالموصل في يونيو 2014 بأسابيع معدودة، أقدمت بلدوزرات لجيش تنظيم داعش (الدولة الإسلامية في العراق والشام) على هدم للحاجز الحدودي بين العراق وسوريا، لما يحمله ذلك من رمزية تحيل إلى اتفاقية سايكس بيكو التي قسّمت المنطقة سنة 1916 إلى مناطق نفوذ ستصبح بعدها وعاء لدول. علّقت الصحافة البريطانية على الحدث بالقول إن الحرب العالمية الثانية انتهت، أما الأولى فلا. كانت تلك الاتفاقات تُقرن بالخطيئة الأصلية، وكان محو الحدود محاولة لإقبار ذلك القرار، واستعادة للذاكرة، وعودة للمكبوت.

ليس الغاية ها هنا رصد تطور العالم العربي، ولكن الوقوف على ما اقترن به في مخيال الغرب لقرون من الزمن. لقد خضع العالمُ العربي أغلبُه للاستعمار، مثله مثل أرجاء أخرى في آسيا وأفريقيا، ولكن علاقة الآخر به، الغرب هنا، لم تكن نفسها تلك التي كانت له مع الأرجاء الأخرى. لقد كان العالم العربي «الآخر» الذي يجسّد «العدو الضروري».

يَردّ الصحافي المغتال سمير قصير في كتابه **مأساة العالم العربي**[1]، جذور الوهن العربي إلى ما أسماه بلعنة الجغرافيا، أي قربه من الغرب، ويُشبّه هذه العلاقة بالساعة الرملية التي ما تمتلئ من جانب حتى تُفرغ من جانب آخر...

علاقات مضطربة

لأكثر من قرنين من الزمن، منذ حملة نابليون على مصر سنة 1798، اقترن مصير العالم العربي بالغرب وبقواه المهيمنة آنذاك، فرنسا وبريطانيا، من خلال تدخلها وسيطرتها أو تأثيرها على النخب الحاكمة. ومنذ ذلك التاريخ والعالم العربي يخضع للتأثيرات الخارجية أكثر منه للدينامية الداخلية، وتظل هذه الأخيرة متأثرة بالعوامل الخارجية سلباً وإيجاباً.

ليس العالم العربي وحدة منسجمة ثقافياً ولا سياسياً، ولم يكن لهذا المفهوم الذي تمّت صياغته من قِبل الغرب، وبالضبط من قبل الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث تحت تأثير واحد من مستشاريه ممن اعتنقوا الإسلام إسماعيل أوربين (Ismaël Urbain)، لم يكن له المعنى ذاته الذي نفهمه اليوم، أي هذا الفضاء الممتد من الخليج إلى المحيط، واقتصر لفترة على بلاد الخصيب وشبه الجزيرة العربية، ولم يتوسع مداه ليشمل هذا الفضاء الممتد من المحيط إلى الخليج، إلا في الأربعينيات مع المفكر ساطع الحصري.

عرف العالم العربي تجربتَين كانتا أولى مظاهر الاحتكاك مع

---

(1) Samir Kassir: *Considérations sur le malheur arabe*, Actes Sud, 2004.

الغرب، وكان يمكن أن تكونا نواة لتحديث، ولكنهما انتهتا بالفشل. أما الأولى فهي تجربة مصر مع حملة نابليون وما أعقبها من تحديث مع محمد علي. لم يزد محمد علي سوى أن اقتفى أثر ما رسمه نابليون، فوظّف خبراء فرنسيين، ومنهم السانسيمونيون، وعهد إلى فرنسي بوضع نواة الجيش المصري مَن سيصبح سليمان باشا بعد أن اعتنق الإسلام وتزوج من مصرية مسلمة، وقام محمد علي بالإصلاح الزراعي ووضع نواة للتحديث. كانت تجربة محمد علي بحقّ واعدة، إلا أن القوتَين الفرنسية والبريطانية وضعتا حدّاً لطموحه حينما خرج من نطاق مصر، وأخذ يشرئبّ إلى الشام ويهدِّد من ثمة الباب العالي.. لم يكن لمصر أن تخرج عن النطاق الذي وضعته القوتان آنذاك، جيوسياسياً واقتصادياً. وضعت القوتان خلافاتهما جانباً واتحدتا في إيقاف طموح محمد علي التوسعي.

أما التجربة الثانية، فهي تجربة الجزائر، وكانت مختلفة عن تجربة مصر. فإذا كان يجوز الحديث عن تلاقح في التجربة المصرية، فإن التجربة الجزائرية كانت اغتصاباً. كانت رؤية كل من الجيش والمعمّرين بل من المثقفين حتى الليبراليين منهم لا ترى حرجاً في القضاء على الآخر. لقد كان منظور المعمّرين الفرنسيين أن ينظروا إلى الأرض منزوعة من أهاليها. من الشهادات المعبِّرة تلك التي قدمها دو توكفيل، أحد أقطاب الاتجاه الليبرالي، عقب زيارة له إلى الجزائر سنة 1840، ونظرته إلى الآخر بكثير من الازدراء بل الدعوة إلى الإبادة. أما الدبلوماسي بريفو برودول (Prévôt Prodol) قد قدّم نظرته للجزائر، لا لتكون كما الهند بالنسبة إلى بريطانيا، وإنما بمثابة أميركا بالنسبة إلى فرنسا، مع ما

يتضمن ذلك من كناية للقضاء على الآخر. إن التجربة الفرنسية بالجزائر هي التي دفعت الحاكم العسكري لوهران ليوطي، مَن سيصبح بعدها أول مقيم عام للمغرب، إلى القول إن الأهالي نُزعوا من شخصيتهم (L'expérience française en Algérie a dépersonnalisé l'indigène).

لم تتستر فرنسا العلمانية عن عمقها المسيحي، وقد كان يتخذ في عدة أنحاء بُعداً صليبياً. صدر لواحد من منظِّري الاستعمار ريدموند توماسي كتاب سنة 1842، اعتبر فيه أن المعركة الحاسمة ما بين فرنسا الممثلة للمسيحية ضدّ الإسلام، ستكون ساحتها بلاد المغرب، وذخرها المغرب الأقصى، وينبغي والحالة هذه التأهُّب لهذه المعركة الحاسمة، وتوظيف العِلم لكسبها، لأن العِلم مثلما يقول توماسي هو «أحد الأسلحة التي ينبغي توظيفها من أجل إخضاع الأرض التي ينبغي أن نقتحمها».

ويعتبر كتاب **معرفة المغرب** للأب شارل دو فوكو، من أهم المراجع التي ارتبط لديها المدّ الاستعماري بهدف تبشيري. كان فقهاء المغرب وعلماؤه واعين بهذا التكالب، وواعين بخطورة سلاح العلم، مع ضعف الحيلة بله العجز. ومن أحسن من عبَّر عن هذه الوضعية المؤرِّخ أحمد بن خالد الناصري في مؤلَّفه **الاستقصا**، إذ اعتبر أجناس الإفرنج كطائر يطير بجناحين، أي العلم والسيف، في الوقت الذي كان المغرب كطائر قُصّ من جناحيه «واقعاً على الأرض، لا يستطيع طيراناً ولا يهتدي إليه سبيلاً، فهل ترى لهذا المقص الجناحين الذي هو لحم على وضم (الخشبة التي يقطع عليها اللحم) أن يحارب ذلك الذي يطير حيث يشاء».

لقد أقامت فرنسا سياستها في الشرق الأوسط على حماية الأقليات المسيحية، وقدّمت هذا المقتضى للضغط على الباب العالي، ثم بعدها في مفاوضتها مع بريطانيا في اتفاقية سايكس بيكو. ورسم واحد من استراتيجييها في تلك الفترة روبير دو كي (Robert de Caix) سياسة فرنسا بالشام بالمراهنة على الأقلية المسيحية وبالأخص المارونية.

وتُعتبر معركة ميسلون في أرباض دمشق صيف 1920، تحولاً حاسماً في نظرة كثير من العرب بالمشرق ممن حملوا مشعل التحرر، حيال فرنسا، مثلما تحمل إرهاصات ما ستؤول إليه المنطقة. لقد كانت نكبة مثلما عبَّر الثوار العرب في ركاب الأمير فيصل بن الحسين، ولم تعد الصفوة العربية تنظر إلى فرنسا كحليف، ولا كحاملة لراية التحرر ولقيم الأنوار، بل من أجهض حلم الوحدة والاستقلال.

أما عن بريطانيا فقد ظلّت النخب العربية تنظر إليها بتوجس وريبة لأنها لم تفِ بوعودها في إقامة مملكة عربية متحدة، ووظفت العرب ضدّ العثمانيين وتخلّت عنهم بعدها.

كانت بريطانيا هي من رسم ملامح الشرق الأوسط فيما سُمّي عقب الحرب العالمية الأولى بالزمن البريطاني (The British moment)، وهي الملامح التي لسوف تسير على أثَرها الولايات المتحدة. تقوم على دعائم هي أولاً وعد بلفور لضمان وطن لليهود، من أجل قاعدة (Platform) تحمي قناة السويس وطريق الهند، وثانياً تقسيم المنطقة إلى مناطق نفوذ، من خلال اتفاق سايكس بيكو، والأخذ بعين الاعتبار عامل البترول (ضمّ إقليم الموصل الذي كان

تابعاً لسنجق حلب إلى العراق لأنْ تمَّ اكتشاف البترول بكركوك التابعة لإقليم الموصل)، وأخيراً حماية مشيخات الجزيرة العربية.

لقد رسم لورد كرومر الذي كان مندوباً سامياً لبريطانيا بمصر، ملامح تصوره للشرق الأوسط من خلال مصر في كتاب مرجعي هو **مصر الحديثة** (*Modern Egypt*)، وحدّد فيها الأدواء العميقة وأجملها في حروف ثلاثة تبدأ بها بالإنجليزية: الكرباج «السوط»، السخرة، الرشوة (Courbash, Corvée, Corruption).

ويعتبر المندوب البريطاني أن مصر عرفت بعثها ليس بفضل التحديث الأهوج الذي أدخله الخديوي إسماعيل، بل بفضل البذور التي غرستها بريطانيا والتي سوف تؤتي أكلها، ولن تستطيع أية قوة رجعية، بحسب الحاكم البريطاني، أن تصدّها عن ذلك، ومنها الصراعات التي تمليها المصالح، والجهل، والتعصب الديني، والأحكام المسبقة النابعة منه.

وقد اعتبر إدوارد سعيد كتاب **مصر الحديثة** من الكتب المؤسِّسة للرؤية الاستشراقية، التي وإن تذرّعت بالموضوعية فهي لا يمكنها أن تتستر عن الرغبة في الهيمنة، وفرض تصور المنتصر من خلال «حلفاء» ووسطاء موالين[2].

---

(2) « The seeds which have now been planted are those of true civilisation. They will assuredly bring forth fruit in due season. Interested antagonisme, ignorance, religious prejudice, and all the forces which cluster round an archaic and corrupt social system, may do their worst. They will not succeed. We have dealt a blow to the forces of reaction in Egypt from which they can never recover, and from which, if England does her duty towards herself, towards the Egyptian people, and towards the civilised world, they will never have a chance of recovering ». In Lord Cromer: *Modern Egypt*.

«السِّلم» الأمريكي

لقد حلّت الولايات المتحدة محل القوتين الاستعماريتين بالشرق الأوسط، عقب الحرب العالمية الثانية، ولم يعد يزاحمها إلا الدب الروسي، واستطاعت من خلال استخباراتها وحلفائها أن تزيحه بعد نكسة 67، ولو أن الاتحاد السوفيتي حافظ على امتدادات له في جبهة الصمود والتصدي، وقوى الممانعة والجبهات الشعبية، إلا أن المنطقة أصبحت تحت ما يمكن أن ينعت على سبيل التورية بـ«السِّلم الأميركي» (Pax Americana).

لقد دشّنت الولايات المتحدة دخولها منطقة الشرق الأوسط بحادث كوينسي (Quincy)، وهي الباخرة التي أقلّت الرئيس الأميركي روزفلت فور انتهاء مؤتمر يالطا، وحملت على ظهرها الملك سعود بن عبد العزيز، وتمخّض عنها بتاريخ 14 فبراير 1945 ما سُمّي بحلف كوينسي الذي أرسى دعائم السياسة الأميركية في المنطقة والقائم على ضمان تدفق البترول وحماية الأنظمة القائمة. لم يرضخ روزفلت لما طلبه الملك سعود في شأن وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وما أصبح غير ذي موضوع مع قيام دولة إسرائيل في 15 مايو 1948. كانت مقتضيات حلف كوينسي، فضلاً عن المعطى الجديد المتمثل في قيام دولة إسرائيل أساسَ ما سمي بنظرية ترومان، والتي أتت رديفاً لسياسة الاحتواء التي أرساها الدبلوماسي الأميركي في موسكو جورج كينان، وأضحت براديغم السياسة الأميركية خلال الحرب الباردة، وتمَّ تحيينها مع ما سُمّي بنظرة كلينتون عقب الحرب الباردة، مع الاحتواء المزدوج (Dual containment) لكل من العراق وإيران. وتقوم نظرية ترومان على رعاية أمن إسرائيل وضمان تدفق

البترول وحماية الدولة العربية المحافظة باعتبارها حليفة، واحتواء المدّ الشيوعي وامتداداته في الأنظمة القومية أو الاتجاهات العروبية.

قيام دولة إسرائيل وهو دعامة ما سُمّي بنظرية ترومان، كان بحسب العالم الاجتماعي الإيطالي ألبيرتو ماريانتوني بمثابة بيغ بانغ (Big Bang) غيّر مسار المنطقة[3]. إن التطورات التي عرفتها المنطقة لا يمكن أن تُفهم من دون هذا الحدث المحدِّد أو الحاسم والذي تناسلت عنه أحداث غيّرت الخارطة السياسة للمنطقة وكذا الثقافة السياسية، تبدّى في استقواء الإخوان المسلمين في مصر، وفي تولّي الجيش السلطة، وفي النزوع إلى الإرهاب وفي تواري نخبة سياسية متحضِّرة وعلى دراية بالغرب وثقافته وأساليبه لفائدة أبناء الفلاحين الذين غَشُوا الجيش ولم يكونوا على معرفة بميكانيزمات العالم، أو إلمام بالثقافة الغربية، واستعاضوا بالشعارات عوض المعرفة العميقة.

كانت آمال الجماهير عريضة، ولكن النخبة الحاكمة في الدول التي حملت مشروعاً سياسياً، تحت لواء القومية العربية، في مصر وسوريا والعراق والجزائر، وبحدود أقل في ليبيا، لم تكن في مستوى تطلُّعات الجماهير. كانت تشكو فقراً معرفياً، واستهوتها المقاربات البوليسية، ما قمع الحرية وأجهض الديناميات الداخلية، فضلاً عن صراع الحرب الباردة، الذي أثَّر سلباً في مآلات تلك الدول. لقد اختارت «الدول التقدمية» نظام التخطيط، مثلما اعتمدت على البوليس السياسي في الضبط السياسي، وكانت مسرحاً للصراع

(3) Alberto Mariantoni: *Le non-dit du conflit israélo-arabe*, Pygmalion, 1992.

بين القطبين. ومن الكتب الرصينة التي حلّلت بعمق وموضوعية أسباب نكوص العالم العربي كتاب إيريك رولو **في دهاليز الشرق الأوسط**، كونه كان ضحية الحرب الباردة، وبخاصة مصر، إذ لا يمكن فصل هزيمة 67 عن سياق الحرب الباردة[4].

ما بعد سقوط جدار برلين

كان العالم العربي الغائب الأكبر من الآمال الكبرى التي حملتها الفترة التي أعقبت سقوط جدار برلين. أخذت أوروبا الشرقية في دمقرطة حياتها العامة، وأخذ المسلسل الديمقراطي يترسّخ في أميركا اللاتينية واقترن بنهاية حكم بنوشي في تشيلي عبر صناديق الاقتراع، وسقط نظام الأبارتيد في جنوب أفريقيا، وعُقدت ندوات وطنية في الدول الأفريقية من أجل التداول على السلطة، أما العالم العربي فقد كان خارج هذه الديناميات الإيجابية. كان العراق قد خرج منهوكاً من حرب مدمِّرة مع إيران، وكان في حاجة إلى دعم لتضميد جراحه وموارد لإعادة بنائه. وصاحَبَ ذلك كثير من الغرور من قِبل حاكم بغداد آنذاك صدام حسين، منها التهديد بحرق إسرائيل. ولم يَسَع الأجهزة الاستخباراتية الغربية وخاصة الأميركية إلا أن توظِّف حلفاءها في الخليج وبخاصة الكويت الذين رفضوا تشطيب الديون، وعمدوا على إغراق السوق البترولية لخفض

---

(4) Eric Rouleau: *Dans les coulisses du Proche-Orient*, Fayard, 2012.
- انظر كذلك كتابي، والفصل المتعلق بـ«ناصر أو الحلم الذي تبدد»:
Hassan Aourid: *Aux origines du marasme arabe*, Éditions Tusna, 2017.

الأسعار، والاستمرار في الضخّ في آبار متنازع حولها، وهو ما كان عبَّر عنه العراق في الجملة المأثور للتعبير عن أن ما تقوم به دول الخليج، وخاصة الكويت هو إعلان حرب أو «قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق»، وانتهى ذلك الخطأ الفظيع باجتياح الكويت يوم 2 أغسطس 1990، والوثوق إلى ما أسرّت به سفيرة الولايات المتحدة إبريل غلاسبي في بغداد إلى صدام حسين، مما سرّبته السلطات العراقية بعدها في أسبوعية **جون أفريك** التي تصدر في باريس بالزعم أن الولايات المتحدة لا تتدخل في الخلافات العربية.. قام تحالف دولي برعاية أميركية لتطبيق «الشرعية الدولية»، وانقسمت دول العالم العربي بين دول التحالف، ومنها دول الخليج زائد مصر وسوريا (6 + 2)، والتي وقفت بجانب العراق، اليمن والأردن والسودان، فضلاً عن منظمة التحرير الفلسطينية، والدول المغاربية التي تأرجحت ما بين مساند للعراق كما الجزائر وموريتانيا، وبين الحياد الإيجابي كما تونس، والحياد السلبي كما مع ليبيا، والمغرب الذي وإن لم ينخرط في التحالف فقد بعث بقواته إلى منطقة حفر الباطن بالسعودية لحماية الأماكن المقدسة. حملت أزمة الخليج تصدعاً داخل العالم العربي، وشرخاً ما بين الحكّام والمحكومين. لقد اعتبر الداعية المصري يوسف القرضاوي أن ما يعيشه العالم العربي هو فتنة كبرى ثانية بعد الفتنة الكبرى التي انقسمت فيها الأمة الإسلامية في فجر الإسلام. ولعلّ من التعابير المعبِّرة عن الطابع المعضل (والعضل والإعضال لغةً هو حين يغص وليد الناقة في فرجها، فلا هو خرج منها كي يعانق الحياة، ولا هو في بطنها يعيش منها)، ما عبَّر عنه الرئيس التونسي الأسبق الحبيب بورقيبة من معزله

بالمنستير بهذا التعبير المغاربي: غاص المنجل بالجرّة (المنجل حصل في القلة)، وبمعنى آخر: لا سبيل إلى إخراج المنجل سوى بكسر الجرة، أي انكسار التوافق العربي.

صاغت وسائل الإعلام الغربية والأكاديمية تصورات سلبية عن العالم العربي من خلال أكاديمييه وخبرائه، وخاصة مع أزمة الخليج. لقد تمَّ تصوير صدّام في صورة هتلر كما سبق أن صُوِّر قبله ناصر، وشكّك باحثون حصيفون أمثال مكسيم رودنسون في وجود العراق، واعتبروه صنعاً بريطانياً... وقد عبّرت شخصية جزائرية، ممن لا يمكن أن تنعت بالانحياز إلى الطرح القومي، المرحوم حسين آيت أحمد في مقال له في **لوموند** صدر في أعقاب أزمة الخليج (9 مارس 1991) بالقول إن تاريخ العالم العربي بالغرب هو تاريخ وعود غير منجزة ومواعيد مُخْلَفة. يبقى هذا التقييم قائماً يحتفظ براهنيته.

وقليلة كانت الأقلام التي لم تَنْسق للاتجاه العام في الغرب، ومنها في فرنسا جاك بيرك ودولوز، ونعوم تشومسكي في الولايات المتحدة، وزبينيو بريجنكسي.

إن حرب الخليج تمخّضت عن وضع مثلّث، لسوف يطبع العالم بعد إغلاق قوس جدار برلين: ضلع المنتصر الذي سيزدهيه النصر وهو الولايات المتحدة، وضلع المنهزم وهو روسيا التي لم تتجرع المهانة، وضلع ساحة الصراع والضحية وهو العالم العربي.

إن موقف روسيا من الوضع في الأزمة بسوريا التي اندلعت في سياق ما سُمّي بالربيع العربي، لا يمكن أن يُفهم من دون سابقة حرب الخليج، والطريقة التي «عالجت» بها الولايات المتحدة

الوضع في العراق، وسعيها لقولبة العالم العربي. لقد رفضت روسيا دور الكومبارس في أزمة سوريا، ما يشرح اهتماماً بشؤون العالم العربي وقضاياه.

لقد كان دور الولايات المتحدة كما عبَّر عنه الوزير الأول الفرنسي السابق، ومن كان رئيساً لدبلوماسيتها، دومينيك دو فيلبان في كتابه **مذكرات السلام في زمن الحرب**، بمثابة جرّاح أهوج (Le chirurgien fou)[5].

11 سبتمبر والقولبة الفاشلة

اعتبرت الولايات المتحدة منذ 11 سبتمبر أن المعركة مع العالم الإسلامي، ومن ثمة مع العالم العربي، معركة مخيال ولذلك سعت من خلال مراكز أبحاثها ووسائطها (قناة الحرّة، إذاعة سوا...) أن تقولب العالم الإسلامي. لقد دأبنا، يقول الصحافي الأميركي توماس فريدمان، على الحديث مع وزير البترول في السعودية، ويتعيّن منذ اليوم أن نتحدث إلى وزير التربية الوطنية. ويضيف، لقد كنا ننظر إلى السعودية كمحطة بنزين، وذهلنا أنها يمكن أن تكون مشتلاً للإرهابيين.

لقد أرسى معهد المشروع الأميركي وصفة إعادة صياغة العالم الإسلامي، في إطار ما سُمّي بالشرق الأوسط الكبير، تحت تأثير المحافظين الجدد، من خلال مداخل هي التربية، وأوضاع المرأة، والحكامة.. واعتُبر العراق ساحة تطبيق تلك الرؤى.

---

(5) Dominique de Villepin: *Mémoire de paix pour temps de guerre*, Grasset, 2016.

لا حاجة إلى الإسهاب حول مآل تلك الرؤى، سواء بالعراق أو الدول الحليفة للولايات المتحدة، فلم تكن تلك المداخل، على وجاهتها، نتاج حوار، فبالأحرى أجرأتها، بل كانت إملاءات ذات طبيعة عامة، من دون أن تأخذ بعين الاعتبار خصوصية كل بلد، وكل مجموعة إذ من الخطل أن توضع مصر في الحالة ذاتها مع أفغانستان، أو تونس مع بنغلاديش.. كانت الولايات المتحدة وخبراؤها يشتغلون من خلال قوالب محدّدة سلفاً (انظر فصل التكنوقراطي).

ويُعتبر العراق حالة مدرسية لفشل المقاربة الأميركية.. لقد سعت الولايات المتحدة بقضّها وقضيضها (جيشها وخبرائها) بعد حرب 2003 إلى قولبة العراق. قاربت الولايات المتحدة الوضع بالعراق بمثل المقاربة التي سبق أن أجرتها مع ألمانيا النازية، وبادرت بحل الجيش، وبطرد البعثيين وفصلهم عن مناصبهم، فيما سمي بـ Dé-baathisation أسوة بـ Dé-nazisation، واعتمدت على الطائفتَين الكردية وفصيل من الشيعة، على حساب السُّنة الذين نُظر إليهم كدعامة لنظام صدام ورواسب لما تريد أن تحاربه، كما تبنّت ما سُمّي بالمحصاصة، أي حصص المناصب والموارد والامتيازات بحسب الطوائف.

اعتبرت الولايات المتحدة «دمقرطة» العراق سبيلاً لدمقرطة الشرق الأوسط بناءً على توظيف للمدرسة الليبرالية التي كانت تزعم أن الديمقراطيات لا تجنح للعنف، وأن التجارة تحلُّ محل الحرب.

إلا أن الوصفات التي أخذت بها الولايات المتحدة، من طائفية ومحاصصة، كانت تغذّي التوتر وتحمل بذور العنف، الذي سينتهي بقيام داعش.

في مآلات «الربيع العربي»

لم يُرعد الربيع العربي في سماء صحو. كان مبلّداً بالاستبداد والاستفراد بالسلطة والاستحواذ على الثروة من قِبل أوليغارشيات مغلقة. كانت الأنظمة القائمة تجدُ في سياق ما بعد 11 سبتمبر والحرب على الإرهاب، دعمَ الغرب، وتغاضيه عن التجاوزات الحاصلة بل تواطؤه. ويكفي أن نشير هنا إلى تصريح الرئيس الفرنسي السابق جاك شيراك في زيارة له لتونس أثناء حكم بن علي، وقوله بأن العيش هو أول حقوق الإنسان، أو الحفاوة التي خصَّ بها نيكولا ساركوزي للعقيد معمر القذافي، أثناء زيارته لباريس، وإقامته لخيمة بها، أو الاستقبال الذي خصه سيلفيو برلسكوني، الوزير الأول لإيطاليا حينها للحاكم الليبي آنذاك، ناهيك عن العلاقات الوطيدة ما بين الولايات المتحدة ونظام حسني مبارك.. لقد كان الغرب متواطئاً في كثير من الأنحاء مع أنظمة عربية مستبدّة.

اندلع «الربيع العربي» وكان تعبيراً عن غضب ناجم عن تضييق هامش الحرية وتدهور الوضع الاقتصادي لشرائح واسعة، ومنها بخاصة الطبقات المتوسطة التي كانت ترى في الأنظمة القائمة دعامة للاستقرار، ولكنها أمام توغّل الأولغارشيات حوّلت ولاءها نحو الجماهير، ورعت مطالبها وحملتها من خلال وسائطها والإعلام والثورة الرقمية وتمرسها بالتنظيم، ما أبطل مفعول أنظمة بوليسية رهيبة، كما مع نظام بن علي في تونس أو حسني مبارك في مصر.

إلا أن الربيع العربي لم يكن إلا نعياً لمنظومة دون أن يحمل تصوراً للمستقبل. أعقب فورةَ الآمال واقعٌ مريع بلغ أوجه مع قيام

دولة الخلافة في يونيو 2014، ما اعتبره الباحث السوري برهان غليون بنهاية النظام العربي.

لقد أخذ القديم يتهاوى، ولكن الجديد لم يولد بعد، بحسب التعبير المأثور لغرامشي.

إن المنظومة التي أخذت في التصدع هي تلك التي كان أرساها الاستعمار، سواء من حيث التقسيم الترابي، أو النخب الحاكمة، أو الخيارات المرسومة، أو رعايته الأمنية لبعض الأنظمة. ومن العسير أن تثبت كل هذه المعطيات تحت تأثير الأزمة التي يعيشها الغرب، والديناميات التي تعرفها بلدان العالم العربي. لقد عبّرت أسبوعية **ذي إيكونوميست** في نظرة لا تخلو من تشفّي، أن تلك المنظومة التي أقامها الاستعمار هي تلك التي سمحت لنخب أن تحكم دولاً محل بنيات عرقية وطوائف دينية لم يكن من الممكن أن تتوحّد لو لم يوحّدها «الاستعمار». وبتعبير آخر، إن كانت بريطانيا التي وضعت معالم الشرق (ويمكن قول الشيء ذاته بالنسبة إلى فرنسا في بلاد المغرب) قد تعرّضت لانتقادات جمّة جرّاء ما اعتُبر خطيئة أصلية، فمن حقّها أن تذكّر بالواقع المريع لما يجري لمن أرادوا أن يخرجوا عن قوالب سايكس بيكو.

إن لما قدّمته المجلة البريطانية جانباً من الصحة، ذلك أن الأنظمة في العالم العربي لم تخرج عن القوالب التي وضعها الاستعمار، إنْ لم ترتبط بولاءات له، وعرفت عودة قوية له في أعقاب العولمة، من غير جيوش ولا أدوات زجرية، بل من خلال رضوخ طوعي.[1]

ليست سايكس بيكو حدثاً بل منظومة، وبدأت إرهاصاتها في

مؤتمر برلين لسنة 1885 من أجل تقسيم العالم، وقبله في معاهدة مدريد 1880، وعرف تطبيقه مع المعاهدة البريطانية الفرنسية لسنة 1904 التي بمقتضاها تنازلت فرنسا عن مصر لصالح بريطانيا، وبريطانيا عن المغرب لصالح فرنسا، وتضمّن الاتفاق تقسيم المغرب ما بين فرنسا وإسبانيا، دون مراعاة رأي المعنيين، وظلت الحدود، كما رسمتها القوات الاستعمارية، قنابل موقوتة. ويمكن القول إن الحراك القائم بالمنطقة، سواء في الشرق الأوسط أو بلاد المغرب (شمال أفريقيا)، يتهدد المنظومات القائمة، بل إن الوعاءات الترابية مهددة ذاتها، من خلال التقسيم والانفصال، أو تأجيج التمايزات الجهوية والاختلافات الثقافية وما قد يفضي إليه من توتر وصراع.

إن الغرب يمرُّ بتحول استراتيجي، وإن هذا التحول لسوف ينعكس على العالم العربي. وبقدر ما يحمل من الأخطار بقدر ما قد يحمل من السوانح، طالما اضطلعت النخبة الفكرية بدورها.

لقد كان المحددَ الأساسي لسياسة الغرب تجاه العالم العربي الوضعُ الاستراتيجي له، باعتباره ملتقى ثلاث قارات، ومَعبراً للمنافذ البحرية (جبل طارق، قناة السويس، باب المندب، مضيق هرمز)، فضلاً عن تواجده على أكبر احتياطات لمصادر الطاقة. لقد فقدَ العالم العربي «الامتيازَين» اللذين كانا يحدّدان سياسة الغرب حياله، المعابر البحرية والبترول، إذ أن 70% من التجارة العالمية تمرُّ عبر بحر الصين، وأخذ البترول يفقد امتيازه الاستراتيجي لفائدة مصادر بديلة للطاقة. إن ما يملي سياسة الغرب نحو العالم العربي هي الاعتبارات الأمنية، وبخاصة خطر الإرهاب، لا يقدح في ذلك زيارة ترامب للسعودية في مايو من سنة 2017.

إن الأوضاع الجديدة التي تعيشها دول العالم العربي، كل واحدة على حِدة، من خلال ضغط الشباب، والأزمة الاقتصادية والاجتماعية، وخطابات الخصوصية، فضلاً عن التطورات الإقليمية المتّسمة بالتوتر (اليمن في الجزيرة العربية، فضلاً عن الصراع سُنّة-شيعة)، الوضع المحتقن في العراق، التمزُّق الذي تعرفه سوريا، وسابقة الانفصال في السودان، التمايزات الجهوية التي تعرفها ليبيا، وبؤرة التوتر في شمال غرب أفريقيا الذي تغذّيه قضية الصحراء، فضلاً عن التغييرات على مستوى العالم، كل ذلك يفرض تحديات جمّة على النخبة الفكرية والسياسية.

لقد أجمل المفكر الأردني واقع ما أسماه باليقظة العربية الثانية، من أنها يقظة جماهير من دون نخب على عكس اليقظة الأولى التي اعتملت في بداية القرن الفارط، والتي كان شأن نخب من دون جماهير.

سبق لتقرير للأمم المتحدة للتنمية البشرية لسنة 2002 أن رصد أدواء العالم العربي، وأجملها في اقتصادات ريعية لا ترتبط بعلاقات بينية، وعلى ضعف في الحكامة، وعلى تدنّي مستوى المعرفة وضعف الإنتاج الفكري كمّاً وكيفاً.

ولا سبيل للتصدي لتلك الأدواء بتقنيات بل بفكر، ولا سبيل لتجاهل الديناميات المجتمعية أو الغضّ عنها مثل الدعوة إلى شيطنتها، من قبيل نعتها بالائتمار بأجندة خارجية، أو كونها أذرعَ تدخل أجنبي. يتعيّن فهم دواعيها ومعانقتها لجعلها ديناميات إيجابية.

ألا يقول الشاعر الألماني هولدرن؟ كلما كبر حجم الأخطار، كبر ما من شأنه أن ينقذنا.

إن الغرب ليمرَّ بأزمة وجودية ولسوف يتأثر بمجرياتها العالم، ولسوف تنعكس بدرجة أولى على العالم العربي بحكم الجوار الجغرافي، والإرث التاريخي، والتداخل الاجتماعي (الجاليات التي تعيش بالغرب، والفئات المتغربة الماسكة بزمام البنية التقنية في العالم العربي) والمصالح الاقتصادية (البترول، السياحة..) وعامل الإرهاب ومضاعفاته. إن الأسوأ ما سيأتي إن لم يستوعب العالم العربي التحول الجاري في العالم، ولم يوظِّف إيجابياً الديناميات بداخله، وغلّبت الأوليغارشيات القائمة والطغمات الحاكمة مصالحها على مصالح شعوبها. فليس هناك لعنة لصيقة بالعالم العربي، وليس ما يعيشه أسوأ مما عاشته أمم وحضارات استطاعت أن تحسِّن الانعراج مع المنعطف كما يقال بالفرنسية. وكما يقول المثل العربي: قبل الرِّماء تُملأ الكنائن.

مكتبة
t.me/soramnqraa

المحتويات

توطئة 7
الفصل الأول: باسم الاقتصاد 21
الفصل الثاني: نهايةُ نهايةِ التاريخ 43
الفصل الثالث: العلم والعلموية 67
الفصل الرابع: هل حررت الثورة الجنسية الإنسان؟ 85
الفصل الخامس: الصورة الحاجبة 107
الفصل السادس: الديمقراطية بين المال والإعلام 129
الفصل السابع: التكنوقراطي سادن الحداثة 149
الفصل الثامن: العيش المشترك على المحكّ 169
الفصل التاسع: العالم العربي أو الصورة المنكسرة للغرب 189

telegram
@soramnqraa

حسن أوريد

أفول الغرب

إن ما يعتمل في العالم العربي ليس سوى رجع صدى لأزمة الغرب في جوانب كثيرة منه. ومن شأن التوتر أن يستفحلَ في ظلِّ سباق قِوى دولية جديدة وتواري أخرى، وبروز قوى داخلية بمرجعيات أيديولوجية جديدة. وقد يفضي الأمر، في غياب مفهوم الدولة بصفتها عقداً اجتماعياً، وثقافة الحوار، ووسائط للتسوية، إلى اصطدامات مريعة. فسياسة الغرب حيال العالم العربي غير مستقرة ولا تخضع لمعيرة أو براديغم، وهي إلى ذلك مترددّة ومتأرجِحة. ليس ذلك إلا تعبيرٌ عن الأزمة البنيوية التي تعتور الغرب... والشأن نفسه يقال عن التغييرات التي طالت العالم العربي والقوى الجديدة التي برزت من داخله، بمرجعيات جديدة، منها داعش، لا كتنظيم فقط ولكن كفكرة بالأساس، ومنها الخطابات العرقية، ومنها الانتماءات الجهوية، ومنها دعوات الانفصال بشكل سافر أو مستتر، ومنها شرائح واسعة من الشباب تشكو البطالة والتيه الوجداني والوجودي، ممّا سيؤثّر على مجريات الأمور في المستقبل.

❖ ❖ ❖

حسن أوريد، كاتب وأكاديمي من المغرب، أستاذ العلوم السياسية بجامعة محمد الخامس وبوردو. من أعماله الأدبية **ربيع قرطبة**، و**جذور الوهن العربي** (بالفرنسية).

ISBN 978-9953-68-869-5
9 789953 688695

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com